نصوص بلاغيّة

من مباحث البيان والبديع

اختيار وتقديم

دكتور عبد الحكيم راضي

الطبعة الثانية

٢٠٠٥

مكتبة الآداب

تمهيد فى موضوع علم البيان

رأينا فى المرحلة السابقة كيف أنّ صفَة المطابقة - مطابقة الكلام لمقتضى الحال - هى الصّفة الأولى والأساسيّة التى يجب تحقُّقُها فى الكلام البليغ . وعرفنا تعلُّق هذه الصفة - أو ارتباطَها بمدى صلاحية العبارة اللغوية - أو التركيب- لحمْل وإفراز (المعنى النحوى) الذى يتطلّبه الموقف - أو الحال - ذلك المعنى الذى أطلقوا عليه اسم (مقتضى الحال) .

كما تبيّن لنا أن البلاغة لا تبحث فى (ما نقول) ، وإنما تبحث فى (كيف نقول) ، أو - بعبارة أخرى : لا تبحث فى (مادّة المعنى) وإنما تبحث فى (صورة المعنى) ، أى فى كيفية صياغته، وقد تأكد لنا هذا المبدأ منذ قرأنا الحوار بين أبى العباس الكندى الفيلسوف وأبى العباس اللغوى حول قول العرب :

عبد الله قائم

إن عبد الله قائم

إن عبد الله لقائم

وكيف قال الفيلسوف : إن المعنى فى الجمل الثلاث واحد ، يقصد أن كلاً من الجمل الثلاث تحمل معنى واحدًا هو نسبة القيام إلى عبد الله- أى نسبة الخبر إلى المبتدأ - بينما ذهب أبو العباس اللغوى إلى أن كل جملة من الجمل الثلاث تحمل - مع المعنى الأصلى- معنىً آخر إضافيا يختلف عن المعنى الذى تحمله الجملة الأخرى، بحيث تصلح كلّ جملة لموقف ومخاطب معيّنَيْن دون غيرهما، هذا مع أن المعنى الأصلى (نسبة القيام إلى عبد الله) هو هو لم يتغيّر، ولكن الذى تغيّر هو المعنى النحوى الذى يتغيّر بتغيّر صورة العبارة .

وقد مرّ بنا أن (علم المعانى) هو الذى يقوم على دراسة هذا النوع من المعنى برْصد صور التراكيب وتغيّراتها -أو أحوالها- وما تستتبعه من هذه المعانى لمعرفة مدى المناسبة -أو المطابقة- بينها وبين مقتضيات الأحوال التى تُساق فيها .

أما الصفة الأخـرى التى يشترطونها إلى جانب صفة المطابقـة - فهى صفة (الفصـاحة) وقد جعلوها - هى الأخـرى - شرطًا لبلاغة الكلام، ولهـذا كان لابد من بحثها فى كتب البلاغة . .

وقد رأوا أنّ الفصاحـةَ تكون فى الكلمة المفردة، وتكونُ فى الكلام المركَّب وذلك إذا خَلَتْ الكلمةُ المفردةُ، وخلاَ الكـلامُ المركب من عدد من العيوب التى تسلبه صفة الفصاحة .

فالكلمةُ المفردَةُ تكون فصيحةً إذا كانت خاليةً من عيوب ثلاثة هى :

١- التنافر ، أى تنافر الأصوات داخلَ الكلمة الواحدة .

٢ - مخالفة القياس (الصرفى) أى عدم موافقتها لقوانين الصرف .

٣ - الغرابة ، أى أن يكون معناها غريبا لا يتّضِحُ بسهولة للسامع أو القارئ .

فإذا خلت الكلمة المفردة من هذه العيوب كانت فصيحةً .

أما الكلام المركَّب فـإنه يكون فصيحًـا إذا كان خاليًا من عيـوب ثلاثة أيضًا هى :

١ - تنافر الكلمات داخل العبارة .

٢ - ضعف التـأليف ، وهو عيب نحوىٌّ ، وقد مـثّلُوا له بعودة الضمـير على كلمة متأخرة فى اللفظ وفى الرتبة (راجع نص القزوينى من الإيضاح) .

٣ - التعقيد ، وهو : عدم وضوح معنى الكلام ، وقد رأوا أن منه ما يعود إلى اختلال تركيب الألفاظ فى الكلام المركب ، وسموه **التعقيد اللفظى** وهو فى أساسه عيبٌ نحوىٌّ ، كمـا رَأَوْا أنَّ منه ما يعودُ إلى عَدَمِ وضُوح دَلاَلَةِ

الألفاظِ فى استخدامِها المَجازىّ وقد أطلقوا عليه **التّعقيد المعْنَوىّ** .

ينبغى إذن - لكى يكون الكلام فصيحًا - أن يكون خاليا من مجموعة العيوب السابقة ، سواء فى الكلمة المفردة أو الكلام المركب ، ومعنى هذا أن على دارس البلاغة أن يعرف من العلوم ما يمكّنه من تجنُّبِ العيوب المخلّة بالفصاحة لكى لا يقع فيها وهو يحاول الإنشاءَ ثم ليكون قادرًا على اكتشافها حين يصادفها فى كلام غيره .

لذلك كان السؤال المطروح هو: أىُّ العلوم يدرسها طالب البلاغة ليتجنّبَ عيوبَ الفصاحة ؟ ، وكان الجواب : إن هذه العيوب تعود إما إلى الأصوات - كعيب التنافر - وإما إلى الصرف - كعيب مخالفة القياس - وإما إلى النحو - مثل ضعف التأليف والتعقيد اللفظى- وإما إلى مَتْن اللغة - وهو عيبُ الغرابة، ومن هنا أشاروا على دارس البلاغة أن يستمد المعلومات التى تجنّبهُ الوقوعَ فى عيوب (الفصاحة) من علوم : الأصوات والصرف والنحو ومَتْنِ اللغة ، ولَمّا كانت هذه العلوم موجودة فعلاً ولها كتبها المعروفة فقد رأوا أنه لا داعى لأنْ يعيدوا الكلامَ فيها مرة أخرى .

وهنا نتذكر ما سبق أن قلناه من أنه بالرغم من أنّ هذه العلومَ ليست هى البلاغة فإنّ معرفتَها لازمةٌ لدارس البلاغة، إذ إنها - كما نرى - تفيده فى تَجنُّب عيوبِ (الفصاحة) التى هى -أى الفصاحة- أحَدُ شَرْطَى بلاغة الكلام ، وهذان الشّرطانِ - كما نذكر - هُما : المطابقة لمقتَضَى الحال ، والفصاحة .

هنا يبرز سؤالٌ عن العلْم الذى نتجنّب بدراسته (التعقيد المعنوى) ، وقد سبق أن عرفْنا أنّ التعقيدَ المعنوى عيبٌ من عيوب الفصاحة فى الكلام المركّب .. إلى جانب عدد من العيوب الأخرى .. وأنهم حدّدُوا علومًا يمكن بدراستها تجنُّبُ هذه العيوب، أما التعقيد المعنوى فإنهم لم يجدوا علما يقوم

على دراسة أسبابِه وطريقـة تجنّبه . لذلك أنشأوا علمَ **البيان** ليَضْطَلعَ بدراسة هذا العيبِ كى يمكن التخلُّصُ منه ، وبذلك تُمْكِنُ دراسةُ كلٍّ عيوب الفصاحة. وكما أن علم المعـانى يقوم بدراسة كيفّـية مطابقة الكلام لُمقتَـضَى الحال حتى لا يخطئْ المتكلمُ فى هذه المطابقـة ، فإنّ علمَ البيـان يدرس كيفّيـةَ تجُّنب التعقـيد المعنوى متعاونًا مع علوم الأصوات والصرف والنحـو . . . إلخ من أجل مراعاة شروط الفصاحة .

بذلك يتّـضح دَوْرُ كلّ من هذين العلمين ، فعلم المعـانى مضطلـع بمراعاة المطابقـة ، وعلم البيـان مضطلع- مع بقـية العلوم اللغـوية المذكورة - بمـراعاة صفـات الفصاحـة ، وقد أضافوا علمًـا ثالثًا هو علم البـديع الذى يهتم بألوان تحسين العبارة من سجع وجناس وازدواج . . إلخ .

وبذلك صارت علوم البلاغة ثلاثة هى : المعانى ،والبيان ، والبديع .

الأول : يدرس صفة المطابقة لمقتضَى الحال .

الثانى : يكمل دراسة صفات الفصاحة .

الثالث : يقوم على بحث ألوان التحسين .

كلمة حول مفهوم (التعقيد المعنوى)

قلنا إن البلاغيين يجعلون نصيبَ عـلم البيان من الدرس البلاغىّ أنْ يعرّفنا التعقيدَ المعنوىّ حتى يمكننا تجنُّبُه فى كـلامنا. وقد عرّفوا التعقيد المعنوىَّ بأنه «أن لا يكونَ انتقالُ الذّهْن – أى ذهن المتلقّى – من المعنى الأول إلى المعنى الثانى – الذى هو لازِمُهُ والمُرادُ به – ظاهرًا ».

وأول مـا يلقانا فـى هذا التعـريف هو مـصطلحـا (المعنى الأول) و(المعنى الثانى). . ويُقـصَد بالمعنى الأول: المعنى الـوَضْعِىّ المباشـر للكلمة أو العـبارة، فالمعنى الأول لكلمة (الأسد) –مثلا– هو ذلك الحيوان المفترس المعروف، والمعنى الأول لكلمـة (البَدْر) هو ذلك الكوكـب المنير الذى نعـرفه . . وكـذلك المعنى الأول لكلمة (الشمس) .

فإذا جاء المتنبى يصف لقاء سيف الدولة ورجاله له ، وقال :

ولمْ أرَ قَبْلِى مَنْ مَشَى البَدْرُ نحوَهُ ولاَ رجُلًا قامتْ تُعانقُهُ الأُسْـــدُ

وإذا قال آخرُ فى وصف جارية يحبّها :

قامتْ تظلّلُنى ومِنْ عَجَبٍ شمْسٌ تظلّلُنى منَ الشّمْسِ

وجـدنا لكلٍّ من كلمـة (البدْر)، وكلمـة (الأُسْـد) – وهى فى بيت المتنبى جـمعٌ بضمِّ الألف وسكون السِّين – وكلمـة (الشـمس) فى البـيت الثـانى . . وجدنا لكلٍّ من هذه الكلمات مـعنى آخرَ هو الذى قصدَ إليه الشـاعر ، فالبدر هنا مـقصودٌ بـه الإنسان الحَـسَن الوجه ، وهذا هو المعنى الثـانى لهذه الكلـمة ،وكلمة (الأُسْـد) مقـصودٌ بها الرجـالُ الشجـعان ، وهذا هو معنـاها الثانى، وكذلك كلمة (الشّـمْس) فى البيت الثانى مقصود بهـا المرأة الجميلة ، وهذا هو معناها الثانى .

وواضحٌ أنّ (المعنى الثانى) هو المعنى المجازى الذى ينتـقل إليه ذهن السامع

أو القـارئ بعد أن يتلـقى (المعنى الأول) ، وذلك بفـعل السيـاق أو الموقف أو غيـرهما من القرائن ، يُضـاف إلى هذا أن لِلَفظِ المستـعمَل إيحاءاتٍ أو مـعانى تلازمه ، وهذه هى المعانى التى ينصرف إليهـا الذهن عند سماع اللفظ ، فكلمة (الأسد) توحى إلينا عند سـماعها بـالشجاعة والجـرأة ، وكلمة (الزهرة) توحى بالجمال والرقـة ، وكلمة (السيف) تُوحِي بالقَطْع والحَـسْم والمضاء فى الأمور ، وكلمة (الرِّيح) توحى بالسرعة كما توحى بالكرم . . وهكذا .

فإذا أطلقت الكلمة وأُرِيدَ بـها معنى من المعانى التى تلازمهـا على نحو ما بينَّا، انصرف الذهنُ من المعنى الأول إلى المعنى الثانى فى يُسْـرٍ وسهولة، وفُهِمَ المعنى المرادُ من الكلام، وعندئذٍ يُوصف الكلامُ بأنه خالٍ من التعقيد المعنوىّ. . أما إذا صَـعُبَ على الـذهن أن ينتـقلَ من المعنى الأول إلى المعنى الثـانى (وهو المعنى المراد) فإن الكلامَ يُوصَفُ بأنه معقَّد تعقيدًا معنويًا. وعلى سبيل المثال فى قول أبى تمام يمدح أحد القادة بالشجاعة، ويصف فرار عدُوِّه أمامه :

وَلَّى، ولَمْ يَظْلِمْ، وما ظَلَمَ امرُؤٌ حَثَّ النّجاءَ وخَلْفَهُ التِّنِّـــــــينُ

لقد استخدم أبو تمام كلمة (التنين) ليعبّر بها عن الإنسان الشجاع ، ولكن المعنى الأول لهـا يدل على حيـوان كريه ،ولم يَشِعْ بين الناس أن يعـبَّرَ به عن مـعنى الشجاعة أو الإنسان الشجـاع ، ولذلك فقد يكون من الصّعْب أن نتصور المعنى الذى أراده من هذه الكلمة . . أى يكون من الصـعب أن ينتقل ذهنُنا من المعنى الأول لكلمة (التنين) وهو الحـيوان الكريه ، إلى المعنى الثانى المقـصود ، وهو الإنسان الشـجاع ، وهنا تُوصَفُ الاستـعارة بأنها بعيـدة ، أو تُوصَفُ بالتعقـيد المعنوى .

مباحث علم البيان

إذا كان (علم البيان) يعلّمنا كيفيةَ الاحتراز عن الوقوع فى التعقيد المعنوى - الذى هو صعوبة انتقال الذهن من المعنى الأول إلى المعنى الثانى - فهذا يعنى أن مجالَ بحثه هو الألفاظ المستعملةُ فى غيرِ معناها الحقيقى ، وهذا المعنى الحقيقى يُطْلَقُ عليه : الدلالة الوضعيَّةُ ، أو الحقيقيّةُ، وأحيانًا : الدلالة اللفظيةُ أو : دلالة اللفظِ على ما وُضِعَ له. أما المعنى غير الحقيقى فيطلَقُ عليه: الدلالةُ العقلية، أىْ دلالة اللفظ على معنى آخر غيرِ معناه الحقيقى ، كدلالة (الأسد) على الرجل الشجاع، ودلالة (البحر) على الرجل الكريم . . . إلخ ، فهذه الدلالات تُسَمَّى دلالاتٍ عقلية ، أو هى ما يُسمَّى بالمعنى الثانى كما سبق القول .

وهذا هو موضوع البحث فى علم البيان، أعنى الألفاظ المستعمَلة بدلالاتها العقلية، أو ما أطلقوا عليه: دلالة اللفظ على غيرِ ما وُضِعَ له، وقد وجَدُوا أن اللفظَ يُطْلَقُ على غير ما وُضِعَ له فى صورتين رئيسيّتين هما: المجاز والكناية، وهما يشتركان فى أنّ اللفظَ -أو العبارةَ- تُطْلَقُ ويُرادُ بها معنى آخر غيرُ معناها الحقيقى، فمن أمثلة المجاز ما مر بنا من قبلُ فى قول الشاعر :

« شمسٌ تُظَلّلُنى من الشمس »

ومن أمثلة الكناية قوله تعالى عن المسيح عليه السلام وأمه مريم :

كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ

فكلمة (الشمس) الأولى فى البيت استعارة -وهى قسم من المجاز- أما عبارة (يأكلان الطعام) فى الآية القرآنية فهى كناية عن قضاءِ الحاجة، وهذا من صفات البشر. وواضح أن كلمة (الشمس) فى البيت وعبارةَ (يأكلان الطعام)

فى الآية قد أطلقتَا بمعنًى غير المعنَى الحقيقى لكل منهما ، وهذا هو وجه الاتفاق بين المجاز والكناية. أعنى أنَ كلا منهما يُطلَقُ فيه اللفظُ ويُرادُ به معنى غيرُ معناه الحقيقى .

ولكنّ هناك وجهًا للاختلاف بينهما وهو أن الكلمة فى المجاز تُطْلَقُ ولا يُرادُ بها إلا المعنى الثانى - أى المعنى غيرُ الحقيقى - ولا يمكن أبدًا أنْ تتجهَ إلى المعنى الأول. لماذا؟ لأن المجاز يشتمل على قرينة تمنع من إرادة المعنى الحقيقى. فكلمة (الشمس) فى البيت السابق مقصودٌ بها : المحبوبة الجميلة ، ولايمكن أن يُقْصَدَ بها الشمسُ الحقيقية ، لأن الشمس الحقيقية لا تظلّلُ أحدًا منَ الشمس، وعلى ذلك فقوله (تظلّلنى) قرينةٌ تمنع من إرادة المعنى الحقيقى. **أما فى الآية فقوله (كَانَا يأْكُلاَن الطّعامَ) مقصود به أنهما كانا بشريْن يحدثُ منهما ما يحدث من البشر ، فليسا إلهيْن ، وهذا هو المعنى المراد ، وهو المعنى الثانى ، وإن لم يكن هناك ما يمنع من إرادة المعنى الأول - وهو أكل الطعام على الحقيقة - أى أن الكناية تخالف المجاز فى أنها تحتمل المعنيين معا - المعنى الثانى والمعنى الأول - وهذا هو الفرق بينها وبين المجاز الذى لا يحتمل إلاّ المعنى الثانى لأنّ القرينة فيه تمنع من إرادةِ المعنى الأولِ .**

هذا هو موضوع البحث فى علم البيان، أعنى كلاّ من المجاز والكناية ، أما الهدف من البحث فيه فهو الاحتراز عن التّعقيدِ المعنوىّ الذى يمكن أن يقعَ عند إطلاقِ اللفظ على غير معناه الحقيقىّ فى كلٍّ من الصورتين .

ونرى أن البلاغيّين بتحديدهم لموضوع علم البيان على هذا النحو -أعنى تخصيصَهُ ببحثٍ واحدٍ من عيوب الفصاحة وهو التعقيد المعنوى . . . الذى هو عيب من عيوب الفصاحة . . نرى أن فى هذا التحديد تضييقًا لموضوع العلم ، وللدَّوْرِ الذى تؤديه صورُ البيان من المجاز والكناية بكل تقسيماتِهمَا، **ذلك أنّ هذه الصور تلعبُ دورًا أساسيًا فى تحقيق الصفة الأخرى من صِفَتَىْ**

البلاغة، وهى المطابقة، فلاشك فى أن اختيارَ اللفظ فى المجاز وفى الكناية أيضًا له دورٌ فى تحقيق هذه الصفة .. فأنت تستعير حمرةَ الوردِ لحُمرة الخدّ، ولكنك لا تستعير حمرةَ الدّم، وتستعير (الأسدَ) للرّجُل الشجاع ولا تستعير (الفيل)، ويمكنك أن تستعيرَ بياضَ الثلج لبياضِ الشّيْب فى الرأسِ ولكنّ استعارةَ ضوءِ النهار - أو بياضه - لا تليق ..

ومعنى هذا أن صورَ البيان من مجاز وكنايةٍ، وكذلك صورَ التشبيه- تخضعُ لمبدأ المطابقة بمعنى أنه يجب أن يراعىَ فى (المعنى الأول) أن يكونَ مؤديا إلى المعنى الثانى بقوة، وذلك من أجل تحقيق الغَرَضِ من الصور البيانية فى وضوح المعنى وتأكيده وإكساب الكلام مزيدًا من الجمال والتأثير .

والواقع أن كلَّ شروط الفصاحة - أو معظمها - تدور فى فلك الصفة الأخرى للبلاغة - وهى (المطابقة) - وعلى سبيل المثال: شرط الخلوِّ من الغرابة، وهو مقبول من الناحية النظرية - ولكنه مع ذلك يخضع لصفة المطابقة، إذ قد تكون الغرابة صفة مرغوبةً فى بعض الأحوال، كما إذا كان المتكلم يوجه كلامه إلى جمهور من المثقفين، أو مجموعةٍ من المتخصصين فى علم من العلوم ممن يجيدون اللغةَ إجادةً تامة ، وقد حدَثَ أنْ لجأ الشعراء إلى غرابة اللغة أمام بعض الممدوحين ممّنْ يحبّون الغريب ، كما لجأ بعضُهم إلى صفة أخرى طريفة وهى الخطأ فى الإعراب من أجل أنّ ممدوحَه كان لا يجيد الإعراب، وكان يلحَن فى كلامه ، ومعنى ذلك أنّ هذا الشاعر قد ضحَّى بالصحّة النحوية من أجل المطابقة .

وإذن فلا يجب أن ننظرَ إلى صفاتِ الفصاحة كما نظرَ إليها القدماء، أعنى أننا لايجب أن ننظر إلى هذه الصفات على أنها منفصلةٌ عن صفة المطابقة، لأن صفات الفصاحة وإن كانت -فى ذاتها- صفاتٍ مطلقة فإنها تخضع للنسبية فى

كثير من جوانبها فى سياق الاستخدام الأدبى وهو ما يجعل فى الإمكان توظيفها لصالح مبدأ المطابقة .

وهذا نفسه يمكن قوله عن ألوان البديع، فقد دأبَ القدماء على القول بأن هذه الألوان من طباق وجناس ومشاكلة ومزاوجة .. إلخ هى من باب الزِّينَة الإضافيّة التى يُؤْتَى بها بعد تَحقُّقِ الصفتين الأساسيّتين فيه وهما: المطابقة، والفصاحة، ويمكن فى الوقت نفسه ألا يؤتىَ بها ، وهو تصورٌ غير صحيح، لأننا لا نتصور أنّ عمليةَ الإنشاء الأدبى تتم على مراحل متعاقبة تتحقق فيها شروط البلاغة والتحسين واحدًا بعد الآخر، فتُحَقَّقُ المطابقةُ أولاً ثم الفصاحةُ بعدها، ثم التحسين - أو الزينة البديعية- التى يمكن - وَفْقًا للتصور القديم- أن يُؤتى بها أو يُؤتى بالكلام خاليًا منها . وهذا غيرُ صحيح، لأنَّ عمليةَ الإنشاء وانبثاق النصّ البليغ عن مبدعه تتمّ دفعةً واحدة وعلى نحو كامل ، بحيث لا نتصور أنّ الطباق فى قول ابن الرُّوميّ وهو يرثى ولده :

طَوَاهُ الرَّدَى عَنِّى فأضْحَى مَزَارُهُ   بعيدًا على قُربٍ قريبًا عَلَى بُعْدِ

قد جاءَ بعد إنشاء البيت، وأنّ البيتَ الشعرىَّ قد مرَّ بمرحلةٍ كان فيها خاليا من الطِّباق ، ثم جاء الشاعرُ بالطِّباق بعد ذلك، هذا مستحيل فالطِّباق فى البيت يشكل اللَّبِنَةَ الأساسية فى معناه ، بل إنه يبدو لنا أنه من غير الممكن أن يُؤَدَّى المعنى الذى أراده الشاعرُ ، دونَ هذه الكلمات الحاملة للطِّباق والتى تحمل فى نفس الوقت معنًى أنّ الإنسان وجودُهُ زائل ومجردُ وَهْم ، لا فرقَ بين أن يكونَ الإنسانُ موجودًا أو غيرَ موجود، بَيْنَ أن يكونَ قريبًا أو بعيدًا، فأمامَ الموتِ والتلاشى تتساوىَ الأشياءُ، بلْ تنمحى تماما ، وبذلك تصدُق كل الأخبار ويصبُح الإنسان بعيدًا وقريبًا ، أو قريبا بعيدا .. فلا فرق ، وهذه نقطة قد نعود إليها فيما بعد .

أما الآن فإننا نعيد التذكير بالمبدأ الذى سبق التنبيه إليه ، **وهو أن البلاغة لا تبحث فى(ما نقول) وإنما تتناول بالبحث (كيف نقول)** ، لقد نبهْنا إلى ذلك عند الحديث عن علم المعانى ومباحث التراكيب، ونعيد التذكير به والتأكيد عليه هنا ونحن بصدد الحديث عن مباحث البيان والبديع، ونحن نذكر تعريفاتهم لعلم البيان،وقد مرّ بنا تعريفهم له بأنه علم يحترز به عن الوقوع فى التعقيد المعنوى ، وهو تعريف سلبى يفضلهُ عندنا تعريفهم له بأنه **علم تعرف به كيفية إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة** ، والمتأمل فى هذا التعريف يدرك أن مسألة المعنى، أو الأفكار والقيم التى يدور حولها كلام الأديب، لا تمثّل مشكلة للبحث البلاغى ، وإنما يتركز محورُ البحث حول كيفّية التعبير عن هذه الأفكار، يصدق هذا- كما رأينا - على البحث فى التراكيب والمعانى النحويّة التى تُشعُّها الصور التركيبيّة المتعددة التى تحمل معنى أصليًا واحدًا [تذكَّرْ مثال: **عبد الله قائم - إن عبد الله قائم - إن عبدالله لقائم**] كما يصدق على البحث فى صور البيان، وكذلك ألوان البديع التى يقرّ البلاغيّون بارتباطها بعنصر الصياغة فى العمل الأدبى .

والشواهد كثيرة على أن الصورَ البيانيّة - خاصّةً تلك التى تدور حول معنى أصلىّ واحد ، كانت هى موضوع حديث البلاغيين ، وكان محورُ الحديث إلى أى مدى يتفوّق التعبير بالصورة على العبارة المجرّدة حين تتعاورُ الصورةُ والعبارةُ المجرّدةُ معنى أصليا واحدًا، أو حين تتعاور الصورتان أو الصورُ المتعددةُ معنًى أصليًا واحدا.

لم تكن المعانى الأصلية ، أى الأفكار التى يدور حولها كلام البلغاء ، محل تفكير البلاغيين، وذلك لأسباب منها ما هو اجتماعى، ومنها ما هو فنى، **أما الاجتماعى** فلأن الأفكار والقيم التى يدور حولها كلام الأدباء هى معطَيات اجتماعية صادرة عن تقاليد المجتمع ومُثُله -المقبول منها والمردود- وبالتالى فإنها ليست من ابتكار الأديب، ومن هنا فلا ينبغى أن تكون موضعًا

لمحاسبته من جانب البلاغيين، إذ ليس للأديب دخل فى أن الكرم -مثلاً- والشجاعة والوفاء والعدل قيم يتبنّاها المجتمع ويتمدّح بها أفراده، كما أنه لا دخل له فى أن البخل والجبن والغدر والظلم مساوئ يرفضها المجتمع ويذمّ من يتّصف بها .

ومن هنا ينشأ **السبب الفنى** وراء انصراف البلاغىّ عن المعنى ، وهو إيمانه بأن القيمةَ الأدبيةَ إنما هى فى عنصر الصياغة الفنيّة للمعنى ، أى - مرة أخرى - فى (كيف نقول) وليس فى (مانقول) وهو القانون المطّرد الذى يتحرك فى نطاقه الفكر البلاغى سواء فى تناوله للتراكيب أو فى تناوله لصور البيان وألوان البديع .

نصوص من مباحث البيان

تعريف علم البيان وموضوعه
من كتاب (الإيضاح) للخطيب القزويني

الفن الثاني في علم البيان

التعريف بعلم البيان

وهو : علم يُعْرَفُ به إيرادُ المعنى الواحدِ بطُرُقٍ مُـختلِفةٍ في وضُوح الدلالة عليه .

دلالة اللفظ وأنواعها

ودلالة اللفظ إمّا على ما وُضِع له ، أو على غيره :

والثانى إمّا داخلٌ فى الأولِ دخـولَ السقفِ فى مفهوم البـيتِ ، أو الحيوانِ فى مفـهوم الإنسانِ ، أو خـارجٌ عنه خروج الحـائطِ عن مفهـوم السقفِ ، أو الضاحِك عن مَفهوم الإنسان .

وتُسَمَّى الأولى دلالَةً وَضعيَّةً، وكل واحدة من الأخيرتين دلالةً عقلِيَّةً .

وتخـتصُّ الأولى بدلالة المُطَابَقَـةِ، والثـانيـةُ بالتضـمُّنِ ، والثـالثـةُ بدلالة الالتزام.

شروط دلالة الالتزام

وشرطُ الثالثةِ اللُّزومُ الذِّهْنيُّ ، أعنى أن يكونَ حُصولُ ما وُضِعَ اللفظُ له فى الذهن ملزومًا لحصول الخارج فيه؛ لئلا يلزمَ ترجيحُ أحدِ المُتساوِيَيْنِ على الآخر؛ لِكَوْنِ نسبة الخارج إليه حينئذ كنسبة سائر المعانى الخارجة.

ولا يُشْتَرَط فى هذا اللزوم أن يكون مما يُثْبِتُه العقلُ ، بل يكفى أن يكون مما

يثبته اعتقادُ المخاطَب: إمّا لعُرْفٍ ، أو لغيره؛ لإمكان الانتقال حينئذٍ من المفهوم الأصلى الخارِجِىِّ .

وقد وقـع فى كلام بعض العلمـاء ما يُشْـعِر بالخـلاف فى اشتـراط اللزوم الذِّهنىِّ فى دلالة الالتزام، وهو بعيدٌ جـدًا، وَإِنْ صحَّ فلعلَّ السببَ فيه تَوَهُّمُ أن المرادَ باللزوم الذِّهْنِىِّ اللُّـزُومُ العقلِىُّ؛ لإمكان الفـهم بدون اللزومِ الذهنىِّ بهـذا المعنى حينئذ كما سبق .

ثم إيرادُ المعنى الواحدِ على الوجه المذكور لا يَتَـأَتَّى بالدلالة الوضعيَّة؛ لأن السامع إن كان عالمًا بوضع الألفاظ لم يكن بعضُها أوضحَ دلالةً من بعض، وإلاَّ لم يكن كُلٌّ واحد منها دالاً .

الدلالات العقلية أساس التفاوت البيانى

وإنما يَتَأَتّى بالدلالات العقلية ؛ لجواز أن يكونَ للشىء لوازمُ بعضُها أوضحُ لزومًا من بعض .

ثمَّ اللفظُ الْمُـرادُ به لازِمُ ما وُضِعَ له؛ إن قـامَتْ قرينةٌ على عـدم إرادة ما وُضِعَ له فهو مجَازٌ ، وإلا فهو كنايةٌ .

ثم المجاز منه الاستعارةُ، وهى ما تُبْتَنَى على التشبيه؛ فيتعيَّن التعرض له.

انحصار علم البيان فى مباحثه

فانحصـر المقصودُ فى التَّشـبيه، والْمَجـازِ ، والْكِناية ، وقُدِّم التشبـيهُ على المجاز لما ذكرنا ، من ابتناء الاستعارة - التى هى مَـجازٌ - على التشبيه ، وقُدِّم المجازُ على الكناية ، لنزُولِ مَعناه مِنْ مَعْناها مَنْزِلَةَ الجزء من الكُلِّ .

مَبْحَثُ التشبيه
من كتاب (الإيضاح) للخطيب القزوينى

معنى التشبيه :

التشبيهُ : الدلالةُ على مُشاركة أمر لآخر فى مَعْنًى .

والمراد بالتشبيه ههنا ما لم يكن على وجه الاستعارة التحقيقيَّة، ولا الاستعارة بالكِناية، ولا التجريد .

فدخل فيه ما يُسَمَّى تشبيهًا بلا خلافٍ ، وهو ما ذُكِرَت فيه أداة التشبيه، كقولنا :« زيدٌ كالأسد» أو «كالأسد» بحذف «زيد» لقيام قرينة.

ومايُسَمَّى تشبيهًا على المختار كما سيأتى ،وهو ما حُذِفَتْ فيه أداة التشبيه ، وكان اسمُ المشبَّه به خبرًا للمشبَّه ، أو فى حكم الخبر ، كقولنا : «زيدٌ أسدٌ»، وكقوله تعالى : «صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ» أى: هم، ونحوه قولُ مَنْ يُخاطِب الْحَجَّاجَ:

أَسَدٌ عَلَيَّ ، وفى الحروب نَعامةٌ   فَتْخاءُ تَنْفِرُ مِنْ صَفير الصَّافِرِ[1]

فضل التشبيه فى السموِّ بالأساليب :

وإذ قد عرفْتَ معنى التشبيه في الاصطلاح ؛ فاعلَمْ أنه مما اتفق العقلاء على شرف قَدْرِه، وفخامة أمرِه فى فنِّ البلاغة، وأنّ تعقيبَ المعانى به -لاسِيمًّا قسم التمثيل منه- يُضاعِف قُواها فى تحريك النفوس إلى المقصود بها، مدحًا كانت أو ذَمًا ، أو افتخارًا ، أو غير ذلك .

وإن أردْتَ تحقيق هذا فانظر إلى قول الْبُحْتُرِيِّ :

(١)فتخاء: مسترخية المفاصل لينتها ضعيفتها ، والفعل: فتِخ - كفرح - والشاعر عمران بن حِطّان الخارجى .

دانٍ عَلَى أيْدِي الْعُفاةِ وشاسِـــــعٌ | عن كل ندٌ في النَّدَى ، وضَريب[١]
كالبدر أفرطَ في العُلُوِّ وضــــوءُه | للعصبة السَّارينَ جدُّ قَريـــــــب

أو قول ابنِ لَنْكَك :

إذا أخو الحسن أضحى فعلُه سَمِـجًا | رأيتَ صورته من أقبح الصُّــــور[٢]
وهَبْهُ كالشمس في حُسْنٍ ، ألم ترَنا | نَفِرُّ منها إذا مالَتْ إلى الضَّـــــرَرِ

أول قول ابن الرُّوميِّ :

بَذَلَ الوعْدَ للأَخلاَّءِ سَمْحًـــا | وأبَى بعدَ ذاكَ بَذْلَ الْعَطــاءِ[٣]
فغدا كالْخِلافِ يُورِقُ لِلْعَـــيْـ | ــنِ، ويأبى الإثْمَارَ كلَّ الإبَـاء

أو قول أبى تَمَّام :

وإذا أرادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضيلــــــــة | طُوِيَت، أتاح لَها لِسَانَ حَسُود[٤]
لَوْلا اشْتِعالُ النار فيما جــاوَرَتْ | ما كان يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ الْعُــود

أو قوله أيضا :

وطُولُ مُقامِ المرْءِ فى الْحَيِّ مُخْلِـقٌ | لديباجَتَيْه فاغتربْ تتجــــــــدَّد
فإنى رأيتُ الشمْسَ زِيدَتْ مَحَبَّــةً | إلى الناس أن لَيْسَتْ عليهم بِسَرْمَدِ

وقِسْ حالَك وأنتَ فى البيت الأوّل، ولم تَنْتَه إلى الثانى، على حالك وأنتَ قد انتهيْتَ إليه، ووَقَفْتَ عليه، تَعْلَمْ بُعْدَ ما بين حالتَيْكَ فى تمكُّن المعنى لديْكَ .

وكذَا تَعَـهَّدِ الفرقَ بين أن تقول : « الدنيـا لا تدوم » وتسكت ، وأن تذكر

---

(١) دان : قريب . العفاة : جمع العافى وهو الضيف ، أو طالب الفضل ، أو طالب الرزق. شاسع : بعيد . الند : النظير والشبيه ، ومثله الضريب . العصبة : الجماعة . السارين : السائرين ليلا .

(٢) سمجا : قبيحًا ممجوجًا. والشاعر أبو الحسن محمد بن محمد ، المعروف بابن لنكك البصرى، وهو من شعراء اليتيمة، والبيتان في ترجمته بها .

(٣) الأخلاء : جمع خليل وهو الصاحب والصديق . الخلاف : صنف من الصفصاف .

(٤) أتاح : هيأ . العَرف : الرائحة. العود : ضرب من الطيب يتبخر به .

عَقِيبَه ما رُوِىَ عن النبى ﷺ أنه قال : « مَنْ فى الدنيا ضَيْفٌ، وما فى يده عارِيَةٌ ، والضيفُ مُرْتَحِلٌ ، والعاريةُ مُؤَدَّاةٌ » أو تُنْشِدَ قولَ لَبِيدٍ :

وما المالُ والأهلُونَ إلا ودائــعٌ ولا بُدَّ يومًا أن تُرَدَّ الودائــعُ

وبين أن تقول : «أرى قــومًا لهم مَنْظَرٌ وليس لهم مَخْـبَرٌ » وتقطَع الكلام، وأن تُتْبِعَه نحو قولِ ابْنِ لَنْكَك :

فى شجر السَّرْوِ منهُمُ مَثَلٌ له رُواءٌ، ومالَهُ ثَمَــرُ(١)

وانظر فى جميع ذلك إلى المعنى فى الحالة الثانيــة : كيف يتزايَدُ شرفه عليه فى الحالة الأولى ؟!

أسباب بلاغة التشبيه :

ولذلك أسبابٌ ، منها :

ما يحـصل للنفس من الأُنْسِ بإخـراجها من خـفِىٍّ إلى جَلِىٍّ ، كالانتقال مما يَحْصُل لها بالفكرة إلى ما يُعْلَمُ بالفِطرة ، أو بإخراجها مما لم تألفه إلى ما ألِفَتْهُ. كما قيل:

« ما الحبُّ إلاَّ للحبيب الأوَّلِ »

أو مما تعلمه إلى ما هــى به أعلم ، كالانتقال من المعقــول إلى المحسوس ، فإنك قد تُعَـبِّر عن المعنى بعبارة تُؤَدِّيه وتبالغُ، نحـوَ أن تقول وأنتَ تَصِفُ اليوم بالقِصَرِ يومٌ كأقْـصَرِ ما يُتَصَوَّرُ ، فلا يجد الســامع له من الأُنْس ما يَجِدُه لنحو قولهم : «أيام كأباهيم القَطَا»(٢) وقول الشاعر :

ظَلِلْنَا عندَ بابِ أبِى نُعَيْــمٍ بيوم مِثْلِ سالِفةِ الذُّبابِ(٣)

(١) السرو : شجر قويم الساق حسن الهيئة والمنظر .

(٢) الاباهيم : جمع إبهام ، وهو أكبر أصابع اليد أو الرجل . القطا : طائر فى حجم الحمام، واحدته قطاة .

(٣) السالفة: صفحة العنق ناحية معلّق القرط، وسالفة الذباب نهاية فى القصر. شبه بها اليوم ليثبت تناهيه فى القصر. فيفيد أنه يوم سار، لان أيام السرور قصار وكذلك أيام أبي نعيم هذا.

وكذا تقـول : فلانٌ إذا همَّ بالشيء لم يَزُلْ ذاكَ عن ذكْره. وقَصَـر خواطرَه على إمضاء عَزْمِهِ فيه، ولم يشغَله عنه شيء. فلا يصادفُ السامع له أرْيَحيّة[١]، حتى إذا قلت :

إذا همَّ ألقَى بين عينيْه عزمَهُ[٢]

امتلأت نفسُه سرورًا، وأدركته هِزّةٌ لا يمكنُ دفعُها عنه .

ومن الدليل على أن للإحـساس من التـحريك للنفس ، وتمكين المعـنى مَا ليس لغيره : أنك إذا كُنْتَ أنتَ وصاحبٌ لك يسعى فى أمر. على طَرَف نهر، وأنت تريد أن تقـرِّر له أنه لا يحصل من سـعيه على طائل. فـأدخلْتَ يدك فى الماء . ثم قُلْتَ له «انظرْ ، هل حَصَل فى كفّى من الماءِ شىءٌ ؟ فكذلك أنتَ فى أمرك» كـان لذلك ضَرْبٌ من التأثيـر فى النفس وتمكينِ المعنى فى القلب، زائد على القول المجّرد .

ومنها : **الاستطراف** ، كما سيأتى .

ومن فضائل التشبيه : أنه يأتيك من الشىء الواحد بأشباهٍ عِدَّة، نحو ان يعطيَكَ مـن الزَّنْدِ بإيرائه ، شِـبْـهَ الجـوادِ ، والذَّكِىِّ، والنُّجْـح فى الأمـور، وبإصْلادِه شِبْـهَ البخيل، والبليدِ، والخيبةِ فى السعى. ومن القـمر الكمال عن النقصان، كما قال أبو تمام :

لَهفى على تلك الشواهد فيهمـــا	لو أُمْهِلَتْ حتى تصيرَ شمائـلا
لغدا سكوتُهما حجًى ، وصباهُما	حلْمًا ، وتلك الأرْيَحيّــةُ نائلا
ولأعقب النّجمُ المُرِذُّ بديمَــــــةٍ	ولعاد ذاكَ الطّلُّ جَوْدًا وابـلا[٣]

(١) الأريحية : الارتياح والقبول .

(٢) بقيته : ونكّبَ عن ذكر العواقب جانبا .

هم : عزم. ألقى بين عينيه عزمه . تصوير لعنايته بتنفيذ ما عزم عليه: حيث وضعه وضعًا لا يغيب فيه عن عينيه . نكب عن ذكر العواقب : عدل وتنحى. وقائله: سعد بن ناشب.

(٣) الجَوْدُ : المطر الغزير .

إنّ الهلالَ إذا رأيْتَ نُمــــــوَّه　　　أيقنتَ أن سيصيرُ بدرًا كامـــلا

والنقصان عن الكمال ، كقول أبي العَلاءِ المَعَرِّىّ :

وإن كنْتَ تبغى العيشَ فابْغِ توسُّطا　　　فعند التَّناهِى يَقْصُرُ المُتطـــاوِل

تُوَقَّى البدورُ النقصَ وَهْىَ أهِلَّــةٌ　　　ويدركُها النقصانُ وَهْىَ كَوَامِـــلُ

وتتفرع من حالَتَىْ كماله ونقصه فـروعٌ لطيفةٌ ، كقول ابن بابَك فى الأستاذ أبى عَلىّ وقد استَوْزَره وأبا العبَّاسِ الضبِّى فخرُ الدولة بعد وَفاة ابن عَبَّاد :

وأُعِرْتَ شَطْرَ المُلْكِ شَطْرَ كمالِه　　　والبدر فى شَطْرِ المسافة يَكْمُلُ

وقولِ أبى بكْر الخُوَارَزْمىِّ :

أراكَ إذا أيسرت خيَّمتَ عندنـــا　　　مُقيمًا، وإن أعسرْتَ زُرْتَ لمامـا

فما أنت إلا البدرُ ، إن قلَّ ضوءُه　　　أَغَبَّ ، وإن زاد الضياء أقامـــا

المعنى لطيفٌ وإن لم تساعده العبـارةُ على ما يَجِبُ؛ لأن الإغباب أن يتخلَّل بين وقْتى الحضور وقتٌ يخلو منه ، فإنما يصلح لأن يُرَادَ أن القمر إذا نقص نورُه لم يُوالِ الطلوعَ فى كل ليلة ، بل يظهر فى بعض الليالى دون بعض ، وليس الأمر كذلك ؛ لأنه على نُقصانه يطلُع كلَّ ليلة حتى تكونَ السِّرَارُ.

وكذا ينظر إلى بُعدِه وارتفاعِه، وقُربِ ضـوئه وشعاعه ، فى نحو ما مضى من بيتى البحترى ، وإلى ظهوره فى كل مكان كما فى قول أبى الطَّيِّب:

كالبدرِ مِنْ حَيْثُ الْتَفَتَّ وجدتَه　　　يُهْدِى إلى عينيكَ نورًا ثاقبا[١]

إلى غير ذلك .

بقية مباحث التشبيه

ثم[٢] النظرُ فى أركان التـشبيه – وهى أربعة : طَرَفـاه، ووجهُهُ، وأداتُه – وفى الغرض منه ، وفى تقسيمه بهذه الاعتبارات .

---

(١) ثاقبًا : مضيئًا

(٢) العطف على قوله فى أول الباب : «القول فى التشبيه» .

الطرفان :

أمَّا طَرَفاه فهما :

إمَّا حِسيَّان، كما فى تشبيه الخدِّ بالورد، والْقَدِّ بالرُّمح ، والفيل بالجبل ، فى الْمُبصرَات،والصَّوْتِ الضعيف بالْهَمْسِ فى المسموعات ، والنَّكهَةِ بالْعَنْبَرِ فى المشمومات، والريقِ بالخمر فى المذُوقَات، والجِلْدِ الناعم بالحرير فى الملموسات.

وإمَّا عقليان ، كما فى تشبيه العلم بالحياة .

وإمَّا مختلفان والمعقـول هو المشبَّـه، كمـا فى تشبـيه المنِيَّةِ بالـسَّبُع، أو بالعكس ، كما فى تشبيه العِطر بُخلُقٍ كريم .

المراد بالحسى :

والمرادُ بالحِسِّيِّ : المُدْرَكُ هو أو مادَّته بإحدى الحـواس الخمسِ الظاهرةِ ؛ فدخل فيه الخيالِيُّ ، كما فى قوله :

وكأنَّ مُحْمَرَّ الشَّقِيـــــــــقِ إذا تصوَّب أو تَصَعَّدْ[١]
أعلامُ ياقوتٍ نُشِـــــــــرْنَ على رماح من زبَرْجَـــدْ

وقوله :

كلُّنا باسِطُ اليَـــــدِ نحوَ نَيْلُوفرٍ نَدى[٢]
كدبابيس عَسْجَـــدٍ قُضْبُها من زَبَرْجَـــدِ

المراد العقلى :

والمراد بالعقلى مـا عدا ذلك ؛ فدخل فـيه الوهمِيُّ ، وهو ما ليس مُـدْرَكًا

---

(١) الشقيق: ورد أحمـر مبقع بنقط سود . تصوَّب: مال إلى أسـفل ، تصعَّد: اتجه إلى أعلى، والياقوت : حجر كريم صلب رزين شفاف تختلف ألوانه، والزبرجد : حجر كريم أيضًا يشبه الزمرد ، وأشهره الأخضر ، وينسب البيتان للصنوبرى .

(٢) النَّيلوفر : نبـات ينبت فى الماء الراكد ويورق ويزهر علي سطحـه يشبه الجزر وسـاقه أملس . والدبابيس: جمع دبوس ، وهو عصا فى رأسها شبه الكرة ، والعسجد : الذهب .

بشيء من الحواسّ الخمس الظاهرة ، مع أنه لو أُدرِك لم يُدرَك إلاّ بها ، كما فى قول امرئ القَيْسِ :

« ومَسنونَةٌ زُرْقٌ كأنياب أغْوال »[١]

وعليه قوله تعالى : ﴿ طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّيَاطِينِ ﴾[٢] وكذا ما يُدْرَك بالوجْدانِ ، كاللَّذةِ ، والألم ، والشِّبَعِ ، والجوعِ .

وجه الشبه :

وأما وجهه فهو المعنى الذى يشترك فيه الطرفان ،تحقيقًا أو تخييلاً .

المراد بالتخييل :

والمرادُ بالتخييل أنْ لا يمكنَ وجودُهُ فى المشبَّه به إلا علي تأويل ، كما فى قول القاضى التَّنُوخِىِّ .

وكأنّ النجومَ بين دُجاهــا　　سُنَنٌ لاحَ بينَهن ابتداعُ[٣]

فإن وجهَ الشبه فيه الهيئةُ الحاصلةُ من حصول أشياءَ مُشرقة بيض فى جوانب شيء مُظْلم أسْوَدَ ؛ فهى غيرُ موْجودة فى المشبَّه به إلا علي طريق التخييل.

وذلك أنه لما كانت البدعةُ والضلالةُ وكلُّ ما هو جهلٌ ، تجعل صاحبها فى حكم من يمشى فى الظلمة؛ فلا يهتدى إلى الطريق، ولا يَفْصِل الشىءَ من غيره؛ فلا يأمن أن يَتَرَدَّى فى مَهْواة، أو يَعْثُرَ على عَدُوٌّ قاتل ، أو آفة مُهلكة - شُبِّهَتْ بالظُّلمة، ولَزِم على عكس ذلك أن تُشبَّه السنَّةُ والهُدى ، وكلُّ ما هو علْمٌ بالنور ، وعليهما قوله تعالى : ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ﴾[٤] .

(١) شطره الأول : أيقتلنى والمشرفىّ مضاجعى .

(٢) الآية ٦٥ من سورة الصافات . طلع الشجر : ما يبدو من ثمرته أول ظهورها .

(٣) دجاها : ظلماتها ، واحدتها دُجية ، وهى ظلمة الليل .

(٤) بعض الآية ١٦ من سورة المائدة .

وشاع ذلك، حتى وُصِفَ الصِّنفُ الأوّل بالسَّواد ، كما فى قول القائل:

« شاهدْتُ سوادَ الكفـر من جَبين فلان» والصِّنْفُ الثانى بالبيـاض، كما فى قول النبى ﷺ : أتيـتكم بالحنيفـيَّة البيـضاء »(١) وذلك لتـخيـيل أن السُّنَنَ ونحوَها من الجنس الذي هو إشراقٌ أو ابْيضاضٌ فى العين ، وأن البِدْعَةَ ونحوَها على خلاف ذلك؛ فصار تشبيـهُ النجوم ما بين الدَّياجِى بالسُّنَنِ ما بينَ الابتداع؛ كتشبيه النجوم فى الظلام ببياض الشَّيْب فى سواد الشباب، وبالأنوار مُؤْتَلِقَةً بين النبات الشديد الخضرة؛ فالتأويل فيه أنه تُخُيِّل ما ليس بمُتَلَوِّنٍ مُتَلَوِّنًا .

ومن التشبيه التخييلىِّ قولُ أبى طالِب الرَّقِّىِّ:

ولقد ذكرتُك والظلامُ كأنـــــــه　　　　يومُ النَّوَى وفؤادُ مَنْ لم يَعْشَقِ(٢)

فإنه لـما كانت أيامُ الْمكارِه تُوصَف بالسـواد تَوَسُّعًـا؛ فيـقال: اسودَّ النـهارُ فى عَيْنَىَّ، وأظلَمـت الدنيا عَلَىَّ، وكان الْغَـزِلُ يَدَّعِى القَسْوَةَ علـى مَنْ لم يَعْشَقْ، والقلبُ القاسى يُوصَف بالسواد تَوَسُّعًـا ، تَخَيَّل يومَ النَّوَى وفؤادَ مَنْ لم يعشَقْ شيئين لهما سوادٌ، وجعلَهما أعرفَ به وأشهرَ من الظلام؛ فشبَّهه بهما .

وكذا قول ابن بابَك :

وأرض كأخلاق الكِرام قطعتُهـــــا　　　　وقد كَحَلَ الليلُ السِّماكَ فأبصرا(٣)

فإن الأخـلاق لما كانت تُوصَف بالسَّعة والضـيق تشبيـها لها بالأماكن الواسـعة والضيِّقة؛ تَخَيَّل أخلاقَ الكرام شيئًا له سَعَةٌ ، وجُعِلَ أصلا فيها ، فشبَّه الأرضَ الواسعةَ بها .

---

(١) الحنيفية : نسبة إلى الحنيف ، وهـو المستقيم ، البيضاء : النقية، والمقصود بالحنيـفية البيضاء: الإسلام .

(٢) النوى : الفراق والبعد .

(٣) السِّماك : أحد كوكبين يقال لأحدهما : السمـاك الرامح؛ إذ يتقدمه كوكب صغير يسمى راية السماك ورمحه، ويقال للثانى : السماك الأعزل؛ إذ ليس له مثل ذلك .

وكذا قولُ التّنوخيّ :

فانهضْ بنارٍ إلى فحم كأنهمـــا في العين ظُلْمٌ وإنصافٌ قد اتّفقا[١]

فإنه لما كان يُقال فى الحق : إنه منيرٌ واضحٌ ، فيستعار له صفةُ الأجْسام المنيرةِ، وفى الظلم خـلافُ ذلك ؛ تخيَّلهـما شـيئين لهـما إنارة وإظلامٌ ؛ فـشبَّـه النارَ والفحمَ مجتمعين بهما مجتمعين .

وكـذا ما كـتب به الصـاحِب إلى القـاضى أبى الْحَـسَنِ ، وقـد أهْدَى له الصاحب عِطرَ القُطْرِ :

يا أيها القاضى الَّذى نفسى له مع قرب عهدِ لقائه مُشْتاقَهْ[٢]

أهْدَيْتُ عطرًا مثلَ طِيبِ ثنائِه فكأنما أُهدِى له أخلاقَــهْ

فإنه لما كان الثناءُ يُشَبَّهُ بالعطر ، ويُشتَقُّ له منه؛ تخيَّله شيئًا له رائحةٌ طيِّبةٌ وشبَّهَ العِطْرَ به ؛ ليُوهِمَ أنه أصلٌ فى الطِّيبِ ، وأحقُّ به منه .

وكذا قولُ الآخر :

كأنَّ انتضاءَ البدرِمن تحت غَيْمِهِ نَجاءٌ من البَأْساء بعدَ وُقوعِ

فإنه لما رأى الخلاصَ من شِدَّةٍ يُشَبَّهُ بخروج البدر من تحت الغيمِ بانحساره عنه ؛ قَلَبَ التشـبيه ، ليُرِىَ أن صـورة النجاء من البأساء - لكونهـا مطلوبةً فوق كل مطلوب - أعرفُ من صورة انتضاء البدر من تحت غيمه .

---

(١) التنوخى قـائله هو أبو القاسم على بن محمد بن داود أبى الفهم القاضى ، ولاحظ تـخيُّلَه للظُّلم على أنه أسود وللإنصاف على أنه مُنير .

(٢) الصاحب هو أبو القاسم إسماعيل بن عباد تلميذ ابن العميد، ووزير بنى بويْه وله أخبار فى اليتيمة. والقاضى أبو الحسن هو القاضى الجرجانى على بن عبد العزيز صاحب الوساطة .

تقسيم آخر لوجه الشبه باعتبار آخر

وجه الشبه واحدٌ أو غير واحد

وَوَجهُ الشبه : إما واحد ، أو غيرُ واحد .

والواحد : إما حِسِّىٌّ ، أو عقلىٌّ .

وغيــرُ الواحد : إما بمنزلة الواحد - لـكونه مُرَكّبًا من أمــرين أو أمور - أو متعدِّدٌ غيرُ مركب .

والمركب : إما حِسِّىٌّ أو عقلىٌّ .

والمتعدّد : إما حسى ، أو عقلى ، أو مختلف .

والْحِسّــىُّ لا يكون طرفاه إلا حِــسِّيَّيْنِ ؛ لامــتناع أن يُدْرَك بالحسِّ من غــير الحسىِّ شىءٌ .

والعقلىُّ : طرفاه إمـا عقليان، أو حسيان، أو مخـتلفان ، لجواز أن يُدْرَك بالعقل من الحسى شىء، ولذلك يقال : التشبيـهُ بالوجه العقليِّ أعمُّ من التشبيه بالوجه الحِسِّى .

الواحدُ الْـحِسِّىُّ : كالحـمرة، والخـفاء ، وطيب الرائحـة ، ولذَّة الطعم ، ولين الملمس فى تشبـيه الخدِّ بالورد ، والصـوتِ الضعيفِ بالهـمس ، والنَّكْهةِ بالعنبر ، والريقِ بالخمر ، والجلدِ الناعم بالحرير ، كما سبق .

أمثلة للوجه الواحد العقلى :

والواحدُ العقلىُّ : كالْعَرَاء عن الفائدة فـى تشبيه وجود الشىء العديم النفع بعدمه ، وجِهةِ الإدراك فى تشبيه العلم بالحياة ، فيما طرفاه معقولان .

والجراءة فى تشبيه الرجل الشجاع بالأسد، ومُطْلَقِ الاهتداء فى تشبيه أصحاب النبى - ﷺ ورضى عنهم - بالنجوم ، فيما طرفاه محسوسان.

والهدايةِ فى تشبيه العلم بالنور، وتحصيل ما بين الزيادة والنقصان فى تشبيه العدل بالقسطاس، فيما المشبه فيه معقول والمشبه به محسوس .

واستطابةِ النَفْس فى تشبيه العطر بخُلقٍ كريم ، وعدم الخفاء فى تشبيه النجوم بالسُنَن ، فيما المشبه فيه محسوس والمشبه به معقول.

المركب الحسى والطرفان مفردان

والمركب الحسى : طرفاه إما مفردان كالهيئة الحاصلة من الحمرة والشكل الكرىّ والمقدار المخصوص فى قول ذى الرمة :

وسقْطٍ كعين الدِّيك عاوَرْتُ صاحبى أباها ، وهيَّأنا لموقعها وَكْــــرا[1]

وكالهيئة الحاصلة من تقارُن الصوَرِ الْبيضِ، المستديرة ، الصِّغارِ المقاديرِ فى المَرْأى، على كيفيَّةٍ مخصوصةٍ إلى مقدارٍ مخصوصٍ، فى قول أُحَيْحَةَ بْنِ الْجُلاحِ ، أو قَيْسٍ بْنِ الأسْلَتِ :

وقد لاح فى الصبح الثُّرَيَّا كما ترى كعُنْقُودِ مُلاَّحِيَّةٍ حِينَ نَـــــوَّرا[2]

والطرفان مركبان :

وإما مُرَكَّبَان، كالهيئة الحاصلة من هُوِىِّ أجرامٍ مُشرقةٍ ، مستطيلةٍ، متناسبةِ المقدارِ ، متفرقةٍ فى جوانب شىءٍ مُظلِم، فى قول بَشَّارٍ :

---

(١) السقط مثلث السين : ما يسقط بين الزندين قبل استحكام الوري ، يذكر ويؤنث ، عاورته كذا : تداولناه وتناوبنا عليه . أباها: " الضمير يعود على «سقط» ويريد بالأب الذكر من الزندين. الوكر: يقصد به استقبال الشرر المستخرج من الحشائش الجافة وأطراف الأغصان السريعة الالتهاب .

(١) الثريا: مجموعة من الكواكب متكاثرة فى موضعها من السماء ، وهى فى الأصل تصغير ثروى وصف للمؤنث من الثراء ، والملاحى- بضم الميم وتشديد اللام ويجوز تخفيفها وبتشديد الياء : عنب أبيض طويل ، نور : أدرك ونضج . وابن الأسلت وابن الجُلاح شاعران جاهليان .

كأنّ مُثارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُءوسنــا ... وأسْيافَنَا ليلٌ تهاوَى كواكبُه[١]

وكالهيئة الحـاصلة من تفرُّق أجرامٍ ، مُتلألئة، مستـديرة ، صغارِ المقاديـر في المرأى، على سطح جسمٍ أزرقَ، صـافى الـزُّرقـة، فى قـول أبى طالـب الرَّقِّىِّ:

وكأن أجرامَ النجومِ لَوامِعًـا ... دُرَرٌ نُثِرْنَ عَلَى بساطٍ أزْرَقِ

والطرفان مختلفان

وإما مختلفان ، ؛كما مرّ فى تشبيه الشقيق فى قول الشاعر

وكأنّ مُحْمَرَّ الشّقيـــــ ... ـــقِ إذا تصوّبَ أو تَصعّدْ

أعلامُ ياقوتٍ نُشِـــــرْ ... نَ على رماحٍ منْ زَبَرْجَدْ

وتشبيه النّيلوفر فى قوله :

كلُّنا باسِطُ اليَـدِ ... نحو نيلوفرٍ نَـدِى

كدبابيس عَسْجـدٍ ... قُضْبُها من زبَرجَدِ

الوجه المركب العقلى :

والمركَّبُ العقلىُّ كالمنظر الْمُطْمِع مع الْمَـخْبَر الْمُؤْيس الذى هو على عكس ما قـدّر ،فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَـفَرُوا أَعْمَـالُهُمْ كسَرَاب بقِيـعَة يَحْسَـبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ، حَتَّى إذا جاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـئًا ، وَوَجَدَ اللّهَ عنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾. شبه ما يعمله مَنْ لا يقـرن الإيمان الْمُعْتَبَرَ بالأعمال التي يَحْسَـبُها تنفعه عند الله وتنجيه من عذابه ، ثم يَخيبُ فى العـاقبة أمَلُه ، ويَلْقَى خلافَ ما قَدَّر ، [شبه ذلك] بسرابٍ[٢] يراه الكافر بالسَّـاهِرَة وقد غلبه عطشٌ يومَ القيـامة ، فيحسَبُه ماءً؛ فيأتيه ، فلا يجد ما رجاه ، ويجـد زبانيةَ الله عنده ، فيأخذونه، فيَعْتِلونه

---

(١) مثار : منتشر ومتطاير ، النقع : الغبار . تهاوى : تتساقط ، خفف بحذف إحدى التاءين.

(٢) بسراب : متعلق بقوله «شبه» .

إلى جهنَّم، فيسقونه الحمَيمَ والْغَسَّاق(١) .

فهو كما ترى مُنْتَزعٌ من أمور مجموعة قُرِنَ بعضُها إلى بعض؛ وذلك أنه رُوعِيَ من الكافر فعلٌ مخصوصٌ ، وهو حُسبانُ الأعمال نافعةً له ، وأن تكون للأعمال صورةٌ مخصوصةٌ ، وهى صورةُ الأعمالِ الصالحةِ التى وَعَدَ اللّه تعالى بالثواب عليها بشرط الإيمان به وبرسُله عليهم السلام؛ وأنها لا تفيدهم فى العاقبة شيئًا ، وأنهم يَلْقَوْنَ فيها عكسَ ما أمَّلوه وهو العذاب الأليم ، وكذا فى جانب المشبَّه به .

وكحرمان الانتفاع بأبلغ نافع مَعَ تَحَمُّل التعب فى استصحابه، كما فى قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أسْفَارًا﴾ فإنه أيضاً مُنتزع من أمور مجموعة قُرِنَ بعضُها إلى بعض ؛ وذلك أنه رُوعِيَ من الحمار فعلٌ مخصوصٌ ، وهو الحمل ، وأن يكون المحمولُ شيئًا مخصوصًا وهى الأسفار التى هى أوْعِيَةُ العلوم ، وأن الحمار جاهل بما فيها ، وكذا فى جانب المشبه .

واعلم أنه قد تقع بعد أداة التشبيه أمور يُظَنُّ أن المقصود أمر مُنْتَزعٌ من بعضها ؛ فيقع الخطأ، لكونه أمرًا مُنتزعًا من جميعها ، كقوله :

كما أبرقَتْ قومًا عطاشًا غمامةٌ   فلمَّا رأَوْها أقشعَتْ وتجلَّتِ(٢)

فإنه ربَّما يُظَنُّ أن الشطرَ الأوَّلَ منه تشبيه مُستَقِلٌّ بنفسه لا حاجة به إلى الثانى على أن المقصودَ به ظهورُ أمرٍ مُطْمِع لمن هو شديدُ الحاجة إليه، ولكن بالتأمُّل يظهر أن مَغْزَى الشاعر فى التشبيه أن يثبتَ ابتداءً مطمعًا مُتَّصلا بانتهاء مُؤْيِسٍ،وذلك يتوقَّف على البيت كله .

(٢) الساهرة : الأرض ، أو وجهها ، الزبانية: الملائكة الموكلون بدفع أهل النار إلى النار ، يعتلونه: يجذبونه ويجرونه جرا عنيفا ، الحميم الماء الحار ، والغَسَّاق : ما يسيل من جلود أهل النار.

(١) البيتُ لكُثيِّر ، وقبله بيتٌ آخر يحتوى علي (المشبَّه) هو :

لقد أطْمعتْنى بالوِصالِ تبسُّمًا   فلمّا سَبَتْني اعرضَتْ وتَولَّتِ

فإن قيل : هذا يقتضى أن يكون بعضُ التشبيهات المجتمعة كقولنا: « زيد يَصْفُو ويَكْدرُ» تشبيهًا واحدًا ؛ لأن الاقتصار على أحد الخبرين يبطل الغرض من الكلام ؛ لأن الغرض منه وصف المخبَرِ عنه بأنه يجمع بين الصفتين ، وأن إحداهما لا تدوم .

قلنا: الفرق بينهما أن الغرض فى البيت أن يَثْبُتَ ابتداءٌ مُطْمعٌ متصل بانتهاء مُؤْيِسٍ كما مر، وكونُ الشيءِ ابتداءً لآخر زائدٌ على الجمع بينهما، وليس فى قولنا «يصفو ويكدر» أكثرُ من الجمع بين الصِّفَتَيْن، ونظيرُ البيتِ قولُنا « يصفو ثم يكدرُ» لإفادة « ثُمَّ» الترتيب المقتضِى ربطَ أحدِ الوصفين بالآخر .

فرق بين التشبيه المركب والمجموع

وقد ظهر مما ذكرنا أن التشبيهات المجتمعةَ تفارق التشبيه المركَّب فى مثل ما ذكرنا بأمرين :

أحدهما : أنه لا يجب فيها ترتيب .

الثانى : أنه إذا حُذِفَ بعضُها لا يتغير حال الباقى فى إفادة ما كان يفيده قبل الحذف .

فإذا قلنا « زيد كالأسد بأسًا ، والسيفِ مَضَاءً ،والبحرِ جُودًا ، لا يجب أن يكون لهذه التشبيهات نَسْقٌ مخصوص ، بل لو قُدِّم التشبيه بالبحر ، أو التشبيهُ بالسيف ؛ جاز ، ولو أُسقِط واحدٌ من الثلاثة لم يتغير حالُ غيره فى إفادة معناه، بخلاف المركب؛ فإن المقصود منه يختلُّ بإسقاط بعض الأمور .

الوجه المتعدد الحسى

والمتعدِّدُ الْحِسِّىُّ : كاللّون ، والطعم، والرائحة، فى تشبيه فاكهة بأخرى.

الوجه المتعدد العقلى :

والمتعدد العقلى :كحدَّةِ النظر ، وكمال الحذر ، وإخفاء السِّفاد، فى تشبيه طائر بالغراب .

الوجه المتعدد المختلف :

والمتـعدّد المخـتلفُ : كحُـسْن الطلعـة ونباهة الشـأن ، فى تشبـيه إنسـان بالشمس.

واعلم أن الطريق فى اكتساب وجه الشبـه أن يُمَيِّز عمَّا عداه، فإذا أردْتَ أن تُشبِّه جسمـا بجسم فى هيئة حركة، وجب أن تطلب الْوِفاق بين الهيـئة والهيئة مُجَرَّدَيْن عن الجسم وسـائر أوصافه من اللون وغيره، كما فـعل ابن الْمُعْتَزّ فى تشبيه البرق[1] ؛ فإنه لم ينظر إلـى شىء من أوصافه سـوى الهيئـة التى تجدها العين ، من انبساط يعقبه انقباض .

الأداة :

وأما أداته فالكافُ فى نحو قولك : «زيدٌ كالأسد » وكأنَّ فى نحو قولك: «زيدٌ كأنـه أسد» و «مثل» فى نحـو قولك : «زيدٌ مِثْـلُ الأسد» وما فى مـعنى «مثل» كلفظة « نحو » وما يُشْتَقُّ من لفظة : «مثل» و«شبه» ونحوهما .

والأصلُ فى الكاف ونحوها أن يليهـا المشبَّه به ، وقد يليها مـفردٌ لا يتأتَّى التشبيهُ به ، وذلك إذا كان المشبَّه به مُـرَكبًا كقوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَـماء أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّماء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ ، فَأَصْـبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾[2] ؛ إذ ليس المرادُ تشبيه حال الدنيا بالماء، ولابمفرد آخرَ يُتَمَحَّلُ[3] لتقديره، بل المراد تشبيه حالها، فى نضارتها، وبهجتها ، ومايتعقَّبها من الهلاك والفناء ، بحال النبات يكون أخضرَ وارفًا[4] ، ثم يهيج[5] ، فتُطيره الرياح كأن لم يكن .

---

(١) فى قوله : وكأنّ البرْقَ مصحفُ قارِ فانطباقًا مرّةً وانفتاحَـا

(٢) بعض الآية ٤٥ من سورة الكهف . الهشيم: النبت اليابس المتكسر، تذروه : تطيره وتفرقه.

(٣) يتمحل : يحتال .

(٤) وارفًا : ناضراً شديد الخضرة .

(٥) يهيج : يَيْبس .

وأما قـوله عزَّ وجلَّ : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا كُـونُوا أنْصَارَ اللَّه ، كمـا قالَ عِـيسَى ابنُ مَـرْيَمَ لِلْحَـوَارِيِّينَ : مَنْ أنْصَـارِى إلَى اللهِ؟ ﴾[1] فليـس منه؛ لأن المعنى: « كونوا أنصارَ اللَّه، كما كـان الحوارِيُّون أنصار عيسى ، حين قال لهم: من أنصارى إلى اللَّه؟» .

وقد يذكر فِعْلٌ ينبئ عن التشبيه، **كعلمت فى قولك** « علمت زيدًا أسدًا» ونحوه.

هذا إذا قَـرُب التشـبـيه، فـإن بُعْدَ أدنى تـبعـيد؛ قـيل: **خِلْتُه وَحَسِبْتُه** ونحوُهما.

الغرض من التشبيه

وأما الغرض من التشبيه فيعود فى الأغلب إلى المشبه، وقد يعود إلى المشبه به .

أغراض ترجع إلى المشبه

أما الأول [الذى يرجع إلى المشبَّه] فيرجع إلى وجوه مختلفة :

منها : **بيانُ أن وجود المشبَّه ممكنٌ**، وذلك فى كل أمر غريب يمكن أن يُخالَف فيه ويُدَّعَى امتناعُه ، كما فى قول أبى الطَّيِّب :

فإن تَفُقْ الأنامَ وأنت منهـم   فإن المسْكَ بعضُ دَمِ الغَزَال

أراد أنه فاق الأنام فى الأوصـاف الفاضلة، إلى حَـدٍّ بَطَلَ معـه أن يكون واحدًا منهم ، بل صار نوعًا آخر برأسه أشْرَفَ من الإنسان ، وهذا - أعنى أن يتناهى بعضُ أفراد النوع فى الفضائل ، إلى أن يصير كأنه ليس منها - أمرٌ غريبٌ يفتقر من يَدَّعيه إلى إثبات جواز وجـوده على الجملة ، حتى يجىء إلى إثبات وجوده فى الممدوح ؛ فقال :

(١) بعض الآية ١٤ من سورة الصف . الحواريون : صحابة المسيح .

« فإن المِسْكَ بعْضُ دَمِ الغَزَال »

أى : ولا يُعَدُّ فى الدِّماء؛ لما فيه من الأوصاف الشريفة التى لا يُوجَد شىءٌ منها فى الدَّم، وخُلُوِّه من الأوصاف التى لها كان الدَّمُ دمًا ؛ فأبان أنّ لِمَا ادَّعاه أصلا فى الوجود على الجملة .

ومنها : **بيانُ حاله** ، كما فى تشبيه ثَوْبٍ بثوبٍ آخرَ فى السواد، إذا عُلِم لونُ المشبه به دون المشبه .

ومنها: **بيان مقدار حاله** فى القوة والضعف والزيادة والنقصان، كما فى قوله :

« مِدادٌ مِثْلُ خافِيَةِ الْغُرابِ »[1]

وعليه قولُ الآخَرِ :

فأصبحْتُ من ليلى الغداةَ كقابضٍ ... على الماء خانَتْهُ فُرُوجُ الأصابِـــع

أى: بلغتُ فى بَوازِ سعيى فى الوصول إليها وأن أُمَتَّعَ بها ؛ أقصى[2] الغايات ، حتى لم أحْظَ منها بما قَلَّ ولابما كثُر .

ومنها : **تقرير حاله فى نفس السامع**، كما فى تشبيه من لايحصل من سعيه على طائل بمن يَرْقُمُ على الماء، وعليه قوله عز وجل : ﴿ وإذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كأنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾[3] فإنه بيَّن ما لم تَجْرِ به العادةُ بما جرَتْ به العادةُ.

وهذه الوجــوه تقتــضى أن يكون وجه الــشبــه فى المشبــه به أتمَّ ، وهو به أشهرُ، ولهذا ضعف قول البُحْتُرِىِّ :

---

(١) بقيته : «وقرطاس كرقراق السحاب»

الخافيــة : إحدى الخوافى ، . وهى ريشــات من الجناح تختفى إذا ضمــه الطائر . القرطاس: الورقة . رقراق السحاب : متلألئه، أو ما يذهب ويجىء منه ، ويكون في العادة دقيقا أبيض خفيفا ، وينسب البيت لأبى تمام ، وللحسن بن وهب .

(٢) أقصى الغايات : ارتباطه بالفعل « بلغت » وهو مفعول به .

(٣) بعض الآية ١٧١ من سورة الأعراف ، نتقنا : رفعنا . ظلة : مظلة .

على باب قِنَّسْرِينَ واللَّيْلُ لاطِخٌ ... جوانِبَهُ من ظُلْمَةٍ بمِـــــدادِ[١]

فإنه ربَّ مدَادٍ فاقد اللون ، والليلُ بالسواد وشدَّته أحَقُّ وأحْرَى ، ولهذا قال ابنُ الرُّوميِّ :

حِبْرُ أبى حَفْصٍ لعابُ الليلِ ... يسيل للإخْوانِ أىَّ سَيْــلِ[٢]

فبـالغ فى وصف الحبـر بالسواد حين شبَّـهه بالليل ؛ فكأنـه نظر إلى قول العامَّة فى الشيء الأسود « هو كالنِّقْسِ»[٣] ثم تركه للقافية إلى المداد .

ومنها: **تزيينه للترغيب فيه،** كما فى تشبيه وجهٍ أسود، بمقلة الظَّبى .

ومنها : **تشويهه للتنفير عنه** ، كما فى تشـبيه وجهِ مـجدورٍ بِسَلْحَةٍ[٤] جامدةٍ قد نقَرَتْها الدِّيَكة .

وقد أشار إلى هذين الغرضين ابن الرُّوميِّ فى قوله :

تقول : هذا مُجاجُ النَّحْلِ، تمدحُـه ... وإن تَعِبْ قلتَ : ذا قَيْءُ الزَّنابيرِ[٥]

ومنها : **استطرافه** ، كما فى تشبيه فحم فيـه جَمْرٌ مُوقَدٌ ببحر من المِسْكِ مَوْجُهُ الذهب . لإبرازه في صورة الممتنع عادةً .

وللاستطراف وجه آخرُ ، هو أن يكون المشبَّهُ به نادرَ الحضور إما مُطلَقًا كما مَرَّ، وإما عند حضور المشبَّه كما في قوله :

ولا زَوَرْدِيَّةٍ تَزْهُو بِزُرْقَتِهـــــا ... بينَ الرِّياضِ على حُمْرِ اليَواقيتِ[٦]

---

(١) قنسرين : بلد بالشام ، وبابها : مدخلها .

(٢) أبو حفص : وراق يمدحـه ابن الرومي . اللعاب : الريق ، وليس لليل لعـاب وإنما ادعاه له ليؤكد شدة سواد الحبر اعتمادا على توهم أن لعاب الأسود يكون أسود.

(٣) النقس : المداد .

(٤) المجدور: من أصابه الجدري، ومثله المجدر من المضعف . السلحة : العذرة وما يخرأ.

(٥) المجاج : الريق . ومجاج النحل : العسل ، والزنابير جمع زنبور ، وهو ذباب أليم اللسع، تدعي حين تريد الذم أن النحل منه ، وأن العسل من قَيئها .

(٦) اللازوردية : البنفسجة ، نسبة إلي اللازورد ، وهو حـجر نفيس يشبـه البنفســج فـي اللون بأجود أنراعه التي يصنع منها الحلى ، واليواقيت : جمع ياقونه والشاعر ابن الرومى . .

كأنها فوق قامات ضَعُفْنَ بهـــا أوائلُ النار فى أطراف كبْريـــت

فإن صـورة اتصال النار بأطراف الكبـريت ؛ لا يندُر حضـورُها فى الذهن نُدْرَةَ صورةِ بحرٍ من المِسْك مَوْجُه الذهبُ، وإنمـا النادر حضورها عند حضور صورة البَنَفْسَج، فإذا أُحْـضِرَ مع صحة الشَّبَه اسـتُطْرِفَ؛ لمشاهدة عِناقٍ بين صورتين لا تتَراءى ناراهُما[١].

ومما يؤيِّد هذا ما يُحكى أن جَرِيراً قال: أَنْشَدَنى عَدِىٌّ :

« عَرَفَ الدِّيارَ تَوَهُّمًا فاعْتَادها »[٢]

فلما بلغ إلى قوله :

« تُزْجِى أغَنَّ كأن إبْرَةَ رَوْقِه »

رحمتُه وقـلت : « قد وقع ، ما عَساهُ يقول وهو أعـرابىٌّ جِلْفٌ جاف؟ » فلما قال :

« قَلمٌ أصاب من الدَّواة مدادَها »

استحالَتْ الرحمةُ حَسَدًا . فهل كـانت رحمتُه فى الأولَى ، والحسَدُ فى الثانية، إلا لأنه رآه حين افتـتح التشبـيهَ قد ذكر مـالا يحضرُ له فى أول الفِكْر شَـبَهٌ ، وحين أتمَّهُ صادفه قد ظَفِر بأقرب صفة من أبعد موصوف؟

وذكر الشيخ عبد القاهر - رحمه الله - للاستطراف فى تشبيه البَنَفْسج بنار الكِبْريتِ وجهًا آخر، وهو أنه أراك شـبهًا لنبات غَضٍّ يَرِفُّ وأوراقٍ رطبة، من لَهَبِ نار في جسمٍ مُسْتَوْلٍ عليه اليُـبْس ، ومَبْنَى الطِّباع وموضوعُ الجِبِلَّة على أن

---

(١) لا تتراءى ناراهما :لا يتدانيان ولا يقتربان ، من قولهم « دورنا تتراءى» بمعنى تتقابل .

(٢) الشطر الأول مطلع القصيدة ، وعجزه :

« من بعد ما شمِل البلى أبلادَها»

عرفها توهما: عرفها عرفان ظن، اعتادها: جعل مجيئه إياها عادة. والأبلاد: جمع بلد، وهى القطعـة من الأرض. وتزجى تسـوق ، وفـاعله ضـمـير يعـود على الظبـيـة التى أخـذ فى وصفها. والأغن: الذى فى صوته غُنّة، ويقصد به ولد الظبية. والروق: القرْن. وإبرته: طرفه.

الشيء إذا ظهر من مكان لم يُعْهَدْ ظهورُه منه وخرج من مَوْضعٍ ليس بمَعْدِنٍ له؛ كانت صَبابة النفوس به أكثر ، وكان الشغف به أجدر .

أغراض ترجع إلى المشبه به

وأما الثانى [الذى يرجع إلى المشبّه به] فيكون فى الغالب إيهامَ أن المشبه به أتمُّ من المشبه فى وجه الشبه وذلك فى **التشبيه المقلوب** ، وهو أن يكون الأمر بالعكس، كقول محمد بن وهيب :

وبَدَا الصَّباحُ كأنَّ غُرَّتَــهُ ... وجهُ الخليفةِ حينَ يُمتَــدَحُ

فإنه قَصَدَ إيهامَ أن وجهَ الخليفة أتمُّ من الصباح في الوضوح والضياء.

واعلم أن هذا وإن كان فى الظاهر يشبه قولهم : « لا أدرى أَ وَجْهُهُ أنوَرُ أم الصبحُ ، وغُرَّتُه أضْـوأُ أم البدرُ؟» وقولَهم إذا أفرطوا « نورُ الصـباح يَخفَى فى ضوء وجـهه» أو « نورُ الشمسِ مسـروقٌ من نورِ جَبِينه» ونحـوَ ذلك من وجوه المبالغة؛ فـإن فى الأول خلاَبَةً وشيئًا من السحـر ليس فى الثانى، وهو أنه كأنه يَسْتكثر للصباح أن يُشبِّهه بوجه الخليفة ، ويُوهم أنه احتشد له واجتهد فى تشبيه يُفَخِّم به أمرَه ، فيُوقعُ المبالَغةَ فى نفسك من حيث لا تشعرُ ، ويُفيدُكَها من غير أن يَظهر ادِّعاؤه لها؛ لأنه وَضَعَ كلامَه وَضْع مَنْ يَقيسُ على أصل مُتَّفَق عليه ، لا يُشْفِق من خِلاف مُخَالِفٍ وتهكّم متهكِّم .

ومنه قوله تعـالى حكايةً عن مُسْتَـحلِّى الربا: ﴿إنَّما الْبَيْعُ مِـثْلُ الرِّبا﴾ فإن مُقْتَضى الظاهر أن يقـال : إنما الرِّبا مثل البيع؛ إذ الكلامُ فى الربا لا فى البيع؛ فخالفوا لجعلهم الربا فى الحِلِّ أقوى حالاً من البيع وأعْرَفَ به .

الدلالة على اشتراك شيئين فى صفة

هذا كله إذا أريد إلحاق الناقص فى وجه الشبه حقيقةً أو ادِّعاءً بالزائد ، فإن أريدَ مُـجَرَّدُ الجـمع بين شيـئين فى أمر ؛ فـالأحـسن ترْك التشـبيـه إلى الحكم

بالتشابه؛ ليكون كلٌّ واحد من الـطرفين مشبّهًا ومشبهًـا به ؛ احترازًا من ترجيح أحد المُتَساوِيَيْن على الآخر، كقول أبى إسْحاقَ الصَّابى :

تَشَابَهَ دَمْعِى إذْ جَرَى ومُدامَتِـــــــى فمِنْ مِثْلِ مافى الكأس عَيْنِى تَسكُـــبُ
فَوَاللهِ ما أدرى : أ بِالْخَمْرِ أسْبَلَـــتْ جُفُونِىَ أم مِنْ عَبْرَتِى كنتُ أشـــربُ؟

وكقول الآخر :

رقَّ الزُّجاجُ، وراقَتِ الخمر وتشابَها؛ فتشاكلَ الأمْـــرُ
فكأنما خَمْرٌ ولا قَـــدَحٌ وكأنّما قَدَحٌ ولا خَمْـــرُ

وأما تقسيم التشبيه باعتبار طرفيه فأربعة أقسام

ما طرفاه مفردان غير مقيَّدين

الأول : تشبيه المفرد بالمفرد ، وهو ما طرفاهُ مفردان إما غيرُ مقيّدين كتشبيه الخدِّ بالورد ونحوِه .

ماطرفاه مفردان مقيَّدان :

وإما مُقَيَّـدان، كقولهم لمن لا يحصُلُ من سَعْيِـه على شىء : هو كالقابض على الماء وكالراقم فى الماء؛ فإن المشبَّه هو الساعى ، لا مُطْلَقًا، بل مُقَيَّدًا بكون سعـيِه كذلك ، والمشـبَّه به هو القابضُ أو الرّاقِـمُ، لا مطلقًا، بل مقـيدًا بكَوْن قبضِه على الماء، أو رَقْمِـه فيه ؛ لأنّ وجهَ الشبه فيهمـا هو التَّسْوِيَةُ بين الفعل وعدمِه فى عدم الفائدة، والقبضُ على الماء والرقمُ فيه كذلك ؛ لأن فائدةَ قبض اليد على الشىء أن يحـصل فيها ، فـإذا كان مما لا يتماسك ، فـقبضُهـا عليه وعدمُه سواءٌ، وكذلك القصد بالرقم فى الشىء أن يبقى أثره فيه، فإذا فُعِلَ فيما لا يقبله؛ كان فعله كعدمه .

فالقيد فى هاتين الصورتين هو الجار والمجرور .

ما طرفاه مركبان :

الثانى : تشبيه المركب بالمركَّب، وهو ما طرفاه كَثْرتَان مجتمعتان ، كما فى قول البُحتُرِىّ .

تَرَى أَحْجَالَه يَصْعَدْنَ فيــــــه صُعودَ البَرْقِ في الْغَيْم الْجَهَامِ[١]

لا يُريد به تشبيهَ بَيَاضِ الحُجُولِ على الانفراد بالبرق ، بل مقصودُه الهيئةُ الخاصَّة الحاصلةُ من مُخَالَطة أحد اللونين بالآخر.

وكذلك المقصود فى بيت[٢] بَشَّارٍ، ولذلك وجب الحكم بأن «أسـيافنا» فى حكم الصِّلة للمصدر ، ونَصْبُ الأسياف لا يمنع من تقدير الاتِّصال ، لأن الواو فيهـا بمعنى «مع» كقولهم : «لو تُرِكَتِ الناقةُ وفـصيلَها لرضعهـا» ومما ينبِّه على ذلك أن قـوله : «تهاوى كـواكبـه» جملة وقـعت صـفةً لليل ؛ فـإن الكواكب مذكـورةٌ على سـبيل التـبع لليل ، ولو كانت مُـسْتـبِدَّةً بشـأنها لقـال : « ليلٌ وكواكبُ» .

وأما بيت امْرِئْ الْقَيْسِ :

كأن قلوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا ويابســــــًا لدَى وَكْرِها الْعُنَّابُ وَالْحَشَفُ البالى[٣]

فهو على خلاف هذا ؛ لأن أحدَ الشيئين فيه فى الطرفين معطوفٌ على الآخر .

أما فى طرف المشبَّه به فبيِّنٌ .

وأمـا فى طرف المشـبّه فَـلأنّ الجـمع فى المتَّـفِق كـالعطف فى المخـتلف ؛ فاجتماع شيئين أو أشياء فى لفظ تَثْنِيَة أو جمع؛ لا يوجب أن أحدهما أو أحدها فى حكم التابع للآخر ، كما يكون ذلك إذا جرى الثانى صفةً للأول ، أو حالاً

---

(١) الأحجال : جمع حجل بالكسر، وهو البياض فى رجل الفرس. الجهام: السحاب لاماء فيه .

(٢) هو قوله : كأنّ مُثارَ النَّقْع فوقَ رُءوسنا وأسيافَنَا ليلٌ تَهاوَى كواكبُهْ .

(٣) وكرها: عشـها ، والضمير للعقـاب التى يصفها . العناب ثمر أحـمر اللون. الحشف : أردأ التمر . البالى : القديم.

منه، أو ما أشبه ذلك، وقد صرح بالعطف فيما أجراه بيانًا له من قوله «رطبًا ويابسًا» .

وهذا القسم ضربان :

أحدهما : ما لا يصح تشبيه كل جزء من أحَدِ طرفيه بما يقابله من الطرَف الآخر ، كقوله :

غدًا والصبحُ تحت الليل بـــادٍ كطِرْفٍ أشْهَبٍ مُلْقى الْجِلالِ[١]

فإن الْجِلالَ فيه فى مقابَلة الليل ، ولو شبَّهه به لم يكن شيئًا، وكقول الآخر:

كأنما المرِّيخُ والمُشْتَـــرِى قُدَّامَهُ في شامخ الرِّفْعَهْ[٢]
مُنْصَرِفٌ بالليل عن دَعْوَةٍ قد أسْرِجَتْ قُدّامهُ شَمْعَهْ

فإنَّ المِّريخَ فى مقابلة المنصرف عن الدعوة، ولو قيل: كأن المِرِّيخ منصرف بالليل عن دعوة كان خَلْفًا[٣] من القول .

والثانى : ما يصحُّ تشبيه كلٍّ جزء من أجزاء أحد طَرَفَيْه بما يقابله من أجزاء الطرف الآخر، غير أن الحال تتغير ، ومثاله قوله :

وكأن أجْرام النجوم لَوَامِعـــًا دُرَرٌ نُثِرْنَ على بِسَاط أزرَقِ[٤]

فإنه لو قيل :« كأن النجوم دُرَرٌ ، وكأن السماءَ بِساط أزرق » كان تشبيهًا صحيحًا ، لكن أين يقَعُ من التشبيه الذى يُرِيكَ الهيئة التى تملأ القلوب سرورًا

---

(١) باد: ظاهر. الطرف : الفرس الكريم. الأشهب: الأبيض. جلال الفرس: غطاؤه، وهو له كالثوب للإنسان. والشاعر ابن المعتز .

(٢) المريخ والمشترى: كوكبان . قدّامه: أمامه. شامخ: عال مرتفع. أسرجت: أوقدت. وقائلهما التنوخى على بن داود أبى فهم، الشاعر الكاتب الناقد، صديق الوزير المهلبى.

(٣) الخَلْفُ من القول ، بفتح فسكون : هو الردىء منه .

(٤) ورَدَ البيتُ من قبل مثالا للتشبيه ذى الوجه الحسّى المركّب والطرفان مركبان. ونحن نلاحظ أن عبارة الشاعر قاصرة فى إبراز عنصر المشبه: النجوم وصفحة السماء ، إذ لم تذكر سوى (أجرام النجوم) .

وعجبًا ، من طلوع النجوم مُؤْتَلِقَةً، متفرقةً فى أديم السماء، وهى زرقاء زرقتها الصافية؟!

التشبيه المتعدد ضروب

وأيضًا إن تعدَّد طرفاه ، فهو إما ملفوف، أو مفروق.

التشبيه الملفوف

فالملفوف : ما أُتِىَ فيه بالمشبَّهيْن، ثم بالمشبه بهما كقول امْرِئْ الْقَيْسِ :

كأن قلوبَ الطيرِ رَطْبًا ويابسـًـا لدَى وَكْرِها العُنَّابُ والحشَفُ البالى

التشبيه المفروق

وغير الملفوفِ بخلافِ ذلك كقول المرَقِّشِ الأكبر :

النَّشْرُ مِسْكٌ ، والوجوهُ دَنَا نيرٌ وأطرافُ الأكُفِّ عَنَمْ[1]

ومنه قول أبى الطَّيِّبِ :

بَدَتْ قمرًا ، ومالت خُوطَ بانٍ وفَاحَتْ عَنْبَرًا ، ورَنَتْ غَزَالا[2]

تشبيه التسوية

وإن تعدَّد طرفُه الأول - أعنى المشـبَّه - دون الثانى ؛ سُمِّىَ تشبيـهَ التَّسْوِيَةِ كقول الآخر :

صُدْغُ الحبيبِ وحالى كلاهُما كالليـالى[3]
وثَغْرُهُ فى صَفَـاءٍ وأدْمُعِى كاللآلـى

---

(١) النشر: الرائحة الطيبة ، أو الرائحة مطلقا ، أو ريح فم المرأة وأعطافها بعد النوم ، العَنَم: شجر لين الأغصان يشبه بها البنان فى اللين ، وهو شجر له أغصان حمر يشبه بها البنان المخضوب. والمرقش الأكبر: هو عمرو، أو عوف بن سعد بن مالك، من بكر بن وائل، من الشعراء العشاق فى الجاهلية .

(٢) الخوط بالضم: الغصن الناعم ، أو الغصن مطلقا. البان: شجر معتدل الساق لدن. رنت: أدامت النظر مع سكون الطرف .

(٣) الصدغ : هو هنا الشعر المتدلى ما بين العين والأذن .

تشبيه الجمع

وإن تعدَّد طرَفهُ الثانى - أعنى المشبَّهَ به - دون الأول ، سُمِّىَ تشبيه الجمع، كقول البُحتُرِىِّ :

كأنما يَبْسِمُ عن لُؤْلُــــؤٍ مُنَضَّدٍ أو بَرَدٍ أو أقاحْ(١)

ومثله قول امرئ القيس :

كأن المُدَامَ وَصَوْبَ الغمـــامِ وريحَ الخُزَامَى وَنَشْرَ القُطُرْ(٢)
يُعَلُّ به . . بَرْدُ أنيابِهـــــا إذا طَرَّبَ الطائرُ المُسْتَحِــــرْ

إلا أن فيه شَوْبًا(٣) من القصد إلى هيئة الاجتماع .

تقسيم التشبيه باعتبار وجهه

وأما باعـتبار وَجْـهِهِ فله ثلاثُ تقـسيمـات ، تمثيلٌ وغيـرُ تمثيل، ومُـجْمَلٌ ومَفُصَّلٌ، وقريبٌ وبعيد.

التمثيل

ما وجهه وصفٌ ، منتزع من مُتعدِّد أمرين أو أمور . وقيَّده السكاكى بكونه غيرَ حقيقى ، ومثَّلَ بصُوَر مَثَلَ يها غيرُه أيضًا، منها قولُ ابن المُعْتَزّ :

اصْبِرْ عَلَى مَضَضِ الْحَسو دِ فإنَّ صَبْرَكَ قاتلُــــهْ(٤)
فالنارُ تأكُلُ نَفْسهــــــا إن لم تَجِدْ ما تأكلُــــهُ

---

(١) منضد : منظم ومنسق . البرد : حب الغمـام، وهو قطع صغيـرة من الثلج المنعقـد من ماء السـحاب إذا برد الجـو ، الأقاح : جـمع أقحـوان، وهو نبات له نور أبيض مـدبب الأوراق مفلخها.

(٢) المدام: الخمر. صـوب الغمام: ماؤه . الخزامى : نبت طيب له رائحة الزهر. القطر بسكون الطاء. وحرك بالضم اتبـاعا للفاء : عـود يتبخـر به ، يُعَلّ : يسقى مرة بعـد مرة . طرب: غرد. المستحر: الصائح وقت السحر

(٣) الشوب : ما خلطته بغيره ، فيه شوب من كذا : فيه خليط منه ،أى شيء مخالط .

(٤) المضض : الألم والوجع. وإضافته في البيت للفاعل .

فإنّ تشبيهَ الحسُود المُتروكِ مُقاوَلَتُه ، مع تَطَلُّبه إياها ، لينال بها نَفْثَةَ مَصْدُورٍ؛ بالنار التى لا تُمَدُّ بالحطب ؛ فى أمر(١) حقيقى مُنْتَزَعٍ من مُتَعَدِّد ، وهو إسراعُ الفَناء، لانقطاع ما فيه مَدَدُ البقاء .

ومنها قولُ صالح بن عَبْد القُدُّوس :

وإنَّ مَنْ أدَّبْتَهُ فى الصِّبا   كالعُودِ يُسْقَى الماءَ فى غَرْسِه(٢)

حتى تراه مُونِقًا ناضِرًا   بعد الذى أبصرْتَ مِنْ يُبْسِه

فإن تشبيه المؤدَّب فى صباه بالعُود المَسْقِىّ أوانَ غَرْسه؛ فيما يلزَم كلَّ واحد مِنْ كونِ المؤدَّبِ فى صِباه مُهَذَّبَ الأخلاق ، حميدَ الفعال، لتأديبه المصادف وقتَه ، وكَوْنِ العُود المسْقِىّ أوانَ غَرسه مُونقًا بأوراقه ونَضْرَته ؛ لسَقْيه المصادف وَقْتَه، من تمام المَيْلِ، وكمال الاستحسان ، بَعْدَ خلاف ذلك .

ومنها قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أضاءتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ ، وتَرَكَهُمْ فى ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ﴾ فإن تشبيه حال المنافقين بحال الموصوف بِصِلَة الموصول فى الآية؛ فى أمر حقيقى مُنْتَزَعٍ من مُتَعَدِّد، وهو الطمع فى حصول مطلوب ، لمباشَرة أسبابه القريبة، مع تعقُّب الحِرمان والخيبة؛ لانقلاب الأسباب .

غير التمثيل

وغير التمثيل : ما كان بخلاف ذلك كما سبق فى الأمثلة المذكورة .

التشبيه المجمل

والمجمل : ما لم يُذْكَرْ وجهه.

فمنه ما هو ظاهر يفهمه كلُّ أحَدٍ حتى العَامَّةُ، كقولنا : «زيدٌ أسدٌ» إذ لا يخفى على أحد أن المرادَ به التشبيه فى الشجاعة دون غيرها .

---

(١) الجار والمجرور متعلق بخبر «إن» .

(٢) مونقًا : مؤنقًا ، حسنًا ، معجبًا . ناضرًا ، مخضر الورق ، حسنًا جميلا . وصالح بن عبد القدوس شاعر عباسى مكثر من الحكم والأمثال فى شعره .

ومنه ما هو خَفِيٌّ لا يدركه إلاَّ مَنْ له ذهْنٌ يرتفع به عن طبقة العامَّة، كقول مَنْ وَصَفَ بنى الْمُـهَلَّب للحَـجَّاج ، لمَّا سـأله عنهم: وأن أيُّهُمْ أنجَدُ؟: «كـانوا كالْحَلْقة الْمُفـرَغَة ، لا يُدْرَى أين طرفاها» أى : لتناسب أصولـهم وفروعهم فى الشرف يمتنع تعينُ بعضهم فاضلا وبعضـهم أفضلَ منه، كما أن الحلقة الْمُفْرَغة لتناسب أجزائها يمتنع تعيين بعضها طَرَفًا وبعضها وسَطًا .

وأيضًا منه ما لم يُذْكَـرْ فيه وصفُ المشبَّه ، ولا وصفُ المشبَّـه به ، كالمثال الأول.

ومنه ما ذُكِرَ فيـه وصفُ المشبَّه به وَحْدَهُ، كالمثال الثـانى، ونحوهُ قولُ زِيادِ الأعْجَم :

وإنَّا وما تُلْقِى لنا إنْ هَـجوتَنَـــا   لكالبحر، مهما تُلْقِ فى البحر يَغْرَقِ

وكذا قولُ النَّابغَة الذّبْيانيِّ :

فإنك شَمْسٌ ، والملوكُ كَواكبٌ   إذا طلَعَتْ لم يَبْدُ مِنْهُنَّ كوكبُ

ومنه ما ذُكِرَ فيه وصفُ كل واحد منهما ، كقول أبى تَمَّام :

صَدَفْتُ عنه، ولم تصْدِفْ مواهبُهُ   عنِّى ، وعاودَهُ ظنِّى فلم يَخِبِ

كالغيث إن جئتَهُ وافاكَ رَيِّقُـــــهُ   وإن ترحَّلْتَ عنه لَجَّ فى الطلــبِ

التشبيه المفصل

والْمُفَصَّل: ما ذُكِرَ وجهه ، كقول ابن الرُّومِيِّ :

يا شبيهَ البدْر في الحسْـ   ـن وفى بُعْدِ الْمَنَـالِ

جُدْ؛ فقد تنفجرِ الصَّخْـ   ـرَةُ بالمـــــاء الزُّلالِ

وقولِ أبى بكْرٍ الخالدِيِّ :

يا شبيه البـدر حسنًا   وضياء ومنـــالا

وشبيهَ الغُصْـنِ لينًا   وقَوَامًا واعتـــدالا

أنت مثلُ الورد لونًا   ونسيمًا ومَـــلالا

زارنا حتى إذا مـــا   سَرَّنا بالقُـرْبِ زالا

التشبيه القريب المبتذل

والقريب المبتذل وهو ما ينتقل فيه من المشبه إلى المشبه به من غير تدقيق نظر؛ لظهور وجهه فى بادئ الرأى ، وسببُ ظهوره أمران :

الأول: كون الشبه أمرًا جُمْليًا؛ فإن الجملة أسبقُ أبدًا إلى النفس من التفصيل، ألا ترى أن الرؤية لا تصل فى أول أمرها إلى الوصف على التفصيل؟ لكن على الجملة، ثم على التفصيل؛ ولذلك قيل: النظرةُ الأولى حمقاءُ، وفلان لم يُنعِم النظر .

وكذا سائر الحواس، فإنه يُدْرَك من تفاصيل الصوت والذوق فى المرة الثانية ما لم يُدْرَك فى المرة الأولى، فمن يروم التفصيل كمن يبتغى الشىء من بين جملة، يريد تمييزه مما اختلط به، ومَنْ يَرُوم الإجمال كمن يريد أخذ الشىء جُزافًا.

وكذا حكم ما يدرك بالعقل، ترى الْجُمَلَ أبدًا تسبق إلى الذهن، والتفاصيلُ مَغمورة فيها ، لا تحضر إلا بعد إعمالِ الرَّوِيَّة .

والثانى : كونه قليلَ التفصيل مع غَلَبَـةِ حضور المشبه به فى الذهن : إما عند حضور المشبه ؛ لقرب المناسبة بينهما ، كتشبيه العنبة الكبيرة السوداء بالإجَّاصَةِ فى الشكل وفي المقدار ، والجرَّةِ الصغيرة بالكُوز كذلك ، وإما مطلقًا؛ لتكَرُّرِه على الحِسِّ، كما مر من تشبيه الشمس بالمرآة الْمَجْلُوَّة فى الاستدارة والاستنارة؛ فإن قربَ المناسبة والتَّكَرُّرَ كل واحد منهما يعارض التفصيل ؛ لاقتضائه سرعة الانتقال .

التشبيه البعيد الغريب

والبعيد الغريب، وهو مالا ينتقل فيه من المشبه إلى المشبه به إلا بعد فِكْرٍ؛ لخفاء وجهه فى بادئ الرأى ، وسبب خفائه أمران :

أحدهما : كونه كثير التفصيل ، كما سبق من تشبيه الشمس بالمرآة فى

كَفٍّ الأشَلِّ؛ فإن مـاذكرناه من الهـيئة لا يـقوم فى نفس الرائى للمـرآة الدائمة الاضطراب إلا أن يستأنفَ تأمُّلاً، ويكونَ فى نَظَرِه متمهِّلاً .

والثانى : نُدُورُ حضـور المشبه به فى الذهن : إمـا عند حضور المشـبه ؛ لبعد المناسبة بينـهما ، كما تقدَّم من تشبيه البَنَفْـسَج بنار الكِبريت، وإما مطلقًا؛ لكونه وَهْميًا ، أو مركبًا خياليًا ، أو مركبًـا عقليًا ، كما مضى من تشبيه نِصال السِّهام بأنياب الأغـوال ، وتشبيه الشقيق بأعلام يـاقوت منشورة على رماح من الزبرجد، وتشبيه مَـثَلِ أحبار اليهود بمَثَلِ الحمار يحمل أسـفارًا؛ فإن كلاًّ سببٌ لِنُدْرَة حضـور المشبه بـه فى الذهن، أو لقلة تكرُّره على الْحِسِّ ، كمـا مر من تشبيه الشمس بالمـرآة فى كف الأشل؛ فإنه ربما يقضى الرجلُ دهرَه ولا يتفق له أن يرى مِرْآةً فى يد [إنسانٍ] أشلّ؛ فالغرابة فى هذا التشبيه من وجهين .

معنى التفصيل وأعرف وجوهه

والمراد بالتفصيل أن يُنْظَرَ فى أكثـر من وصف واحدٍ لشىء واحد أو أكثر ، وذلك يقع على وجوه كثيرة ، والأغلب الأعرفُ منها وجهان .

أحدهما : أن تأخذ بعضًا وتَدَعَ بَعْضًا ، كما فعل امْرُؤُ القَيْسِ فى قوله :

حملْتُ رُدَيْنِيًا كأن سنانَـــه ... سَنَا لَهَبٍ لم يتَّصِلْ بدُخان

ففَصَلَ السَّنا عن الدُّخَان، وأثبتَهُ مُفْرَدًا .

والثانى : أن يُعْتَبَرَ الجميعُ ، كما فعل الآخَرُ فى قوله :

وقد لاحَ فى الصبح الثُّرَيَّا كما ترى ... كعُنْقُودِ مُلاَّحِيَّةٍ حـــينَ نَوَّرا

فإن اعْـتَبَـرَ من الأَنْجَم الشكل، والمقـدارَ، واللونَ، واجتـماعهـا على المسـافة المخصوصة فى القرب ، ثم اعتبر مثلَ ذلك فى العنقود الْمُنَوِّر من الملاَّحِيَّة .

كلما ازداد التركيب بعد التشبيه

وكلما كان التركيب من أمور أكثر؛ كان التـشبيه أبعد وأبلغ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَـاةِ الدُّنْيَا كماءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّماء فَاخْـتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ، مِّما

يأكُلُ النَّاسُ والأنْعَامُ، حتَّى إذَا أخَذَتِ الأرْضُ زُخْـرُفَهَا، وَازَّيَّنَتْ ، وَظَنَّ أهْلُهَا أنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْـهَا؛ أتَاهَا أمْرُنَا لَيْلاً أو نَهَـارًا، فَجَعَلْنَاهَا حَصِيـدًا كأنْ لَمْ تَغْنَ بالأمْسِ﴾ فإنها عَشْرُ جُمَلٍ إذا فُصِّلَتْ، وهي وإن دخل بعضُها فى بعض، حتى صارت كلهـا كأنها جـملة واحدة؛ فإن ذلك لا يمنع من أن نشـير إليهـا واحدةً واحدة، ثم إن الشبـه منتزع من مجموعـها من غير أن يمكن فصل بعـضها عن بعض، حتى لو حُذِف منها جملة أخَلَّ ذلك بالمغزى من التشبيه .

التشبيه البليغ

والبليغ من التـشبيه مـا كان من هذا النوع، أعنى البـعيدَ، لغـرابته، ولأن الشىء إذا نِيلَ بعد الطلـب له، والاشتياق إليـه، كان نَيْلُه أحلى، وَمَوْقِـعُه من النفس ألْطَفَ، وبالمسَرَّة أولَى، ولهذا ضُرِبَ المثلُ لكل مـا لَطُفَ مَوْقِعُه بِبَرْدِ الماء على الظمأ؛ كما قال :

وَهُنَّ يَنْبِذْنَ مِنْ قَوْلٍ يُصِبْنَ بِـــــهِ   مَوَاقِعَ الماء من ذى الغُلَّة الصَّادِى(١)

فرقٌ بين التعقيد وبعد التشبيه

لا يقال: عَدَمُ الظهور ضـربٌ من التعقيد ، والتعقيـدُ مذمومٌ ؛ لأنا نقول: التعقيدُ كما سبق له سبـبان: سوءُ ترتيب الألفاظ ، واختلال الانتقال من المعنى الأول إلى المعنى الثانى الذى هو المراد باللفظ ، والمراد بعدم الظهـور فى التشبيه ما كان سبَـبُهُ لُطف المعنى ودِقَّتُهُ أو ترتيبَ بعض المعانى على بعض، كـما يُشْعِر بذلك قولُنا: «فى بادئ الرأى» فإن المعانى الشريفةَ لا بُدَّ فيها -فى غالب الأمر- من بناء ثانٍ على أوَّلَ وَرَدُّ تالٍ إلى سابقٍ، كما فى قول البُحْتُرِيّ:

« دانٍ على أيْدِى العُفَاةِ » ... البيتين

فإنك تحتاج فى تعرُّف معنى البـيت الأول إلي معرفة وَجْهِ المجاز، فى كونه دانيًا

---

(١) ينبذن : يطرحن ويرمين لقلة اعتدادهن. الغلة : شـدة العطش. الصادى ، ومثله الصديان : العطشان. والبيت للقطامى .

وشاسِعًا، ثم تعود إلى ما يَعْـرِض البيتُ الثانى عليك من حال البدر، ثم تُقَابِل إحدى الصورتين بالأخرى، وتنظر: كيف شرط في العلو الإفراطَ ليشاكل قوله: «شاسعٌ» ؟ لأن الشُّسُوع هو الشديد من البُعْـد ، ثم قابله بما يشاكله من مُراعاة التناهى فى القـرب ، فقـال «جدُّ قريـب» فهذا ونحـوُه هو المراد بالحـاجة إلى الفكر، وهل شيء أحلى من الفكر إذا صادف نَهْجًا قويمًا إلى المراد ؟

وسائل للخروج من ابتذال التشبيه إلى غرابته

وقد يُتَصَرَّف فى القريب المبتذل بما يُخْرِجُه من الابتذال إلى الغرابة ، وهو على وجوه :

منها أن يكون كقوله :

لم تَلْقَ هذا الْوَجْهَ شمسُ نهارِنا إلاَّ بوجهٍ ليس فيه حيــــاءُ[1]

وقوله :

فرُدَّتْ علينا الشمسُ والليلُ راغـــــم بشمس لهم من جانب الخِدْرِ تَطْلُعُ[2]

فو الله ما أدري ؟ أأحلامُ نائـــــــم ألَمَّتْ بنا أم كان فى الرَّكْبِ يُوشَـــعُ؟

فإن تشبيه وجودِ الحِسان بالشمس مُبْتَذَلٌ ، لكن كل واحد من حديث الحياء فى الأول ، والتشكيك مع ذكر يُوشَعَ عليه السلام فى الثانى ؛ أخرجه من الابتذال إلى الغرابة .

وشبيه بالأول قولُ الآخر:

إن السحاب لتَسْتَحْيِى إذا نَظَرَتْ إلي نَدَاكَ فقاسَتْهُ بما فيهـــا[3]

ومنها أن يكون كقوله :

---

(١) قائله المتنبى . والتشبيه فى البيت ضمنى .

(٢) راغم : ذليل خاضع ، الخدر : الخباء ، ألمت : زارت زيارة قصيرة . يوشع : فتى موسى ، وبدعائه رد الله الشمس . والبيتان لأبى تمام .

(٣) قائله أبو نواس .

عَزَمَاتُه مِثْلُ النُّجومِ ثَوَاقِبًـــا لو لم يكن للثَّاقِباتِ أُفُولُ(١)

وقوله:

مَهَا الْوَحْش، إلاَّ أنَّ هَاتَا أَوَانِسٌ قَنَا الْخَطِّ، إلاَّ أنّ تلك ذَوَابلُ(٢)

وقوله:

يكادُ يَحكيك صَوْبُ الْغَيْثِ مُنْسكِبًـــا لو كان طَلْقَ الْمُحَيَّا يُمْطِرُ الذَّهَبَـــا(٣)

والبدْرُ لَوْ لَم يَغِبْ، والشمسُ لو نطقَتْ والأُسْدُ لوْ لم تُصَدْ والبحرُ لو عَذُبَـــا

وهذا يُسَمَّى التشبيهَ المشروطَ.

ومنها أن يكون كقوله :

فى طَلْعَةِ الْبَدْرِ شىء من مَحَاسِنِها وَلِلْقَضِيبِ نَصِيبٌ من تَثَنِّيهـــا(٤)

وقول ابن بَابَك :

ألا يا رِياضَ الْحَزْنِ مِنْ أَبْرَقِ الْحِمَى نَسِيمُكِ مَسْروقٌ ووَصْفُكِ مُنْتَحَلْ(٥)

حكَيْتِ أبا سَعْدٍ؛ فَنَشْرُكِ نَشْـــرُهُ ولَكِنْ له صِدْقُ الْهَوَى ولَكِ الْمَلَـلْ

وقد يخرج من الابتذال بالجمع بين عدةٍ تشبيهات ، كقوله :

كأنما يَبْسِم عن لُؤْلُـــــؤٍ مُنَضَّدٍ، أو بَرَدٍ، أو أقَاحْ(٦)

كما يزداد بذلك لُطْفًا وغرابةً ، كقوله :

له أَيْطَلاَ ظَبْىٍ ، وساقا نَعامَـــةٍ وإِرْخاءُ سِرْحانٍ، وتَقْرِيبُ تَتْفُلِ(٧)

---

(١) الثواقب : المضيئات اللوامع أو المرتفعات . أفول : غروب وزوال ، وقائله رشيد الدين الوطواط محمد بن محمد بن عبد الجليل بن عبد الملك المتوفى سنة ٥٧٣هـ.

(٢) مها الوحش : بقر الوحش، واحدته مهاة . قنا: اسم جنس جمعى واحدته قناة ، وهى عامل الرمح. الخط: بلد تنسب إليه أجود الرماح. ذوابل : جمع ذابل من الذبول وهو الجفاف. والبيت لأبى تمام .

(٣) صوب الغيث منسكبًا : ماء المطر منصبًا . طلق المحيا : متهلل باش .

(٤) هو للبحترى . والقضيب : أراد به الغصن الغض .

(٥) الحزن والأبرق : الأرض الغليظة، نشرك : ريحك الطيبة .

(٦) سبق إيراد هذا البيت شاهدا لتشبيه الجمع وهو الذى تعدّد طرفه الثانى.

(٧) أيطلا الظبى: خاصرتاه . السرحان : الذئب ، وإرخاؤه : جريه فى سهولة.

تقسيم التشبيه باعتبار الأداة

وأما باعتبار أداته فإما مُؤَكَّدٌ ، أو مُرْسَل .

والمؤكد ما حُـذِفَتْ أداتُه ، كقوله تعـالى ﴿ وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾(١) وقوله : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا، ومُبَشِّرًا ، وَنَذِيـرًا، وَدَاعِيًا إلى الله بإذنِهِ، وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾(٢) وقول الْحَماسِىِّ :

هُمُ البحورُ عَطاءً حين تَسْأَلُهُـمْ   وفى اللِّقاء إذا تلقى بِهِم بُهَمُ(٣)

إلى غير ذلك كما سبق ، ومنه نحو قول الشاعر :

والريحُ تَعْبَثُ بالغُصون، وقد جَرَى   ذَهَبُ الأَصِيلِ على لُجَيْنِ الْمـاءِ(٤)

وقول الآخر يَصِفُ القمرَ لآخرِ الشهر قبل السِّرارِ :

كأنما أَدْهَمُ الإظلام حينَ نَجـا   مِنْ أَشْهَبِ الصُّبح أَلقَى نَعْلَ حافِرِهِ(٥)

وقول الشَّرِيفِ الرَّضِىِّ :

أَرْسَى النَّسِيمُ بِوَادِيكُمْ ولا بَرِحَـتْ   حَوامِلُ الْمزْنِ فى أَجْدَاثِكُمْ تَضَعُ(٦)

ولا يزال جَنِينُ النَّبْتِ تُرْضِعُـهُ   على قُبُورِكُمُ الْعَرَّاضَةُ الْهَمِـعُ

والمرسل ما ذُكِـرتْ أداتُه ، كقوله تعالى: ﴿ مَـثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَـوْقَدَ

---

(١) بعض الآية ٨٨ من سورة النمل .

(٢) بعض الآيتين ٤٥-٤٩ من سورة الأحزاب.

(٣) البهم : واحدها بهمة بالضم ، وهو الشجاع لا يدرى خصمه كيف يأتيه ، والبيت لزياد بن حمل .

(٤) الأصيل : ما قبل الغروب من آخر النهار ، اللجين : الفضة ، وقائله ابن خفاجة الأندلسى إبراهيم بن عبد الله الشاعر الوصاف المتوفى سنة ٥٣٣ .

(٥) صاحبه ابن حمديس الصقلي. الأدهم: الفرس الأسود. الأشهب : الفرس الأبيض.

(٦) أرسى : أقام. المزن: السحب . أجداثكم: قبوركم . تضع : تمطر، مجازا . العراضة : السحاب ذو الرعد والبرق . الهمع : الماطر .

نَارًا﴾[١] ، وقوله عز وجل: ﴿ عَـرْضُهَا كَعَـرْضِ السَّماءِ وَالأَرْضِ﴾[٢]، وقول امْرِئِ الْقَيْسِ :

وتَعْطُو برَخْصٍ غَيْر شَثْنٍ كَـــأَنَّهُ   أَسَارِيعُ ظَبْيٍ، أَوْ مَسَاوِيكُ إسْحِلِ[٣]

وقول الْبُحْتُرِيِّ :

وإذا الأَسِنَّةُ خالَطَتْهَا ؛ خِلْتَهَا   فيها خَيَالَ كواكِبٍ فى الماءِ[٤]

إلى غير ذلك كما تقدم.

خاتمة القول فى التشبيه

قد سـبق أن أركان التـشبيـه أربعة : المشبـه ، والمشبـه به وأداة التشبـيه ، ووجه.

مراتب صيغ التشبيه

فالحاصـل من مراتب التشبـيه فى القوة والضعف فى المبـالغة باعتـبار ذكر أركانه كلِّها أو بعضِها ثمان:

إحداها : ذكر الأربعة ، كقولك : «زيد كالأسـد فى الشجاعة». ولا قُوَّةَ لهذه المرتبة .

وثانيتها : تركُ المشبــه، كقــولك: «كالأسـد فى الشجـاعة» أى :زيدٌ ، وهى كالأولى فى عدم القوة.

وثالثتها: ترك كلمة التـشبيه؛ كـقولك: «زيد أسد فى الشـجاعة» وفيـها نوعُ القوة.

---

(١) بعض الآية ١٧ من سورة البقرة .

(٢) بعض الآية ٢١ من سورة الحديد .

(٣) تعطو : تتناول . رخص : لين ، ومَوْصُـوفُه ملاحظ وهو البنان . شـثن: غليظ. الأساريع: ديدان حمـر ، واحدها أسروع. ظبى: اسم واد بتـهامة. الإسحل : شـجر تتخـذ منه أجود المساويك .

(٤) الأسنة : جمع سنان ، وهو مقدم الرمح . خالطتها : الضمير يعود إلى الدروع التي يصفها.

رابعتها: ترك المشبه وكلمةِ التشبيه ؛ كقولك: «أسد فى الشجاعة» أي : زيدٌ، وهى كالثالثة فى القوة .

وخامستها : ترك وجه الشبه كقولك: « زيد كالأسد » وفيها نوع قوة؛ لعموم وجه الشبه من حيث الظاهر.

وسادستها: ترك المشبه ووجه التشبيه، كقولك: «كالأسد» أى: زيدٌ، وهي كالخامسة .

وسابعتها: ترك كلمة التشبيه ووجهه، كقولك: «زيدٌ أسدٌ» وهى أقوى الجميع.

وثامنتها: إفراد المشبه به بالذكر، كقولك: «أسد» أى : زيدٌ ، وهى كالسابعة.

وجه الشبه قد ينتزع من التضاد

واعلم أن الشَّبَهَ قد يُنْتَزَعُ من نفس التضادِّ ؛ لاشتراك الضدين فيه، ثم يُنَزَّلُ مَنْزِلَةَ التناسُب بوساطة تَمْليحٍ أو تَهَكُّم ؛ فيقال للجبان : « ما أشبهَهُ بالأسَد» وللبخيل : هو حاتِمٌ .

التشبيه التمثيلي

من كتاب (مفتاح العلوم) للسكاكي

واعلم أن التشبيهَ متى كان وجهُه وصفًا غيرَ حقيقيّ، وكان منتزعًا من عِدّة أمور ،خُصّ باسم التمثيل، كالذى فى قوله :

اصْبِرْ على مَضَضِ الحَسُو ... د فإنّ صبرَكَ قاتلُـــهْ
فالنارُ تأكلُ نفسَهَـــا ... إنْ لمْ تجدْ ما تأكـلُـــهْ

فإن تشبيهَ الحسود المتروكِ مقاولتُهُ بالنار التى لا تُمَدُّ بالحطَب، فيسرع فيها الفناء ليس إلا فى أمر مُتَوَهَّم له، وهو ما تتوهَّم إذا لم تأخذْ معه فى المقاولة، مع علمك بتطلُّبه إياها ، عسى أن يتوصّل بها إلى نَفْثَة مَصْدُور، من قيامه إذْ ذاك مَقَامَ أن تمنعَه ما يَمُدّ حياتَه ليسرع فيه الهلاك، وإنه كما ترى منتزَعٌ من عِدة أمور ؛ وكالذى فى قوله :

وإنّ مَنْ أدبْتَه فى الصِّبَـــا ... كالعُود يُسقَى الماءَ فى غَرْسِه
حتّى تراه مُورِقًا ناضِـــرًا ... بعد الذى أبصرتَ من يُبْسِه

فإن تشبيه المؤدَّب فى صِباه بالعُود المسقىِّ أوانَ الغرس، المونِّق بأوراقه ونَضرَته، ليس إلا فيما يلازم كونه مهذب الأخلاق، مرضىَّ السيرة، حميدَ الفعال- لتأديه المطلوب بسبب التأديب المصادف وقته- من تمام الميل إليه[1]، وكمال استحسان حاله، وإنه كما ترى أمرٌ تصوّرى لا صفة حقيقية، وهو مع ذلك منتزَع من عدة أمور؛ وكالذى فى قوله عز من قائل: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذى استَوْقَدَ نارًا فَلَمّا أضَاءت ما حَوْلَه ذَهَب الله بنُورهم وتَركَهُمْ فى ظُلُمات لا يبصِرُون﴾ فإن وجه تشبيه المنافقين بالذين شُبِّهوا بهم فى الآية هو رفعُ الطمَع إلى تَسَنّى مطلوب بسبب مباشرة أسبابه القريبة مع تَعَقّب الحرمان والخيبة، لانقلاب الأسباب، وأنه أمرٌ توهُّمىّ كما ترى منتزَع من أمور جمّة؛ وكالذى فى قوله تعالى أيضًا: ﴿أوْ كَصَيِّب منَ السّماء فيه ظُلُمات ورَعْدٌ وبَرْقٌ يَجْعلونَ أصَابِعَهُمْ فى آذانهمْ منَ الصّواعق حذَرَ المَوْت﴾ وأصل النظم: أو كمَثَل ذَوى

(١)سياق الكلام: فيما يلازم كونَه مهذّب الأخلاق . . . لتأدية المطلوب . . . من تمام الميل إليه .

صيّب، فحـذف ذوى لدلالة: ﴿يَجْعلونَ أصَابِعَهُمْ فى آذانـهمْ﴾ عليه، وحذف: (مَثل)، لما دَلّ عليه عطفُه على قوله: ﴿كَمَثَلِ الذى اسْتَوْقدَ نارًا﴾ إذ لايخفى أن التشبيه ليس بين مثل المستوقدين، وهو صفتهم العجيبة الشأن، وبين ذوات ذوي الصيب ، إنما التشبيه بين صفة أولئك، وبين صفة هؤلاء، ونظيره قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنُوا كونُوا أنْصـارَ اللهِ كمَا قالَ عيـسى ابنُ مريم للْحَوارِيِّينَ مَنْ أنْصَارى إلى اللَّه﴾ فـأوقع التشبيـه بين: كون الحواريين أنصـار الله وبين: قول عيسى للحواريين من أنصارى إلى اللـه، وإنما المراد: كونوا أنصار الله مثل كون الحواريين أنصاره، وقت قول عيسى: منْ أنصارى ، وأن قوله: ﴿أوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السّماء﴾ إلى الآخـر تمثيل لما أنّ وجه التشبيـه بينهم وبين المنافقين هو أنهم فى المقام المطمع فى حـصول المطالب، ونُجْح المآرب، لا يحظون إلا بضـد المطموع فيه من مـجرد مقاساة الأهوال، وأنه كمـا ترى مما نحن بصدده، وكذا الذى فى قوله عز وجل: ﴿مَثَلُ الذينَ حُمِّلوا التّوْراة ثم لم يحْـملوها كَمَثَلِ الحِمَارِ يحْمِلُ أسْفارًا﴾ فإن وجه التشبيه بين أحبار اليهود - الذين كلفوا العمل بما فى التوراة ، ثم لم يعملوا بذلك - وبين الحمـار الحامل للأسفار، وهو حرمـان الانتفاع بمـا هو أبلغ شىء بالانتفاع به، مع الكد والتعب فى استصحابه، وليس بمشتبـه كونه عائدًا إلى التوهم، ومركّبًا من عـدة معان، والذى نحن بصدده من الوصف غير الحقيقى أحوج منظور فيه إلى التأمل الصادق من ذى بصيرة نافذة، وروية ثاقبة، لالتبـاسه فى كثير مـن المواضع بالعقلى الحقيـقىّ ، لا سيما المعـانى التى ينتزع منها، فربما انتزع من ثلاثة، فأورث الخطأ لوجوب انتزاعه من أكثر، نحو قوله:

كما ابرقتْ قومًا عطاشًا غمامةٌ فلمّا رأوْها اقشعتْ وتجلّـــتِ

إذا أخذتَ تنتـزع وجه التـمثيل من قـوله: كمـا أبرقت قومًا عطاشًـا غمـامة، فحسب، نزلت عن غرض الشاعر من تشبيهه بمراحل، فإن مغزاه أن يصل ابتداء مطمعًا بانتهاء مؤيس، وذلك يوجب انتزاع وجه التـشبيه من مجموع البيت، ثم إن التشبيه التمثيلى متى فشا استعماله على سبيل الاستعارة لا غير، سمى مثلا، ولِوُرُودِ الأمثال على سبـيل الاستعارة لا تغيَّر، وسيـأتيك الكلام فى الاستعارة بإذن الله تعالى .

حول المجــــاز

١ - نظرة تاريخية

اتجه التفكيـر فى (المجاز) وجهات متعـددة ، فى البداية، وحين كان المعنى اللغوىّ للكلمة مسيطرًا ، كـان الجائز يقف على الطرف المقابل للواجب، وكان المجاز بمعنى (الجائز) و (الممكن) ، حينئذ أطلقت الكلمة (المجاز) على كلّ صور الاستـخدامات الـلغويّة غيـر المعيـاريّة ، سواء على مسـتوى التـركيب أو على مسـتوى الدلالة ، فـوصفت ظواهر مثـل التقديم والتـأخيـر والحذف والتكرار والمخالفة فى الضمائر والعدد بأنها مـجازات ، وكذلك وُصفَ استخدام الكلمة بمعنى غيـر معناها الحقـيقى أو الوضعى، نجـد هذا فى كتب الدراسات القـرآنية الأولى ، وأبرزها **مجاز القرآن** لأبى عبيدة ت٢١٠هـ كما نجد استمرارًا له فى بعض الكتب التى استمرت على الأخـذ بنفس المعنى ، ومنها كتب فى (أصول الفقه) مثل كتاب (**اللُّمع**) لأبى إسحاق الشيرازى ت٤٧٦ هـ.

غير أنـه جاء وقت انحاز فيـه استعمال كلـمة (المجاز) إلى مجال المخـالفة الدلالية ، حيث كانت كلمتا (الاستعارة) و (المجاز) تتعاقبان على هذه الدلالة .

وقد أطـلقت الكلمة - فى إطار الانحـياز المشـار إليه - على حـالتين من المفارقة الدلالية ، إحداهما يمكن وصفها بأنها **مفارقة أفقيّة** والأخرى **مفارقة رأسية** .

ونعنى بالمفـارقة الأفقـية مـا وقف عنده عبـد القاهر الجـرجانى ت ٤٧١هـ وأطلق عليه (**المجاز العقلى**) الذى اشتهر تمثيله له بجملة (أنبت الربيعُ البقل) حيث سـجّل المفارقـة بين الفعل (أنبت) والفاعل (الربـيع) ومصدر المفـارقة أن الربيع لا يجوز أن يصـدر منه فعل لا الإنبات ولا غيره ، وبـالتالى كان وصف هذا التركـيب بأنّ الفعل فيه أُسند إلى غـير فاعله الحقـيقى الذي هو فى النظرة

الدينيّة - أو مقتضى العقل - كما يقول عبد القاهر- الله سبحانه وتعالى .

المجاز العقلى ينطوى على مفارقة دلالية أفقية مصدرها عدم المناسبة بين الفعل والفاعل - أو بين المسند والمسند إليه - فالضحك لا يصدر من الربيع فى قولنا (ضحك الربيعُ) والشيْب لا يشتعل فى قولنا (اشْتعل الشيبُ فى رأسِى). وحين نقول (شيّبتْنا الأيّام والليالى) فإن الأيام والليالى لا تُشيب أحدًا، وحين نقول (أكَلَ الدهرُ شبابَه) فإن الدهر لا يأكُل والشّباب لا يُؤكَل .

هكذا تنشأ المفارقة الأفقيّة عن **انعدام الملاءمة بين طرفى الإسناد** (الضحك والربيع ، الاشتعال والشيب، الأكل والدهر .. إلخ) وهى الملاءمة التي يمكن استعادتها بتغيير أحد طرفى الإسناد، كأن نقول فى (ضحك الربيعُ): ضحك الرجل ، أو نقول فى (اشتعل الشيب) : اشتعلت النار أو ظهر الشيّب.

فإذا صدر الفعل من فاعله ، فقلنا : ضحك الرجلُ، واشتعلت النار، وأكل الطفلُ طعامه ، قلنا إن الفعل صدر من فاعله الحقيقى أو أسنِد إلى فاعله الحقيقى، ووصفْنا كلاّ من هذه التراكيب بأنه **(حقيقة عقليّة)** ، على أساس تحقّق الملاءمة أو المناسبة الدلالية بين طرفى الإسناد وفقا لمقتضيات العقل .

أما **المفارقة الرأسيّة** فتقوم على أساس آخر هو استعمال اللفظة الواحدة (أو العبارة التى تقوم مقام لفظة) بمعنى غير معناها الحقيقى، كالذى نجده فى قول المتنبى فى مطلع إحدى قصائده :

لياليَّ بعدَ الظاعنين شكولُ　　طوالٌ وليلُ العاشقين طويلُ
يُبِنَّ لى البدر الذى لا أريدُه　　ويخفين **بدرًا** ما إليه سبيلُ

أو كالذى فى قوله :

كبُرتُ حولَ ديارهم لمّا بــدت　　منها **الشموسُ** وليس فيها المشرقُ

أو كالذى نجده فى قول الوَأْواءِ الدمشقىّ يصف دموع حبيبته وقد سقطت من عينيها على خدّيها وعضت بأسنانها على أصابعها :

فاسبلت لؤلؤًا من **نرجس** وسَقَتْ **وردًا** وعضّتْ على **العنّاب بالبَـرَدِ**

أو كالذي في قول شوقي في مطلع (نَهْج البُردة) :

رِيمٌ على القاع بين البان والعلَـــم أحلّ سفكَ دمي في الأشهر الحُرم

فكلمات : البدر والشموس في بيتى المتنبى ، واللؤلؤ والنرجس والورد والعنّاب والبَـرَد في بيت الوَأْواء، والرِّيم في بيت شوقى . . كلـها مستـخدمة في غـير معانيها الحقيقية . . فالبدر مـقصود به الحبيبة التى يهواها ، والشموس : النساء الجميلات ، واللؤلؤ : قطرات الدموع ، والنرجس: حدقة العين، والورد: خد الحبيب، والعنّاب: أطراف الأصـابع ، والبَرَد : الأسنان البيضاء المتناسـقة، أمّا الريم في بيت شوقى فمقصود به الفتاة الجميلة .

كلٌّ من الكلمات السابقة أطلقت بغير معناها الحقيقى ، فهناك مفارقة دلاليّة بين معناها الحقيقى أو الوضعى والمعنى الذى استُـعملت فيه في السياقات الأدبية التى وردت فيـها ، وباستطاعتـنا - إذا تخلّينا عن القيم الجمـالية والمعنويّة في معانيها المجازية - أن نستبدل المعـانى الحقيقيّة بالمعانى المجازيّة ، فنقول في بيت المتنبى - على سبيل المثال - يُبِنَّ لى بدر السماء ويُخفين محبوبتى التى لا سبيل إليها . ونقولَ في بيـت الصنوبرى إن المحبوبة أسبَلَتْ دموعها مـن عينيها على خدّها وعـضت على أطراف أصابعهـا بأسنانها الصـغيرة البـيضاء المسـتوية ، وهكذا، لكننا في هذه الحالة سنتخلّى - كما قلنا - عن القيم الجماليّة والمعنويّة التى تُشعّها المعانى المجازيّة.

أما ما ينـبغى التنبهُ إليه فـهو وقوع المفارقـة بين الدلالة الحقيقـية والمجازية للكلمة الواحدة ، وهى المفارقة التى وصفناها بأنهـا مفارقة رأسية ، بمعنى أننا لا نبحث في طرفين للجـملة بينهما مـفارقة دلالية أفـقيّة - كمـا هو الحال في (ضحك الربيـع) - وإنما ننظر في مفارقـة بين دلالتين للفظ الواحـد : الشمس الحقيقية والفتاة الجميلة - اللؤلؤ الحقيقى وقطرات الدموع - الورد الحقيقى والخدّ

.. إلخ . وقد أطلق عبد القاهر على هذا النوع من المجاز اسم (المجاز من طريق اللغة) أو (**المجاز اللغوى**) وذلك فى مقابل النوع الأول (القائم على المفارقة الأفقية) الذى سماه (**المجاز العقلى**) أو (المجاز من طريق العقل) .

عبد القاهر وصفتا العقلى واللغوي

إذا كان عبد القاهر الجرجانى هو صاحب التسمية لكل من نوعى المجاز - العقلى واللغوى - فإن لَمْحَ أمثلة النوعين وتسميةَ كليهما مجازًا - دون المحاولة للتفريق بينهما - **سابقٌ على عبد القاهر** .. لقد لمح سِيبَويْهِ ت١٧٧هـ نماذج مما تحققت فيه المفارقة الدلالية الأفقيّة ، من نحو قوله تعالى : ﴿بَلْ مَكْرُ الليلِ والنهارِ﴾ قال : والليل والنهار لا يمكران ، ولكن المكرَ يكون فيهما . ومن نحو قولهم : (بنو فلان يطؤُهم الطريقُ) يريد : أهل الطريق ، لأن الطريق لا يطأ ؛ وقد وصف هذه الظواهر بأنها من (سعة الكلام) [الكتاب ١/ ١٦٠ ، ١٦١ . ١٧٥ ، ١٧٦ ، ٢١١-٢١٣] كما لمح ابنُ جنى ٣٩٢ نفس الظاهرة ، إلى جانب ظاهرة التجوّز الدلالى فى المفردات ، وأطلق على الجميع اسم المجاز [الخصائص] .

غير أن أحدًا قبل عبد القاهر لم يحاول التفرقة بين تجوّز فى الإسناد وتجوّز فى دلالة الكلمة .. **عبد القاهر الجرجانى هو الذى تصدّى لهذه التفرقة**، وخلاصة رأيه - بعيدًا عن موافقتنا له أو اختلافنا معه - أن الإسناد عمليةٌ عقليةٌ يقوم بها المتكلّم ، أما دلالات الكلمات فمصدرها اللغة ، فلأننا لانعرف - على التحديد - من أين ولا كيف اكتسبت الكلماتُ دلالاتِها فنحن نعزو هذه الدلالات إلى اللغة ، ولذلك نسمى دلالةَ الكلمة على معناها الحقيقى (دلالةً لغويّة) ، فدلالة كلمة الأسد على الحيوان المعروف دلالة لغوية، وكذلك دلالة الشمس على الكوكب المعروف ودلالة البدر أيضا ، وقسْ على هذا دلالات الأسماء على مسمياتها - مثلا : السيف، البحر، النور،

السحاب، المطر، الحصان ، العطر . .الخ ، اللغة - فى رأى عبد القاهر - هى مصدر الدلالات الحقيـقية للكلمات ، وبالتالى فإنّ الكلمة المستعملة فى معناها الذى أعطته لها اللغة تسـمَّى (حقيقة لغويّة) وفى المقـابل فإنّ الكلمة ذاتها حين تُستعمل فى مـعنى آخر - غير المعنى الذى أعطته لها اللغـة - تسمّى (مجازًا لغويًا) .

دلالة الكلمـة المفردة -إذنْ- لغوية - فى رأى عـبد القـاهر - سواء الدلالة الحقـيقية أو الدلالة المجـازيّة ، وقد نفهم سـبب وصفه للدلالة الحـقيقيّـة بأنها لغويّة، لكننا لا نجد مبررًا لوصف الدلالة المجـازية أيضا بأنها لغويّة ، أما المبرّر عند عبد القاهر فـهو أن الدلالة المجازية للكلمة المفردة جاءت نتيـجة المخالفة أو الخروج على حـقيقـة لغوية فتكون النتـيجة مـجازًا لغويًا . وهو رأى تواجـهه اعتـراضات مـهمة أبرزها أن الـدلالات المجازيّة إنما يُحدثُـها المتكلّمون بـاللغة وليست من معطَيات اللغة . . لكننا نكتفى هنا بعرض رأى عبد القاهر فى سبب التسمـية أو الوصف - وصف الدلالة المجازية فى الكلمة المفـردة بأنها لغويّة ، ووصف الكلمة فى هذه الحالة بأنها (مجاز لغوى) .

على العكس من ذلك يؤمن عـبد القـاهر بأن عمليـة الإسناد أو التركـيب عملية (عقلية)، **ومعنى أنهـا عقلية -عنده - أنهـا من فعل المتكلّم** ، فـالمتكلم هو الذى يُسند فـعلا إلى فـاعل أو خبـرًا إلى مـبتـدأ أو يُلحق صفـةً بموصوف أو مـضافًا بمضـاف إليه . . وهكذا ؛ ويؤمن عبـد القاهر - وهو رأى مـحل خلاف - بأن اللغـة لا دخل لها فى عـمليّـة الإسناد (التى هى من صنع المتكلم) إذْ ينحـصر دورُها فى تقـديم المفردات بدلالاتهـا الوضعـيّة من أسـماء وأفعال وحـروف ليجىءَ المتكلمُ ويقوم بتـركيب الجمل منها ، هذا التـركيب قد يتحـقق فيه التوافق الـدلالى أو المناسبة الدلالية بـين المسند والمسند إليه ، أو - بعبـارة عبـد القاهر - يسند فـيه الشىء لما هو له ، بمعنى أن يُسند الـفعل إلى فاعل يصلح الفعلُ للصـدور عنه حقيقة ويصلح الفاعل للقـيام بهذا الفعل ، أو

يسند الخبر إلى مبتدأ يصحّ عقلا إسنادُه إليه ، فنقول - مثلا - (الله يهدى من يشاء)، (يحجُّ المسلمون إلى بيت الله الحرام) ، (دمّر الجنود حصون العدوّ) . . فى مثل هذه الجمل - حيث يتحقق التوافق الدلالى بين الفعل والفاعل وبين المبتدأ والخبر - يوصف التركيب بأنه (حقيقة عقلية) .

أما فى حالة وقوع المفارقة الدلالية وانعدام المناسبة - بين الفعل والفاعل أو المبتدأ والخبر وما كان فى حكم التركيب - كالتركيب الوصفى أو التركيب الإضافى - كأن يقول القائل : (اشتعل الشيب فى رأسى) أو (لقد أحيانى الطبيب بعد الموت) أو (ضحكت الأرضُ لنزول المطر) - **فإن التركيب يوصف هنا بأنه (مجاز عقلى)** والسبب هو المفارقة الدلالية بين الفعل والفاعل : الاشتعال والشيب ، الإحياء والطبيب ، الضحك والأرض ، فالشيب لا يشتعل، والطبيب لا يُحيي أحدًا، والأرض لا تضحك .

وكما نلاحظ فإن تسجيل المفارقة الدلالية هنا يتم بنظرة أفقيّة إلى طرفى الإسناد معًا - الفعل مع الفاعل ، أوالخبر مع المبتدأ - وذلك حتى يمكن رصد المفارقة ، إذْ لا يكفى النظرُ إلى طرف واحد . لكن المهمُّ هنا هو مقابلة عبد القاهر بين ما سمّاه (حقيقة عقلية) وما أطلق عليه اسم (المجاز العقلي) موازاةً مع ما أطلق عليه (حقيقة لغويّة) و (مجازٌ لغويّ) .

٢ - الأساس اللغوى للتفكير فى المجاز

ينطلق مبدأ التجوّز الدلالى من تصوّر أساسىّ هو مفهوم (الحقول الدلاليّة). هذا المفهوم الذى ينتمى إلى ميدان الفكر اللغوى ينبنى على تصور آخر للوجود الطبيعى للكائنات هو مفهوم الحقول - أو المجالات - الطبيعيّة التى تنقسم إليها الأشياء والتصوّرات ، إذ تنقسم هذه الأشياء وكذلك تصوراتنا عنها إلى مجالات عديدة باعتبارات معينة ، ففى الإمكان - مثلا - تقسيم الكائنات إلى ما ينتمى إلى عالم الأرض ، وما ينتمى إلى العالم العلوى ، لنتحدث فى

العالم الأول عن كل ما على الأرض من كائنات وظواهر وأحوال ، وفى العالم الثانى عن كل مكونات عالم الأفلاك والكواكب والمجرّات . . إلخ ، وقد تجرى داخل كلٍّ من هذين المجالين تقسيمات أخرى كثيرة ، ففى المجال الأرضى يمكنك أن تتحدث - مثلا - عن الماء واليابس ، وفى اليابس تستطيع أن تتحدث عن الجبال والسهول أو الوديان والصحارى . . إلخ، كما يمكنك فى مجال الماء أن تتحدث عن البحار والأنهار والبحيرات والثلوج والبخار . . إلخ، ومرة أخرى يمكن أن ينقسم مجال اليابس إلى مجالات أصغر ، فهناك -مثلا- الكائنات التى تعيش أو توجد على الأرض ، هناك الكائنات الحيّة والجمادات ، والكائنات الحيّة منها المتحرك وغير المتحرك ، المتحرك هو القادر على التحول من مكان إلى مكان كالإنسان والحيوان والطير ، وغير المتحرّك هو النبات والشجر وكل ما هو حيّ قارّ فى مكانه. كما أن المتحرّك ينقسم إلى عاقل وهو الإنسان، وغير عاقل وهو ما عدا الإنسان . .وهكذا .

هذه الأقسام الطبيعية للموجودات قامت عليها -أو انْبنتْ- أقسامٌ لغوية عرفت باسم المجالات أو الحقول ، هذه الحقول تضم أسماء الأشياء وأسماء صفاتها وأفعالها وأسماء حالاتها المختلفة ، فالذكر والأنثى من كلّ شيء لكل منهما اسمه ، والنسل من كل شيء له اسمه منذ يولد ومرورًا بشتى مراحل حياته ، وكذلك حركات الكائنات لها أسماؤها، ولا ينبغى فى الاستعمال الحقيقى أن يطلق على شيء ما اسمُ شيء آخر ، أو اسم حركته أو صفة من صفاته أو فعل من أفعاله ، هذا هو المنطق الأغلب على اللغة ،ففى الأصوات : الأسد يزأر ، والكلب ينبح ،والثور يخور ، والذئب يعوى . . وهكذا. وفى الحركات: الحمامة تطير ، والسمكة تسبح ، والثعبان يزحف - أو ينساح على الأرض ، والإنسان يمشى . وفى العضو الذى يمشى عليه الكائن : الإنسان له قدم ، والحصان له حافر ، والجمل له خفّ ، والبقرة لها - ظلف . . والإنسان له شفة ، والبعير له مشفر ، والفرس له جَحْفَلَة . .

وولد الإنسان طفلٌ ، وولد الطائر فرخٌ ، وولد السّباع جَرْو .. وهكذا تتنزّل مفردات اللغة بحسب مفردات العالم وتنقسم بانقسامها إلاّ فى حالات قليلة، ونحن نذكر أن اللغة تتعامل -فى جمع الأسماء مثلا- مع العاقل بطريقة ومع غيرالعاقل بطريقة أخرى ، وكذلك فى الأسماء الموصولة وأسماء الاستفهام .. وهكذا .

ما السرُّ وراء هذه الجولة من الحديث عن المجالات الدلاليّة التى قلنا إن مبناها على الأقسام الطبيعية للكائنات ؟ ، ولو أردنا الدقة لكان السؤال هو : ما علاقة الحديث فى هذه المجالات بموضوع المجاز؟ والجواب : إنها علاقة أساسية، لأن عملية التجوّز إنما تحدث حين يقع التماسّ أو التداخل بين المجالات الدلالية - التى هى صدى للأقسام الطبيعية للأشياء .. خذ مثلا الشاعر الذى يتشوّق لأولاده بسبب بُعد المسافة بينه وبينهم، وقد نظر إلى حمامة تَهْدِل (الهَديل هو صوت الحمام) على غصنها أمام عشها وفراخها ،وإلى جوارها إلْفها - أى زوجها - وقد قَرَن بين حاله فى بُعده عن أبنائه وحال الحمامة فى قربها من أفراخها . فقال يخاطب الحمامة :

ألاَ ياحَمامَ الأيْك إلْفُكَ حاضِرٌ   وغصنُكَ ميّادٌ ، ففيمَ تنوحُ؟
وناحتْ وفرْخاها بحيثُ تراهُما   ومِنْ دونِ **أفراخى** مهامهُ فِيحُ

فلنلاحظ أن الشاعر استعمل كلمة (الفرخ) مرتين .. إحداهما بصيغة المثنّى مضافة للحمامة الغائبة (فرخاها) والأخرى بصيغة الجمع مضافة إلى الشاعر المتكلم (أفراخى) ، وسندرك على الفور أنه استخدم الكلمة فى تسمية (أطفال) الحمامة وأطفاله . وانطلاقا مما سبق قوله عن المجالات الدلاليّة نجد أن استعمال كلمة فرخ اسما (لطفل) الحمامة هو الاستعمال الحقيقى بينما يكون استعمالها مع أطفال الشاعر استعمالا مجازيًا ، والسبب أننا أطلقنا اسم كائنٍ من مجال معين على كائن من مجال آخر .

الشاعر المخضرم المعروف بـ(الحُطَيْئَة) سجنه الخليفة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) عقابا له على هجائه لبعض الناس ظلما ،فراح الحطيئة يستعطف الخليفة ذاكرًا أنه ترك أبناءه الصغار بلا عائل ولا معين . يقول للخليفة:

ماذا تقول لأفراخ بذى مَـرَخٍ زُغْبِ الحواصل لاماءٌ ولا شجرُ
ألقيتَ كاسبَهم فى قَعْر مُظلمـةٍ فاغفرْ عليك سلام اللهِ ياعمـرُ

و (ذو مرخ) اسم المكان الذى كان فيه أبناؤه ، لكنه لم يسمّهم أبناء، لقد سمّاهم أفراخًا، ثم راح يبالغ فى تأكيد التسمية فجعل لهم حواصلَ زغبا - أى نبت فيها الزَّغَب ، وهو الريش الصغير - كناية عن حداثة أعمارهم وإمعانا فى تشبيههم بالطيور .

لقد فعل الشاعر الثانى (وهو أقدم زمنا من الشاعر السابق) ما فعل الأول، أعنى أنه أطلق كلمة (الأفراخ) على الأطفال من البشر ، فعدّ ذلك منه مجازًا - بصرف النظر عن تاريخ ظهور كلمة المجاز - وإنما عُدّ ذلك مجازًا لأنه أطلق اسم كائن من مجال طبيعىّ معيّن على كائن من مجال آخر .

وبوسعنا أن نجد أمثله أخرى كثيرة لهذا الصنيع ، أعنى إطلاق اسم أو صفة لكائن من مجال معين على كائن من مجال آخر ، هذا شاعر سَمَّى الصبىَّ الصغير من بنى الإنسان (توْلبًا) وهو فى الأصل ولد الحمار . يقول الشاعر الجاهلى أوْسُ بن حَجَر يرثى أحد أجواد الجاهلية :

ليبكِكَ الشرْب والمدامةُ والـ ـفتيان طُرّا وطامعٌ طمعَا
وذاتُ هِدْم عارٍ نواشرها تُصمِتُ بالماءِ تَوْلبًا جَدِعَا

فهو يذكر امرأة بائسةً فقيرة ممّن كان يحسن إليهنّ ذلك المرثىّ ، فهى تتذكّره دائما كلما أحسّت الحاجة وراحت توهم ولدها الصغير الجائع أنها تصنع له الطعام ، وهو فى الحقيقة مجرّد ماء فى إناء وضعته فوق النار ليسكت الصبى،الذى سمّاه الشاعر تَوْلبا ، كما فعل الشاعر الآخر حين قال :

وذكرتُ أهلي بالعـــــرا ء وحاجةَ الشُّعث التَّوالبْ

هذا الشاعر أيضا أطلق (التوالب) - جمع تَوْلب - على الصِّبية الصغار ليصوّر سوءَ حالهم ورثاثة هيئتهم ، بعـد أن وصفهم بأنهم (شعث) - جمع أشعث ، وهو المتسخ البدن السّيّئ الهيئة .

شاعر آخـر سمّى قدم الإنسان (حافـرا) - والحافر كمـا هو معروف يكون لبعض الدواب كالحـصان والحمار والبـغل ، الشاعر هنا يفتخـر بكرمه ، وبأنه مقصـد المحتاجين والغـرباء الذين أضرّ بهم طولُ السفر ، الشـاعر هو جُبَـيْهاءُ الأشجعى ، واسمـه يزيد بن خيْثمة ، شاعـر بَدوىّ من الدولة الأموية ، يقول واصفا قدوم طارق مجهد سيئ الحال عليه ليلا :

وأشعث مسترخي العلابىّ طَوّحتْ به الأرض من بادٍ عريض وحاضـر

فما رقد الولدانُ حتى رأيتُـــــه على البكر يَمْريه بساق وحافـــر

فقلتُ له: أهلا وسهلاً ومرحبـــا بهذا المحيّا من مُحيٍّ وزائـــــر

فالضيف يَمْـرِى بعيرَه ، أى يحثُّه على السيـر والإسراع نحو النار ، وهو يحثّه بتحـريك ساقه وقدمـه - أو ساقيه وقـدميه - يضرب بهـما جنبي البعيـر حتى يُسْـرع، لكن الشاعـر قال (يمريه بسـاق وحافر) بدلا من : بسـاق وقـدَم، فاستعمل (الحافر) وهو ليس للإنسـان - بدلا من القدم - مجازا طبعا ، قاصداً إلى وصفه بالخشونة وسوء الحـال بسبب طول سفره فى الصحراء . وإنما حكمنا هنا بالمجاز لأن الشـاعر استخـدم كلمة تخصّ مجـالا معينا فى مجـال آخر ، استخدم كلمة (الحافر) التى تخصّ فصيلة معينة من الحيوان فى مجال الإنسان ، معبّرا بها عن القدم .

ومن النماذج الطريفة التى توسّل فيها الشعراء باستخدام الكلمات من مجال معين فى مجـال آخر بقصد السخـرية والإضحاك ما جاء عند أحـمد شوقى فى مسرحيـته (مصرع كليوباتره) على لسان أحـد أشخاص المسرحيّة موجِّـها حديثه إلى شخص آخر ساخرًا منه :

إذا ما **نفقتَ** **ومات** الحمـا ... رُ أبينكَ فرقٌ وبينَ الحمارْ؟

المجاز فى هذا البيت هو وسيلة السخرية والإضـحاك ، ذلك أن الشاعر استعمل الفعل (نفق) مع الإنسـان والفعل (مات) مع الحيوان - الحـمار- مع أن العكس هو الصحـيح من الوجهـة اللغويّة السليـمة ، فنحن نقول (نفـقت الدّابة تنفُق نفوقا : بمعنى ماتت) ونقول (مات فلان رحمه الله) ،وتحدث المفارقة ، وتتحقق السخـرية والإضحـاك حين يطلق كلّ من الفعلـيْن على المجال الخاصّ بـالفعل الآخر .

المجاز الدلالى- أو التجـوّز فى الدلالة - واحد من محورين يقوم عليـهما البحث فى (علم البيان) أما المحور الآخر فهو الكناية .

إذا كان مبنى المجاز يقوم على المفارقة الدلاليّة فإنّ للكناية مَبنى مخالفا يقوم على التلازم بين معنى الكلمة أو العبـارة التى يُطلقها المتكلم والمعنى الذى ننتقل إليه والذى هو المراد من ورائها، ومن هنا اختلف الموقف بينهما من المعنى الأول للعبارة أو الكلمـة المستعملة ، فبينمـا يُصَرف الذهن تماما عن المعنى الأول فى حالة المجاز، حيث يستحـيل الجمع بينه وبين المعنى الثاني، أو - بعبارة أخري- تستحيل إرادة المعنيين فى حالة المجاز، نجد أنه لا مانع -فى حالة الكناية- من الجمع بين المعنى الثانى والمعنى الأول ، أى لا مانع من إرادة المعنيين، وهذا هو محور الفـرق بين النوعين؛ فنحن فى المجاز نستنتج المعنى الثانى بفعل اسـتحالة إرادة المعنى الأول ، بينمـا نحن فى الكناية نستـخرج المعنى الثانـى من حقيـقة وجوب المعنى الأول . . . وهذه مسألة قد نزيدها تفصيلا فيما بعد .

فى المجاز اللغوى والعقلى عند عبد القاهر

من كتاب (أسرار البلاغة)

فصل

الحقيقة والمجاز فى المفرد

واعلم أن حدَّ كلٍّ واحد من وصْفَىْ المجاز والحقيقة - إذا كان الموصوف به المفرد - غيرُ حدِّه إذا كان الموصوفُ به الجملةَ، وأنا أبدأُ بحدِّهما فى المفرد: كلُّ كلمةٍ أُريدَ بها ما وقعتْ له فى وضعِ واضعٍ - وإن شئتَ قلتَ : فى مواضعَةٍ - وقوعًا لا تستند فيه إلى غيره **فهى حقيقة**. وهذه عبارة تنتظم الوضعَ الأول وما تأخر عنه: كلغة تحدث فى قبيلةٍ من العرب أو فى جميع العرب أو فى جميع الناس مثلاً، أو تحدث اليوم . ويدخل فيه الأعلام منقولةً كانت كزيد وعمرو ، أو مرتجلةً كغَطَفَان. وكل كلمة استؤْنف لها على الجملة مواضعةٌ أو ادُّعِىَ الاستئنافُ فيها .

وإنما اشترطت هذا كلَّه لأنَّ وصفَ اللفظة بأنها حقيقةٌ أو مجازٌ حكمٌ فيها من حيث إن لها دلالةً على الجملة ، لا من حيث هى عربيةٌ أو فارسيَّةٌ أو سابقةٌ فى الوضع أو مُحْدثَةٌ مولَّدة ، فمن حق الحدِّ أن يكون بحيث يجرى فى جميع الألفاظِ الدالَّةِ .

وأمَّا المجازُ فكل كلمة أُرِيدَ بها غيرُ ما وَقَعَتْ له فى وضع واضعها لملاحظة بين الثَّانى والأول فهى مجاز ، وإن شئتَ قلتَ : كلُّ كلمة جُزْتَ بها ما وقعت له فى وضع الواضع إلى ما لم تُوضعْ له من غير أنْ تستأنف فيها وضعًا لملاحظةٍ بين ما تُجُوِّزَ بها إليه وبين أصْلها الذى وُضعت لهُ فى وضع واضعها فهى مجاز . ومعنى الملاحظة هو أنها تستند فى الجملة إلى غَير هذا الذى تُريده بها الآن، إلا أنَّ هذا الاستناد يقوى ويضعُف. بيانُهُ مَامَضَى من أنَّك

إذا قلتَ « رأيتُ أسدًا » تريد رجلاً شبيهًا بالأسد، لم يشتبه عليكَ الأمرُ فى حاجة الثانى إلى الأول، إذ لايُتَصوَّر أن يقع الأسدُ للرجل على هذا المعنى الذى أرَدْته على التشبيه على حدِّ المبالغة وإيهام أنَّ معنًى من الأسدَ حصُل فيه إلاَّ بعد أن تجعلَ كونه اسمًا للسبع إزاء عينيك ، فهذا استنادٌ تعلمُه ضرورةً ، ولو حاولت دفعه عن وهمك حاولتَ مُحالاً، فمتى عُقِلَ فَرعٌ من غيز أصل ومشبَّهٌ من غير مشبَّهٍ به؟ وكلُّ ما طريقُه التشبيه فهذا سبيلُهُ ، أعْنى كلَّ اسمٍ جرى على الشىء للاستعارة فالاستناد فيه قائم ضرورةً .

. . . .

فصل

الحقيقة والمجاز فى الجملة

والذى ينبغى أن يذكر الآن حدُّ الجملة فى الحقيقة والمجاز ، إلا أنك تحتاج أن تَعرفَ فى صدرِ القول عليها ومقدمتِه أصلا ، وهو المعنى الذى من أجله اختصت الفائدة بالجملة ، ولم يَجُزْ حصولها بالكلمة الواحدة كالاسمِ الواحدِ والفعلِ من غير اسمٍ يُضَمُّ إليه . والعلَّةُ فى ذلك **أنَّ مدار الفائدة فى الحقيقة على الإثبات والنفى** . ألاَ ترى أنَّ الخبرَ أوَّلُ معانى الكلامِ وأقدمُها والذى تستند سائرُ المعانى إليه وتترتبُ عليه ، وهو ينقسم إلى هذين الحُكْمَيْن. وإذَا ثبتَ ذلك فإن الإثبات يقتضى مُثْبِتًا ومُثْبَتًا له ، نحو أنك إذا قلت «ضَرَبَ زَيْدٌ» أو « زَيْدٌ ضَارِبٌ» فقد أثبتَّ الضربَ فعلاً أو وصْفًا لزيد ، وكذلك النفىُ يقتضى مَنْفِيًا ،ومنفيًا عنه ، فإذا قلت «مَا ضَرَبَ زَيْدٌ» و «مَا زَيْدٌ ضاربٌ» فقد نفيت الضرب عن زيدٍ وأخرجتَه عن أن يكون فعلاً له ، فَلَمَّا كان الأمرُ كذلك احْتِيجَ إلى شيئين يتعلقُ الإثباتُ والنفىُ بهما ، فيكون أحدهما مُثْبِتًا والآخرُ مثبَتًا لَهُ ، وكذلك يكون أحدهما منفيًا والآخر منفيًا عنه ، فكان ذانك الشيئان

: المبتدأ والخبر، والفعلَ والفـاعلَ، وقيل للمثبَت وللمنفى: مُسْنَدٌ وحديثٌ ، وللمثبَتِ له والمنفيٌ عنه: مسندٌ إليـه ومحدَّثٌ عنه. وإذا رمتَ الفائدَة أن تحصل لك من الاسم الواحـد أو الفـعل وحدَه صـرت كأنـك تطلبُ أن يكون الشىءُ الواحدُ مثبتًا ومثبتًا له ، ومنفيًا ومنفيًا عنه ، وذلك محال .

فقد حَصَل منْ هَذَا أنَّ لكل واحدٍ من حكْمىْ الإثبات والنَّفى حاجةً إلى أن تُقَيِّـدَهُ مرتيْن، وتُعلِّقَـه بشيئـين. تفسيـرُ ذلك أنَّك إذا قلتَ «ضَرَبَ زَيْدٌ» فـقد قصدْت إثباتَ الضـربِ لزيد ، فقولك «إثباتُ الضرب» تقييد للإثبـات بإضافته إلى الضَّرب ، ثم لا يكفيك هـذا التقييد حتى تقـيِّدهُ مرةً أخرى فتـقول «إثبات الضرْبِ لزَيْـد»، فقولك (لزيد) تـقييـدٌ ثان وفى حكم إضافـة ثانية. وكـما لا يتصـور أن يكون ههنا إثبـاتٌ مطلق غيـرُ مقيـد بوجه- أعنى أن يكـون إثباتٌ ولامُثْبت له ولا شىء يقصد بذلكَ الإثبـات إليه لا صفةٌ ولا حكمٌ ولا موهومٌ بوجه من الوجوه - كـذلك لا يُتَصَوَّر أنْ يكونَ ههنا إثباتٌ مـقيدٌ تقيـيدًا واحدًا نحو إثباتِ شىء فـقط دون أن تقول «إثباتُ شىء لشىء» كمـا مضى من إثْبات الضرب لزيد ؛والنفى بهذه المنزلة، فلا يـتصور نَفْىٌ مطلَق ولا نفْىُ شىء فقط، بل تحتاج إلى قيدين كقولك « نفى شىءٍ عن شىء » .

فهذه هى القضيةُ المبرَمة الثابتة التى تزولُ الراسياتُ ولاتزول . ولا تنظر إلى قولهم « فلانٌ يثْبِتُ كذا» أى يدّعى أنه مـوجود و«ينفى كذا» أىْ يقْضى بعدمه، كقولنا « أبُو الحَسَن يُثْبِتُ مثال جُـخْدَب -بفتح الدال- وصاحبُ الكتاب ينفيه » لأن الذى قصدتُه هو الإثباتُ والنفىُ فى الكلام .

. . . .

وإذْ قَـدْ تقرّرتْ هـذه المسائل فـينبـغى أن تعلمَ أنَّ من حـقِّكَ إذا أردتَ أن تقضى فى الجملةِ بمجازٍ أو حقيقة أن تنظر إليها من جهتين : **إحداهما** أن تنظر إلى ما وقع بها من الإثبات أهُو فى حقِّـه وموضعه أم قد زال عن الموضع الذى

ينبغى أن يكون فيه ؟ **والثانية** أن تنظرَ إلى المعنى المثبَت ، أعنى مـا وقع عليه الإثبات كـالحيـاة فى قولك «أحـيا الله زيدًا» والشـيب فى قولك « أشـابَ الله رأسِى» أثابتٌ هو على الحقيقة أم قدْ عُدِلَ به عنها؟ .

أمثلة للمجاز فى الإثبات والمثبت

وإذا مُثّـلَ لك دخولُ المجازِ عـلى الجملةِ من الطريقين عـرفتَ ثباتَهـا على الحقيقة منهما .

فمـثال ما دخله المجـاز من جهة الإثبـات دون المثّبت قوله (من الطويل):

وَشَيَّبَ أيَّامُ الفِرَاقِ مَفَارِقِـــــى   وأَنْشَزْنَ نَفْسِى فَوْقَ حَيْثُ تَكُونُ

وقوله (من المتقارب) :

أشَابَ الصَّغِيرَ وأَفْنَى الكَبِيـ   ـرَ كَرُّ الغَدَاةِ ومَرُّ العَشِـــىّ

المجازُ واقعٌ فى إثـبات الشيْب فـعلاً للأيام ولِكَرِّ الليـالى، وهو الذى أُزيلَ عن موْضـعه الذى ينبغى أن يكون فـيه ، لأن من حق هذا الإثبـات - أعنى إثباتَ الشَّيْبِ فعلاً- أنْ لا يكونَ إلاَّ مع أسمـاء الله تعالى، فليس يَصِحُّ وُجُودُ الشيب فعـلاً لغيـر القديم سبـحانه ، وقـد وُجِّهَ فى البيـتين كمـا ترى إلى الأيام وكر الليالى، وذلك ما لاَ يَثْبُتُ له فعلٌ بوجه، لا الشيب ولاغير الشيب. وأما المثبتُ فلمْ يقعْ فيه مجاز لأنه الشيب، وهو موجود كما ترى . وهكذا إذا قلت «سرَّنى الخبـرُ» و « سرَّنى لقاؤُك» ، فـالمجاز فى الإثباتْ دون المثـبت ، لأنَّ المثبتَ هو السرور وهو حاصل على حقيقته .

ومثالُ ما دخل المجازُ فى مُـثْبَتِه دون إثباته قولُه عز وجل ﴿ أَوَمَنْ كان مَـيْتًا فَأَحْـيـيْنَاهُ وجعلنا له نورًا يَمْـشِى بِهِ فى الناس﴾ وذلك أن المعنى والله أعلم على أنْ جُعِل العلمُ والهـدى والحكمة حياةً للقلوب ، على حـدِّ قوله عزَّ وجل ﴿وكذلِكَ أوْحَيْنَا إليكَ روحًا من أمْرِنا﴾ ، فـالمجازُ فى المثْبَت وهو الحياة،

فأمَّا الإثباتُ فواقعُ على حقيقته لأنه يَنْصَرِفُ إلى أنَّ الهدى والعلمَ والحكمةَ فضلٌ من الله وكائنٌ من عنده . ومن الواضح فى ذلك قولُه عز وجل ﴿فأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾ وقوله: ﴿إنّ الذى أَحْيَاهَا لَمُحْيِي المَوْتَى﴾ جعل خضرةَ الأرض ونُضْرتها وبهجتَهَا بما يُظْهِرُهُ اللهُ تعالى فيها من النَّبات والأنوار والأزهار وعجائبِ الصُّنع حياةً لها ، فكان ذلك مجازًا فى المُثْبَت، من حيثُ جَعَلَ ما ليس بحياة حياةً على التشبيه ، فأمَّا نفسُ الإثبات فمحضُ الحقيقة، لأنه إثبات لما ضُرب الحياةُ مثلاً له فعلاً لله تعالى ، ولا حقيقة أحقّ من ذلك .

وقد يُتَصَوَّر أن يدخل المجازُ الجملةَ من الطريقين جميعًا، وذلك أن يُشبَّه معنى بمعنى وصفةٌ بصفة فيستعار لهذه اسمُ تلك ثم تُثْبَتُ فعلاً لما لا يصحُّ الفعلُ [مطلقًا] منه، أو فعلُ تلك الصفة [على وجه الخصوص]، فيكون أيضًا فى كل واحدٍ من الإثباتِ والمُثْبَتِ مجاز ، كقول الرجل لصاحبه « أحْيَتْنى رُؤْيَتُك» يريد آنستْنى وسَرَّتْنى ونحوه، فقد جعل الأُنْسَ والمَسَرَّةَ الحاصلة بالرُّؤْية حياةً أوّلاً ثم جعل الرؤيةَ فاعلة لتلك الحياة . وشبيه به قولُ المتنبى (من الطويل) :

وَتُحْيِي لَهُ المالَ الصَّوَارِمُ والقَنَا ... وَيَقْتُلُ ما تُحيِي التَّبَسُّمُ والجَدَا

جَعَل الزيادةَ والوفُورَ حَياةً فى المال ، وتفريقَه فى العطاء قَتْلاً . ثم أثبتَ الحياةَ فعلاً للصوارم ، والقتلَ فعلاً للتبسُّم، مع العلم بأن الفعلَ لا يصحُّ منهما . ونوع منه « أهلكَ الناسَ الدينارُ والدِّرْهم» جعل الفتنةَ هلاكًا على المجاز ثم أثبت الهلاكَ فعلاً للدينارِ والدِّرهم وليسا مما يفعلان ، فاعرفه .

وإذْ قَدْ تبين لك المنهاجُ فى الفَرْقِ بين دخولِ المَجازِ فى الإثباتِ وبين دخوله فى المُثْبَت وبين أن ينتظمَهُمَا، وعرفت الصورةَ فى الجميع ، فاعلم **أنه إذا وقع [المجاز] فى الإثبات فهو متلقّى من العقل ، وإذا عرض فى المُثْبَت فهو مُتَلَقّى من اللغة**، فإن طلبتَ الحُجَّةَ على صحة هذه الدعوى

فإن فيـما قدمتُ من القول مـا يبيِّنها لك ويختـصر لك الطريق إلى معرفـتها ، وذلك أنَّ الإثبات إذا كان من شرطه أن يُقَيَّد مرتين كقولك « إثباتُ شيء لشيء» ولزم من ذلك أن لا يحـصل إلاَّ بالجملة التى هى تأليـفٌ بين حَدِيثٍ ومـحدَّثٍ عنهُ ومُسْنَدٍ ومُسْنَد إليـه علمت أن مأخذه العقلُ وأنه القاضى فـيه دون اللغة ، لأن اللغـة لم تأْت لتـحكم بحكم ، أو لِتُـثْـبِتَ وتَنْفَى وتنقضَ وتبـرم ، فـالحكم بأنَّ الضرب فـعل لزيد أو ليس بفـعل له،وأن المرض صفـةٌ له أو ليس بصفة له شيء يَضَعُهُ المتكلم ، ودعوى يدَّعـيها، وما يعترض على هذه الدعوى من تصديق أو تكذيب واعترافٍ أو إنكارٍ وتصحيح أو إفـساد فهو اعتراض على المتكلم ، وليس اللغةُ من ذلك بسبيل ولا منه فى قليلٍ ولا كثير .

وإذا كان كـذلك كان كل وصف يسـتحـقه هذا الحكم من صـحة وفـساد وحقيـقة ومجاز واحـتمال واستحـالة فالمرجعُ فيه والوجـهُ إلى العقل المَحْضِ ، وليس للغة فيـه حظ، فلا تُحْلِى ولا تُمِرّ ، والعربىّ فـيه كالعَجَـمى والعجمى كالتركى ، لأن قضـايا العقولِ هى القواعد والأسُسُ التى يُبنى غـيرُها عليها ، والأصول التى يُردُّ ماسواها إليها .

فأمَّا إذا كان المجـاز فى المُثْبَت كَنَحْوِ قولِه تعالى : ﴿ فَـأَحْيَيْنَا به الأرضَ﴾ فإنَّما كـان مأخذه اللغة، لأجل أنَّ طريـقةَ المَجازِ بأن أجْرَى اسمَ الحيـاة على ما ليس بحياة تشبيهًا وتمثيلاً ثم اشتق منها - وهى فى هذا التقدير- الفعلَ الذى هو (أحيـا) واللغة هى التى اقـتضت أن تكون الحـياةُ اسمًـا للصفـة التى هى ضد الموت، فإذا تُجُوِّز فى الاسم فأُجْرِىَ عَلَى غيرِها، فالحديثُ مع اللُّغة فاعرفه

. . . .

صورة أخرى للإسناد :

ومما يجب أن تعلـم فى هذا البـاب أنّ الإضـافـةَ فى الاسم كـالإسنادِ فى الفعل، فكلُّ حكم يجب فى إضافة المصدر من حقيقة أو مجاز فهو واجب فى إسناد الفعل. فـانظر الآن إلى قولك « أعـجبنى وَشْىُ الربيع الرياضَ وصـوْغُهُ

تِبْرَها وحَوْكُهُ ديباجَها » هل تعلم لك سبيلاً فى هذه الإضافات إلى التعلق باللغة وأخذ الحكم عليها منها أم تعلم امتناع ذلك عليك ؟ وكيف والإضافةُ لا تكون حتى تستقر اللغة، **ويستحيلُ أن يكون للغة حكمٌ فى الإضافة** ورسمٌ حتى يُعلم بها أن حقَّ الاسم أن يُضاف إلى هذا دون ذلك . . وإذا عرفتَ ذلك فى هذه المصادر التى هى الصَّوْغُ والوَشْىُ والحَوْك فَضَعْ مصدر فَعَلَ الذى هو عمدتك فى سؤالك وأصل شبهتك موضعها وقُلْ « أما ترى إلى فِعْلِ الربيع لهذه المحاسن » ثم تأمل هل تجد فصلا بين إضافته وإضافة تلك ، فإذا لم تجد الفصل ألبتّةَ فاعلم صحةَ قضيتنا وانفض يدك بمسألتك ودعْ النزاع عنك ، وإلى الله تعالى الرغبة فى التوفيق ....

....

....

فصل

انقسام المجاز إلى لغوى وعقلى

واعلم أنَّ المجازَ على ضربين : **مجازٌ من طريق اللغة ومجازٌ من طريق المعنى والمعقول** ، **فإذا وصفنا بالمجاز الكلمةَ المفردةَ** كقولنا «اليد مجاز فى النعمة»[(١)] و «الأسد مجاز فى الإنسان وكل ما ليس بالسبع المعروف»[(٢)] كان حكمًا أجريناه على ما جرى عليه من طريق اللغة، (لأنا أردنا أن المتكلم قد جاز باللفظة أصلَها الذى وقعت له ابتداءً فى اللغة وأوقعها على غير ذلك إما تشبيهًا وإما لصلة ومُلابسةٍ بين ما نقلها إليه وما نقلها عنه)[(٣)] .

(١) مثاله : له عندى يدٌ تجلّ عن الشكر، و أسدَى إلىّ يدًا لا تُنسَى .

(٢) مثاله : سلّمتُ على أسد فى صدْر المجلس .

(٣) الفقرة التى بين قوسين تحمل إحساس عبد القاهر ، بل علمَه ، بالفرق بين تجوّز يقوم على المشابَهة وآخر يقوم على (صلة وملابسة) وهى الملاحظة التى استند إليها أصحاب التفرقة فى المجاز اللغوى بين الاستعارة ،والمجاز المرسل .

ومتى وصفنا بالمجاز الجملةَ من الكلام كان مجازًا من طريق المَعْقول دون اللغة، وذلك أن الأوصاف اللاحقةَ للجمل من حيث هى جمل لا يصح رَدها إلى اللغة ولا وجهَ لنسبتها إلى واضعها ، لأن التأليف هو إسناد فعلٍ إلى اسم أو اسمٍ إلى اسم ، وذلك شىء يحصل بقصد المتكلم، فلا يصير (ضرب) خبرًا عن زيد بواضع اللغة بل بمن قصد إثبات الضرب فعلا له، وهكذا «ليضربْ زيدٌ» لا يكون أمرًا لزيد باللغة ولا «اضربْ» أمرًا للرجل الذى تخطابه وتقبلُ عليه من بين كل ٍ من يصح خطابُه باللغة بل بك أيها المتكلم. فالذى يعود إلى واضع اللغة أنَّ (ضَرَبَ) لإثبات الضرب وليس لإثبات الخروج، وأنه لإثباته فى زمانٍ ماضٍ وليس لإثباته فى زمانٍ مستقبل ، فأما تعْيِينُ من يَثْبُتُ له فيتعلق بمن أراد ذلك من المخبرين بالأمور ، والمعبِّرين عن ودائع الصدور ، والكاشفين عن المقاصد والدعاوى صادقةً كانت تلك الدعاوى أو كاذبة ومجراةً على صحَّتها ، أو مُزَالَةً عن مكانها من الحقيقةِ وجِهتها، ومطلقةً بحَسَبِ ما تأذنُ فيه العقول وترسمُهُ أو معدُولاً بها عن مراسِمها نظمًا لها فى سِلْكِ التَّخْيِيل، وسُلُوكًا بها فى مذهب التأويل .

فإذا قلنا مثلاً «خَطٌّ أحسنُ ممَّا وَشَّاه الربيع» ، أو «صنَعَه الربيع» كُنَّا قد ادَّعَيْنا فى ظاهر اللفظ أن للربيع فعلاً أوْ صُنْعًا وأنَّه شارك الحىَّ القادرَ فى صحة الفعل منه وذلك تَجَوُّزٌ من حيث المَعْقُول لا من حيثُ اللغة. لأنه إن قُلنَا إنه مجازٌ من حيث اللغة صِرْنا كأنَّا نقول : إن اللغة هى التى أوجبَتْ أن يَخْتَصَّ الفعلُ بالحَىِّ القادر دون الجماد ، [ولو أنها] حكمتْ بأنَّ الجماد يصحّ منه الفعل والصنْعُ والوشْىُ والتَّزْيين، والصبْغُ والتحسين لكان ما هو مجاز الآن حقيقةً ولعادَ ماهو الآن متأوَّلٌ ، معدودًا فيما هو حقٌّ محصَّل ، وذلك محال . وإنما يُتَصوَّر مثلُ هذا القول فى الكلم المفردة نحو اليد للنعمة، وذاك أنه يصحُّ أن يقال : لو كان واضعُ اللغة وضعَ اليَدَ أوَّلاً للنعمة ثم عَدّاها إلى الجارحة لكان حقيقةً فيما هو الآن مجاز ومجازًا فيما هو حقيقة . فلم يكن بواجب من حيث

المعقول أن يكون لفظ اليد اسمًا للجارحة دون النعمة ، ولا فى العقل أنَّ شيئًا بلَفْظ أنْ يكون دليلاً عليه أوْلَى منه بلفظ ، لاسيما فى الأسماء الأُوَل التى ليست بِمُشْتَقَّة .

وإنما وزان ذلك وزانُ أشكال الخَطِّ التى جُعِلَتْ أمارات لأَجْرَاسِ الحروف المسموعة فى أنه لا يُتصوَّر أن يكون العقلُ اقتضى اختصاصَ كُلِّ شكل منها بما اختصَّ به دون أن يكونَ ذلك لاصْطِلاح وقعَ وتواضُع اتفق. ولو كان كذلك لم تختلف المَوَاضَعَاتُ فى الألفاظ والخُطُوط ولكانت اللغاتُ واحدة، كما وجب فى عقل كل عاقل يُحصِّلُ ما يقول أنْ لا يُثبتَ الفعل على الحقيقة إلاَّ للحَىِّ القادر .

وههنا نكتةٌ جامعة وهى أنَّ المجازَ فى مقابلة الحقيقة. فما كان طريقًا فى أحدهما من لغة أو عقلٍ فهو طريقٌ فى الآخر[1] . ولسْتَ تشكُّ فى أنَّ طريقَ كوْن الأسد حقيقةً فى السبع اللغةُ دون العقل ، وإذا كانت اللغة طريقًا للحقيقة فيه وَجَب أن تكون هى أيضًا الطريق فى كونه مجازًا فى المشبَّه بالسبع إذا أنْتَ أجْرَيْتَ اسَم الأسد عليه فقلت « رأيْتُ أسدًا» تريد رجُلا لا تميِّزه عن الأسد فى بسالته وإقدامه وبَطْشه. وكذلك إذا علمتَ أن طريق الحقيقة فى إثبات الفعل للشىء هو العقل فينبغى أن تعلم أنه أيضا الطريقُ إلى المجاز فيه ، فكما أن العقلَ هو الذى دَلَّك حين قلت «فَعَلَ الحىُّ القادر» أنك لم تَتَجَوَّز وأنك واضع قدمك على محض الحقيقة، كذلك ينبغى أن يكون هو الدالُّ والمقتضِى إذا قلت «فعل الربيعُ» أنك قد تجوَّزْتَ وزُلْتَ عن الحقيقة فاعرفه .

---

(١) يتذكَّر هنا ما قلناه فى تقديمنا لمباحث المجاز من انطلاق عبد القاهر فى وصفه للمجازين اللغوى والعقلى من تصوره للحقيقتين اللغوية والعقليّة .

فصل

المجاز الحُكْمى

واعلم أن الكلمةَ كما تُوصَفُ بالمجاز لنقلك لها عن معناها كما مضى فقد توصف به لنقلها عن حكمٍ كان لها إلى حكم ليس هو بحقيقة فيها. ومثالُ ذلك أنَّ المضافَ إليه يكتسى إعراب المضاف فى نحو «واسأل القريةَ» والأصل «واسألْ أهْلَ القَرْيَةِ» فالحكم الذى يجب للقرية فى الأصل وعلى الحقيقة هو الجرُّ ، والنصبُ فيها مجازٌ ، وهكذا قولهم « بَنُو فلانٍ تَطَؤُهُمُ الطَّرِيقُ» يريدون: أهل الطريق، الرفعُ فى الطريقِ مجاز لأنه منقولٌ إليه عن المضاف المحذوف الذى هو الأهل، والذى يستحقه فى أصله هو الجر .

ولا ينبغى أن يقالَ إنّ وَجْهَ المجازِ فى هذا الحَذْفِ، فإن الحذفَ إذا تَجَرَّدَ عن تغيير حكم من أحكام ما بقى بعد الحذف لم يسمَّ مجازًا، ألا ترى أنك تقول «زيدٌ منطلقٌ وعمروٌ » فتحذفُ الخبرَ ، ثم لا تُوصف جملةُ الكلام من أجلِ ذلك [بأنها] مجاز ، وذلك لأنه [أى الحذف] لم يؤدِّ إلى تغيير حكمٍ فيما بقى من الكلام . ويزيده تقريرًا أنَّ المَجَاز إذا كَانَ معناه أنْ تَجُوزَ بالشىء موضعَه وأصله فالحذف بمجرَّده لا يستحق الوصف به ، لأنّ تركَ الذكر وإسقاطَ الكلمة من الكَلاَمِ لا يكُونُ نقلاً لهَا عَنْ أصْلِها، إنما يُتَصوَّرُ النقلُ فيما دَخَلَ تحتَ النطق.

وإذا امتنع أنْ يُوصف المحذوفُ بالمجازَ بَقِيَ القولُ فيما لم يُحْذَفْ. وما لم يحذف ودخل تحت الذكر لا يزولُ عن أصلِه ومكانه حتَّى يُغَيَّر حكمٌ من أحكَامِه أوْ يُغَيَّرَ عن معانيه، فأما وهو على حالِه والمحذوفُ مذكورٌ فَتَوهُّمُ ذلك فيه من أبعدِ المحال فاعرفه .

وإذا صَحَّ امتناعُ أنْ يكونَ مجرَّدُ الحذف مجازًا أو تَحقُّ صفةُ باقى الكلام بالمجاز من أجْلِ حَذْفٍ كَانَ عَلى الإطلاق دُونَ أنْ يحْدُثَ هناك بسبب ذلك

الحذف تغيرُ حكم على وجه من الوجوه - علمتَ منه أن الزيادة فى هذه القضية كالحذف ، فلا يجوز أنْ يُقال إنَّ زيادَةَ (ما) فى نحو «فبما رَحْمَة» مجاز ، أوْ أنَّ جُملةَ الكلام تصير مجازًا من أجل زيادته فيه . وذلك أن حقيقةَ الزيادة فى الكلمة أن تُعَرَّى من معناها وتذكر ولا فائدةَ لها سوى الصلة ، ويكون سقوطُها وثبوتُها سواء، ومحالٌ أن يكون ذلك مجازًا ، لأن المجاز أنْ يُرادَ بالكلمة غيرُ ما وضعتْ له فى الأصل، أو يُزادَ فيها أو يُوهَمَ شىءٌ ليس من شأنها، كإيهَامك بظاهر النَّصْب فى القرية أنَّ السؤالَ واقعٌ عليها . والزائدُ الذى سقوطُه كثبوته لا يُتَصوَّر فيه ذلك .

فأمَّا غيرُ الزائد من أجزاء الكلام الذى زيد فيه فيجبُ أن يُنْظَرَ فيه ، فإنْ حدثَ هناك بسبب ذلك الزائد حكمٌ تزولُ به الكلمةُ عن أصلها جازَ حينئذ أن يوصف ذلك الحكم أو ما وقع فيه بأنه مجاز، كقولك فى نحو قوله تعالى: ﴿ليس كمِثْله شىءٌ﴾ إنّ الجرَّ فى الْمِثلِ مَجَازٌ لأنَّ أصلَه النصب ، والجرُّ حكم عَرَضَ من أجْلِ زيادة الكاف، ولو كانوا إذْ جعلوا الكافَ مزيدةً لَمْ يُعْمِلُوها لَمَا كان لحديث المجاز سبيلٌ على هذا الكلام. ويزيده وضوحًا أن الزيادة على الإطلاق لو كانت تستحقُّ الوصف بأنها مجازٌ لكان ينبغى أن يكون كلُّ ما ليس بمزيد من الكَلِمِ مستحقًا الوصفَ بأنه حقيقة، حتى يكون الأسدُ فى قولك «رأيت أسدًا» وأنت تريد رجلاً، حقيقةً .

فإنْ قلت : المجازُ على أقسام ، والزيادةُ من أحدها - قيل : هذا لك إذا حدَّدْتَ المجاز بحَدٍّ تدخل الزيادةُ فيه ، ولا سبيل لك إلى ذلك لأن قولنا (المجاز) يفيد أن تُجوزَ بالكلمة موضعَها فى أصلِ الوضع وتنقُلَهَا عن دلالة إلى دلالة أوْ ما قارب ذلك .

وعلى الجملة فإنه لا يُعقَل من المجاز أن تَسْلبَ الكلمةَ دلالتَها ثم لا تُعطيها دلالةً وأن تُخْليها من أنْ يُراد بها شىءٌ على وجه من الوجوه . ووصف اللفظة بالزيادة يفيد أنْ لا يُراد بها معنى وأنْ تُجعَل كأنْ لَمْ يكن لها دلالةٌ قط.

فإن قلتَ : أوَ ليس يُقال إنَّ الكلمةَ لا تَعْرَى من فائدة مًّا ولاتَصير لغوًا على الإطلاق حتى قالوا : إن (ما) فى نحو « فَبِما رَحْمَةٍ مِّن الله » تفيد التوكيد؟ فأنا أقول : إن كون (ما) تأكيدًا نقلٌ لها عن أصلها ومجازٌ فيها، وكذلك أقول إنَّ كون الباء المزيدة فى «لَيْسَ زيدٌ بخَارجٍ» لتأكيد النفى مجازٌ فى الكلمة، لأنَ أصلها أنْ تكون للإلصاق . . . فإنّ ذلك على بعده لا يقدح فيما أردتُ تصحيحَه ، لأنه لا يُتَصَوَّر أن تَصفَ الكلمة من حيث جُعلت زائدةً بأنها مجاز ، ومتى ادّعَيْنَا لها شيئًا من المعنى فإنَّا نجعلها من تلك الجهة غيرَ مزيدة .

واعلم أنَّ من أُصول هذا الباب **أنّ من حق المحذوف أو المزيد أنْ يُنْسَب إلى جملة الكلام لا إلى الكلمة المجاورة له** ، فأنت تقول إذا سُئلتَ عن «سَلِ القرية» : فى الكلام حذفٌ ، والأصل «أهلَ القرية» ثم حُذفَ الأهل، تعنى حُذِفَ مِنْ بين الكلام. وكذلك تقول : الكاف زائدة فى الكلام والأصل «ليس مثله شىءٌ» . ولا تقول : هى زائدة فى (مثل) إذ لو جاز ذلك لجاز أن يقال : إنّ (ما) فى «فَبِمَا رَحْمَةٍ» مزيدةٌ فى الرحمة أو فى الباء ، وأن (لا) مزيدةٌ فى (يعلم)[1] وذلك بيِّن الفساد، لأن هذه العبارة إنما تصلح حيثُ يُراد أنَّ حرفًا زيد فى صيغة اسم أو فعل على أنْ لا يكون لذلك الحرف على الانفراد معنى ولا تعدّه وحدَه كلمةً كقولك : زيدت الياء للتصغير فى (رُجَيْل) والتاء للتأنيث فى (ضاربة) . ولوجاز غير ذلك لجاز أنْ يكون خبرُ المبتدأ إذْ حُذِفَ فى نحو «زيدٌ منطلقٌ وعمرو» محذوفًا من المبتدأ نفسه على حدّ حذف اللام من يد ودم[2]، وذلك مالا يقوله عاقل . فنحن إذا قلنا إن الكاف مزيدةٌ فى (مثل) فإنما نعنى أنها لَمَّا زِيدَتْ فى الجملة وُضِعَتْ فى هذا الموضع منها ، والأصحُّ فى العبارة أن يُقال: الكاف فى (مثل) مزيدة ، يعنى الكاف الكائنة فى (مثل) مزيدة، كما تقول : الكاف التى تراها فى (مثل) مزيدة. وكذلك تقول :

(١) فى قوله تعالى ﴿ لِئَلاَّ يعْلَمَ أهلُ الكتاب﴾ الحديد ٢٩ .

(٢) أى الحرف الثالث من الكلمة ، لأن أصل (يدٌ) و (دمٌ) : يَدَىٌ ودَمَىٌ.

حُذفَ المضافُ من الكلام، ولا تقول : حُذفَ المضافُ من المضاف إليه . وهذا أوضح من أن يخفى ، ولكنى استقصيْته لأنى رأيتُ فى بعض العبارات المستعملة فى المجاز والحقيقة ما يوهم ذلك فاعرفه .

من الأسباب الداعية إلى تقدير المجاز فى الإسناد

وممَّا يجب ضبطُه هنا أيضًا أنَّ الكلامَ إذا امتنع حملُه على ظَاهرِه حتى يدْعو إلى تقدير حذف أو إسقاط مذكور كان على وجهين :

أحدهما: أن يكونَ امتناعُ تركه على ظاهره لأمر يرجع إلى غرض المتكلم، ومثاله الآيتان المتقدِّم تلاوتُهما[1] ، ألا ترى أنَّك لو رأيت «سل القرية» فى غير التنزيل لم تقطع بأنَّ ههنا محذوفًا لجواز أن يكون كلامَ رجل مَرَّ بقرية قد خربت وبادَ أهْلُها فأراد أن يقول لصاحبه واعظًا ومذكّرًا أو لنفسه متّعظًا ومعتبرًا «سل القريَة عن أهلها وقُلْ لها ما صنعوا» على حدِّ قولهم «سَل الأرضَ من شَقَّ أنهارَك، وغرسَ أشجارَك، وجنى ثمارك، فإنها إنْ لم تجبْك حوارا، أجابتْكَ اعتبارًا» ، وكذلك إن سمعتَ الرجل يقول «ليس كمثل زيد أحدٌ» لم تقطع بزيادة الكاف وجوَّزْتَ أن يريد : ليسَ كالرجلِ المعروف بمماثَلَة زيد أحدٌ .

والوجه الثانى : أن يكونَ امتناع تَرْكِ الكلام على ظاهره ولزومُ الحكمِ بحذف أوْ زيادة من أجل الكلام نفسه لا مِنْ حيثُ غرض المتكلِّم به ، وذلك مثل أن يكون المحذوفُ أحدَ جُزْءَىْ الجملة كالمبتدإ فى نحو قوله تعالى : ﴿فَصَبْرٌ جميلٌ﴾ وقوله : ﴿مَتَاعٌ قَليل﴾ لابدّ من تقدير محذوف ولا سبيل إلى أن يكون له معنى دونه ، سواء كان فى التنزيل أوْ فى غيره ، فإذا نظرت إلى «صَبْرٌ جَميل» فى قول الشاعر : (من الرجز) :

يَشْكُو إلىَّ جَمَلِى طُولَ السُّرَى ... صَبْرٌ جَميلٌ فكلاَنَا مُبْتَلَى

وجدته يقتضى تقدير محذوف كما اقتضاه فى التنزيل ، وذلك أنَّ الداعىَ إلى تقدير المحذوف ههنا هو أنّ الاسم الواحد لا يفيد، والصفةُ والموصوفُ حكمُهما حكمُ الاسم الواحد، و (جميل) صفة للصبر. وتقول للرجل « من هذا؟»

(١) يقصد قوله تعالى ﴿اسأل القرية﴾ يوسف ٨٢. وقوله ﴿ليس كمثله شىء﴾ الشورى ١١ .

فيقول (زيد) يريد : هو زيد ، فتجد هذا الإضمار واجبًا لأن الاسم الواحد لا يُفيد ، وكيف يُتصوَّر أن يفيدَ الاسم الواحد ومدارُ الفائدة على إثباتٍ أو نفيٍ وكلاهما يقتضى شيئين : مُثْبَت ومثْبت له ومنفيّ ومنفيّ عنه .

وأما وجوب الحكم بالزيادة لهذه الجهة فكنحو قولهم « بِحَسْبِكَ أنْ تَفْعَل» و«كَفَى بِالله» . إن لم تقض بزيادة الباء لم تجد للكلام وَجْهًا تصرفه إليه، وتأويلا تَتَأوَّلُهُ عليه الْبَتَّةَ، فلابد لك من أن تقول : إن الأصل «حسبك أن تفعل» و «كفى اللهُ» وذلك أنَّ الباء إذا كانت غيرَ مزيدة كانت لتعديَةِ الفعل إلى الاسم وليس فى « بِحَسْبك أنْ تفعل» فعلٌ تعدِّيه بالباء إلى حسبك. ومن أين يُتَصَوَّرُ أن يتعدى إلى المبتدأ فعلٌ والمبتدأ هو المُعَرَّى من العوامل اللفظية ؟ وهكذا الأمر فى (كفى) أو أقوى ، وذلك أنَّ الاسمَ الداخلَ عليه الباء ، فى نحو «كفى بزيد» فاعل (كفى) ومحال أن تعدِّىَ الفعلَ إلى الفاعل بالباء أو غير الباء ، ففى الفعل من الاقتضاء للفاعل ما لاحاجة معه إلى متوسط وموصِّل ومعدٍّ فاعرفه والله أعلم بالصواب .

ولا يتلخَّص لك الفصل بين الباطل وبين المجاز [فى الإسناد] حتى تعرفَ حدَّ المجاز ، وحدُّه أنَّ كلَّ جملةٍ أخْرجت الحكمَ المفادَ بها عن موضعِهِ من العقل لضربٍ من التَّأوُّل فهى مجاز .

ومثاله ما مضى من قولهم « فَعَلَ الربيعُ » وكما جاء فى الخبر « إنَّ ممّا ينبتُ الربيعُ ما يقتل حبَطًا أو يُلِمُّ» ، قد أثبت الإنباتَ للربيع، وذلك خارج عن موضعه من العقل، لأن إثباتَ الفعل لغير القادر لا يصل فى قضايا العقول ، إلاّ أنَّ ذلك على سبيل التأوُّل ، وعلى العرف الجارى بين الناس: أنْ يجعلوا الشىء إذا كان سببًا ، أو كالسبب ، فى وجود الفعل من فاعل كأنه فاعل ، فلما أجرى اللهُ سبحانه العادة وأنفذ القضية أنْ تُورق الأشجارُ وتظهر الأنوار وتلبس الأرضُ ثوب شبابها فى زمان الربيع صار يُتَوهَّم فى ظاهر الأمر ومَجرى العادة كأنَّ لوجود هذه الأشياء حاجةً إلى الربيع، فأسند الفعل إليه على هذا التأوّل والتنزيل .

وهذا الضرب من المجاز كثير فى القرآن ، فمنه قوله تعالى : ﴿ تؤتى أُكلَها كلَّ حين بإذن ربِّها﴾ وقوله عز اسـمه : ﴿ وإذا تُليَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُم إيمانًا﴾ وفى الأُخـرى « فَمِنهُمْ مَـنْ يَقُولُ أيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إيمـانًا» وقوله : ﴿وأَخْـرَجَتْ الأرْضُ أثْقَـالَهَا﴾ وقـوله عز وجل ﴿ حـَتَّى إذَا أَقَلَّتْ سَحَـابًا ثِقَالاً سُـقْنَاهُ لِبَلَد مَيِّتٍ﴾ أثبت الفعلَ فى جميع ذلك لما لا يثـبت له فعل إذا رجعنا إلى المعقول ، على معـنى السبب وإلاَّ فمـعلوم أن النخلة ليست تُـحْدِثُ الأُكُلَ ، ولا الآيات تُوجـد العلمَ فى قلب السـامع لها ، ولا الأرضَ تُخـرج الكامن فى بطنهـا من الأثقال، ولكنْ إذا حـدثتْ فيـه الحركة بقـدرة الله ظهر مـا كُنز فيـها وأُودِع جوفَها. وإذا ثبت ذلك فالمُبْطِل والكاذب لا يتأوَّل فى إخراج الحُكْم عن موضعه وإعطائه غيرَ المستـحق ، ولا يشبِّه كوْن المقصود سببًـا بكَوْنَ الفاعل فاعلا ، بل يُثبت القضـيةَ من غير أن ينظر فيهـا من شىء إلى شىء ويردَّ فرعا إلى أصل ، وتراه أعمى أكْمَهَ يظن ما لا يصحُّ صحيحا ، وما لا يثبت ثابتا ، وما ليس فى موضعه من الحكم مـوضوعًا موضعه ، وهكذا المتـعمد للكذب يدعى أن الأمر على ما وضعه، تلبيسًا وتمويها، وليس هو من التأوُّل فى شىء.

واعلم أنه لا يجوز الحكمُ على الجملة بأنها مجاز إلا بأحد أمرين ، فإما أن يكون الشىء الذى أُثبت له الفـعلُ مما لا يدعى أحدٌ مـن المُحقِّين والمُبطلين أنه ممـا يصح أنْ يكونَ له تأثير فى وجـود المعنى الذى أثبت له. وذلك نحـو قول الرجل (محبَّـتُك جاءتْ بى إليك) وكقول عمرو بن العـاص فى ذكر الكلمات التى استحسنها (هُنَّ مُخْرِجاتى من الشام) فـهذا ما لايشتبه على أحد أنه مجاز. وإما أنه يكون قد عُلم من اعتقاد المتكلم أنه لا يُثبت الفعل إلا للقادر، وأنه ممن لا يعتقـد الاعتقاداتِ الفاسـدةَ كنحو ما قاله المشركـون وظنوه من ثُبوت الهلاك فعلاً للدهر[1]، فإذا سمعنا نحو قوله (من المتقارب) .

أشابَ الصَّغِيرَ وأفْنَى الْكَبِيـــ ـــرَ كَرُّ الغَدَاةِ ومَرُّ العَشِىِّ

وقول ذى الإصبع (من المنسرح)

---

(١) يقصد نحو قول الكفّار (﴿وما يهلكنا إلاّ الدّهرُ﴾ الجاثية ٢٤ .

أهَلكَنَا اللَّيْلُ والنَّهارُ معًــا　　والدَّهْر يَغْدُو مُصَمِّمًا جَذَعَا

كان طريق الحكم عليه بالمجـاز أن تعلم اعتقادهم التوحيد، إمـا بمعرفة أحوالهم السابقة أو بأن تجـد فى كلامهم من بعد إطلاق هذا النحو مـا يكشف عن قصد المجاز فيه ، كنحو ما صنع أبو النجم فإنه قال أولاً (من الرجز) :

قد أصبَحتْ أمُّ الخِيَارِ تَدَّعِـــــى　　علىَّ ذنبًا كلُّهُ لَمْ أصْنَـــــــــعِ

من ان رَأَتْ رأْسِى كَرَأْسِ الاصْلَعِ　　مَيَّزَ عنْه قُنْزُعًا عَن قُنْـــــــزُعِ

« جذْبُ اللَّيالى ، أبْطئى أوْ أسْرِعى »

فهذا على المجاز وجعْل الفعلِ لليالى ومرورها إلا أنه خفىٌّ غيرُ بادى الصفحة ، ثم فسر وكشف عن وجه التأوُّل وأفاد أنه بنى أوَّل كلامه على التخيُّل ، فقال :

أفْناهُ قِيلُ اللهِ للشَّمْسِ اطْلُعِى　　حتَّى إذا واراكِ أفقٌ فارْجعِــى

فبين أن الفـعل لله تعالى وأنه المُعـيد والمبـدئ والمُنْشِئ والمفنى ، لأن المعنى فى (قِيلُ الله) أمْرُ الله ، وإذا جَعَـلَ الفَنَاءَ بأمره فقد صرَّح بالحقيـقة، وبين ما كان عليه من الطريقة .

واعلم أنه لا يصح أنْ يكون قولُ الكفـار ﴿وما يُهْلِكُنَا إلاَّ الدَّهْر﴾ من باب التأويل والمجـاز وأن يكون الإنكار عليهم من جهـة ظاهر اللفظ وأنَّ فيه إيهـامًا للخطأ ، كيف وقد قال تعالى بِعَقِبِ الحكاية عنهم : ﴿وما لَهُمْ بذَلِكَ من عِلْم إنْ هُم إلاَّ يظنُّون﴾. والمتجوز أو المخطئ فى العبارة لا يُوصف بالظن .

إنما الظَّانُّ مَنْ يعتقد أن الأمر على ما قاله وكما يُوجبه ظاهرُ كلامه ، وكيف يجوز أن يكون الإنكار من طريق إطلاق اللفظ دون إثبات الـدهر فاعلا للهلاك وأنت ترى فى نص القرآن ما جرى فيه اللفظ على إضافة فعل الهلاك إلى الريح مع استحـالة أن تكون فاعلةً، وذلك قوله عز وجل ﴿ مَثَلُ مَـا يُنْفِقُونَ فى هذه الحَيَاة الدُّنيـا كَمَثَلِ ريحٍ فِيها صِـرٌّ أصَابَتْ حرثَ قومٍ ظلمُوا أنفُسَـهم فأهلكته﴾ وأمثال ذلك كثـير ، ومن قدح فى المجاز وهمَّ أن يصفه بغير الصـدق فقد خَبط خبطًا عظيمًا ويهدف لما لا يخفى.

فى الحقيقة العقلية والمجاز العقلى
من كتاب (الإيضاح) للخطيب القزوينى

فصل

الإسناد منه حقيقةٌ عقليةٌ ، ومنه مجازٌ عقلى .

أما الحقيقة فهى إسناد الفـعلِ ، أو معناه، إلى مـا هو له عند المتكلم فى الظاهرِ . والمراد بمعنى الفعل نحو المصدر ، واسم الفاعل.

وأما المجازُ، فهو إسنادُ الفعل ، أو معنـاه ، إلى ملابِس له، غير ما هو له، بتأوُّل ، وللفعل مـلابِسات شتى، يلابس الفاعل، والمفـعول به، والمصدر، والزمانَ ، والمكان ، والسبب.

فإسناده إلى الفاعل - إذا كان مبنيًا له - حقيقةٌ كما مرّ ، وكذا إلى المفعول إذا كان مـبنيًا له ، وقـولنا : «ما هو له» يشـملهُمـا، وإسناده إلى غيـرهما - لُمضاهاته لما هو له فى ملابسة الفعل - مجاز ، كـقولهم فى المفعول به: «عيشةٌ راضيةٌ» و « مـاءٌ دافقٌ» وفى عكسه « سيلٌ مـفعَمٌ » وفى المصدر «شِعْـرٌ شاعرٌ» وفى الزمان «نهاره صائم» و«ليلهُ قائم»، وفى المكان «طريقٌ سائرٌ» و«نهْر جارٍ»، وفى السبب «بنى الأميرُ المدينة» وقال :

«إذا ردَّ عافى القدرِ مَنْ يستعيرُها »[1]

---

(١) هـا الشطر من بيت يفتخر صاحُبه بالكرم وإطعام الضيوف، والبيت بتمامه هو :

فلا تسأليني واسالى عن خَلِيقَتى إذا رَدَّ عافى القِدْرِ مَنْ يستعيرُها .

و(عافى القدر) : الـضيف طالب الطعام، وهو فاعل الفـعل (رَدّ) و (مَنْ) مفعول به ، ووجـه التجوز في الإسناد أن الضيف لا يردّ من يريد استعارة القدر، وإنما يردّه أهل البيت ، فإسناد الفعل إلى الضيف إسناد مجازى ، أو تجوّز فى الإسناد ، لأن الفعل أسند إلي غير فاعله .

وقولنا : « بتأوُّل » يخرج نحو قول الجاهل : «شفى الطبيبُ المريضَ» فإن إسناده الشفاءَ إلى الطبيب ليس بتأول.

ولهذا لم يحمل نحو قول الشاعر الحماسي :

أشاب الصغيرَ وأفنى الكبيـ ـرَ كرُّ الغَداة ، ومرُّ العَشيّ

على المجاز ، ما لم يُعْلَمْ أو يُظَن أن قائله لم يُرد ظاهرَه.

كما استُدِلَّ على أن إسناد «ميَّز» إلى «جَذْبِ الليالى» فى قول أبى النجم:

.. قد أصبَحتْ أمُّ الخِيَارِ تَدَّعِـي عليَّ ذنبًا كلُّهُ لَمْ أصْنَـعِ

من أن رأَتْ رأْسِي كَرَأْسِ الاصْلَعِ ميَّزَ عنه قُنْزُعًا عَن قُنْـزُعِ

« جذْبُ اللَّيالى ، أبْطِئى أوْ أسْرِعى »

مجاز[1] بقوله عَقِيبَه :

أفْناهُ قِيلُ اللهِ للشَّمْسِ اطْلُعِي حتَّى إذا واراكِ أفقٌ فارْجِعِي

وسُمِّى الإسنادُ فى هذين القِسمَيْن من الكلام عقليا، لاستناده إلى العقل، دون الوضع، **لأن إسنادَ الكلمة شىءٌ يحصل بقصد المتكلم**، دون واضع اللغة، فلا يصير (ضَرَبَ) خبرًا عن (زيد) بواضع اللغة. بل بمن قصد إثبات الضرب فعلاً له ، وإنما الذى يعودُ إلى واضع اللّغة أنّ (ضَرَبَ) لإثبات الضَّرْبِ لا لإثبات الخروج، وأنّه لإثباته فى زمانٍ ماضٍ، وليس لإثباته فى زمان مستقبل، فأمّا تعيين مَنْ ثَبَتَ له فإنما يتعلق بمَنْ أراد ذلك من المخبرين .

ثم المجاز العقلى باعتبار طرفيه - أعنى المسند والمسندَ إليه - أربعةُ أقسام لا غير، لأنهما

إما **حقيقتان**، كقولنا، «أنبت الربيعُ البقلَ» .

وعليه قوله : « فنامَ ليلى وتجلَّى همِّى »

وقوله : « وشيَّبَ أيَّامُ الفراقِ مَفارِقى »

---

(١) السياق كالآتي : كما استُدِلّ على أن إسنادَ (ميّز) إلى جذْب الليالى) . . . مجازٌ بقوله . . . أى استُدِل على . . . بقوله . فـ (إسناد) اسم (أنّ) و (مجاز) خبرها . .

وقوله : « ونمتِ وما ليلُ المطىِّ بنائم »[1]

وإمامجازان، كقولنا : « أحيا الأرضَ شبابُ الزمان ».

وإما مختلفان، كقولنا: « أنبتَ البقلَ شبابُ الزمان » ،وكقولنا « أحيا الأرضَ الربيعُ» وعليه قول الرجل لصاحبه « أحيتْني رؤيتُك » أى : آنستْني وسرتْني . فقد جعل الحاصلَ بالرؤيةِ من الأنس والمسرةِ حياةً ، ثم جعل الرؤية فاعلة له، ومثله قول أبى الطيب:

وتُحيى له المالَ الصوارمُ والقَنا ويقتُلُ ما تحيى التَبسُّمُ والجدا

جعل الزيادة والوفور حياةً للمال ، وتفريقَه فى العطاء قتلاً له ، ثم أثبتَ الإحياءَ فعلاً للصوارم ، والقتل فعلا للتبسُّم ، مع أن الفعل لا يصحُّ منهما. ونحوه قولهم : «أهلك الناسَ الدينارُ والدرهمُ» جُعِلَتُ الفتنةُ إهلاكا ، ثم أثبتَ الإهلاكَ فعلاً للدينار والدرهم .

وهو فى القرآن كثير ، كقوله تعالى : ﴿وإذا تُليتْ عليهم آياتُهُ زادتهم إيمانًا﴾ نُسبت الزيادةُ التى هى فعل الله إلى الآيات ، لكونها سببًا فيها. وكذا قوله تعالى ﴿ وذلكم ظنُّكم الذى ظننتم بربكم أرْداكُم﴾ .

ومن هذا الضرب قولُهُ : « يذبِّح أبناءهم » فإن الفاعل غيرُهُ ، ونسب الفعلُ إليه لكونه الآمر به .

وكقوله : «ينزع عنهما لباسَهما» نُسب النزع -الذى هو فعل الله تعالى- إلى إبليس، لأن سببه أكلُ الشجرة ، وسبب أكلها وسوستُه ومقاسمتُه إياهما أنه لهما لمن الناصحين .

وكذا قوله تعالى ﴿ ألَمْ تَر إلى الَّذين بدَّلوا نِعْمـةَ اللَّه كُفْرًا ،وأحلُّوا قَومَهَم دارَ البَوَارِ؟ » نُسب الإحلال الذى هو فعل الله إلى أكابرهم، لأن سببَه كفرُهم،

(١) وجه التجوز فى الإسناد فى الأشطر الثلاثة هو كالآتى :

فى الأول : إسناد النوم إلى الليل

فى الثانى : إسناد التشييب إلى أيّام الفراق .

فى الثالث : نفى النوم عن الليل ، كأنه مما يمكن أن ينام .

وسبب كفرهم أمرُ أكابرهم إياهم بالكفر .

وكقوله تعالى « يومًا يَجْعَلُ الوِلدان شِيبا » نسب الفعل إلى الظرْفِ لوقوعه فيه، كقولهم «نهاره صائم» .

وكقوله تعالى ﴿ وأخْرَجَتِ الارضُ أثقالها﴾ .

وهو غير مختصٌ بالخَبَر ، بل يجرى فى الإنشاء كقوله تعالى « وقال فرعون يا هامان ابْنِ لى صرحًا﴾ ، وقوله ﴿فأوقدْ لى يا هامان على الطين فاجْعَلْ لى صَرْحًا » ، وقوله « فلا يخرجنَّكما من الجَنَّة فتشقَى » .

ولابد من قرينة إما لفظية ، كما سبق فى قول أبى النجم ، أو غير لفظية كاستحالة صُدُور المسندِ من المسند إليه المذكور، أو قيامه به عَقْلا ، كقولك : « محبتُّك جاءَت بى إليك» أو عادة كقولك : « هزم الأميرُ الجند» ، و«كسا الخليفةُ الكعبةَ» و « بنى الوزيرُ القصر» وكصدور الكلام من الموحِّد فى مثل قوله : أشاب الصغيرَ» البيتَ .

واعلم أنه ليس كل شيء يصلح لأنْ تتعاطى فيه المجازَ العقلى بسهولة، بل تجدك فى كثير من الأمر تحتاج إلى أن تُهيِّئَ الشيءَ ، وتصلحه له ، بشيء تتوخَّاهُ فى النظم ، كقول من يصف جملا :

تجوبُ له الظَّلماءَ عين كأنَّهـــا زجاجةُ شَرْب غيرُ ملأى ولا صفرِ

يريدُ أنه يهتدى بنور عينه فى الظلْماء ، ويمكنه بها أن يخرقها ، ويمضى فيها ، ولولاها لكانت الظلماءُ كالسدِّ الذى لا يجد السائرُ شيئًا يُفَرِّجُهُ به ، ويجعل لنفسه فيه سبيلا ، فلولا أنه قال « تجوبُ له » فعلق « له» بـ « تجوب» لما تَبَيَّنَتْ جهةُ التجوُّز فى جعلِ الجوْبِ فعلا للعين كما ينبغى ، لأنه لم يكن حينئذ فى الكلام دليلٌ على أن اهتداء صاحبها فى الظلمة ومُضيَّه فيها بنورها ، وكذلك لو قال : « تجوب له الظلماء عينُه » لم يكن له هذا الموقعُ ، ولانقطع السلكُ من حيث كان يُعْيِيه حينئذ أن يصف العينَ بما وصفها به .

واعلم أن الفعلَ المبنيَّ لـلفاعلِ في المجازِ العـقلي واجبٌ أن يكون له فاعلٌ في التقدير، إذا أُسند إليه صار الإسنادُ حقيقةً لما يُشْعرِ بذلك تعريفُه كما سبق.

وذلك **قد يكون ظاهرًا** ، كما في قوله تعالى : ﴿ فما ربِحَتْ تجارتُهم ﴾ أي فما ربحوا في تجارتهم .

وقد يكون خفيًا ، لا يظهر إلا بعد نظر وتأمل ، كما في قولك «سَرَّتْني رؤْيتك» أي : سرني الـله وقتَ رؤْيتك ، كما تقـول : أصل الحكم في «أنبت الربيعُ البقل » أنبت الله البقلَ وقتَ الربيع ، وفي «شفى الطبيب المريضَ» شفى الله المريضَ عند علاج الطبيب ، وكمـا في قولك « أقدَمني بَلَدَك حق لي على فـلان » أي : أقدمـتني نفْسي بلـدك لأجل حق لي على فلان، أي : قـدمتُ لذلك ، ونظيـره « محـبَّـتُك جاءَت بي إليك » أي : جـاءَت بي نفـسي إليك لمحبتك، أي : جئتك لمحبّتك ، وإنما قلنا « إن الحكمَ فيهما مجاز » لأن الفعلين فيهما مسندان إلى الداعي،والداعي لا يكون فاعلا ، وكما في قول الشاعر :

وصيَّرَني هواكِ ، وبي   لحَيْني يُضرَبُ المَثـــَل

أي : وصيَّـرني الله لهَواكِ وحَالي هذه ، أي أهلكَني الله ابتـلاءً ، بسبب هواكِ . وكما في قول الآخر وهو أبو نواس :

يزيدُك وجهُهُ حُسْنًا   إذَا مَا زدْتَه نَظَـــرَا

أي : يزيدك الله حسْنًا في وجهه - لما أودَعَهُ من دقائق الجمال - متى تأملت.

وأنكر السكاكي وجـودَ المجازِ الـعقلي في الكلام، وقـال: **الذي عندي نظمُهُ في سلك الاستـعارة بالكناية**، بجعل الـربيع استعـارة بالكناية عن الفاعل الحقيقي بواسطة المبالغة في التشبـيه- على ما عليه مبنى الاستعارة، كما سيأتي، وجعل نسبة الإثبات إليه قرينة للاستعارة، وبجعل الأمير المدبّر لأسباب هزيمة العدو اسـتعارة بالكناية عـن الجند الهازم، وجعل نسـبةِ الهزم إليـه قرينةً للاستعارة .

عبد القاهر وحدود بحث البيان

إذا كان عبدُ القاهر قد وضَع اللّمساتِ المكمِّلَة للفصْل بين المجاز اللّغوى (فى الكلمة المفردة) والمجاز العقلى (فى الإسناد) فإنّ كثيرًا من البلاغيّين اللاحقين قد استبعدوا المجاز العقلى من مباحث البيان سالكين له فى مباحث المعانى ، بدعوى انتمائه إلى مباحث التراكيب التى هى مادّة البحث فى علم المعانى. وهؤلاء هم الذين قصروا بحث البيان على المجاز اللغوى والكناية ، على أساس أنهما مَظِنَّةُ وقوع التعقيد المعنوى الذى جعلوا مهمةَ علم البيان الاحترازَ من الوقوع فيه .

والناظر فى مؤلفات هؤلاء اللاحقين لا تفوته بعضُ الملاحظات، من بينها :

أنهم لا يُلحقون صفة (اللُّغوى) بكلمة المجاز، أى لا يقولون (المجاز اللغوى)،وإنما يكتفون بكلمة (المجاز) وهذا أمر طبيعى فى ضوء استبعادهم للمجاز العقلى ، إذ تنعدم الحاجةُ إلى وصف المجاز الآخر (اللّغوى) الذى يصبح وحده - مع الكناية - موضوع البحث فى علم البيان .

ملاحظة أخرى هى انقسام المجاز (اللغوى) قسمين ، أحدهما **الاستعارة**، والآخر أطلقوا عليه **المجاز المرسَل**، وقد أقاموا الفرق بين القسمين على أساس العلاقة بين المعنيين الأول والثانى - أو الحقيقى والمجازى - للكلمة المستعملة ، فإذا كانت العلاقةُ بين المعنيين هى المشابهة أطلقُوا على المجاز اسم الاستعارة، وإذا كانت العلاقة مجرّد مُلابَسَة - أى صلة من نوع معيّن - أطلقوا عليه اسمَ المجاز المرسَل .

من ناحية ثالثة **قسّموا الاستعارة إلى تصريحيّة ومكنية** ، وقام التقسيمُ على أساس الطَّرَف المصرَّح به من طرفى الاستعارة (المستعار والمستعار له)ومعروف أنه لا يصرَّح فى الاستعارة إلاّ بأحد الطرفين ، فإذا كان الطّرفُ المصرّحُ به هو المستَعار سُمِّيتْ الاستعارةُ : استعارةٌ تصريحيّة ، وإذا حُذِفَ

المستـعار - أو كُنِيَ عنه - وذكِـرتْ بعضُ لوازمه مع ذكـر المستـعارِ له سُـمِّيتْ استعارةً مكنّية أو استعارة بالكناية .

وفى كلٌّ من التقسيمين السابقين لا يخطئُ المتأمّلُ أثرَ عبد القاهر ، وهو أثر يبدو مؤكّدًا وإن كان غير مباشر .

وفيـما يتعلّق بتقسـيم المجاز إلى (استـعارة) و (مجازٍ مُـرسَل) على أساس علاقة المشـابهة فى الاستعـارة ، ومجرّد الملابسة فى المجـاز المرسل . . يصادفنا عند عبد القاهر فى سياق تفرقته بين المجاز اللغوى والمجاز العقلى قولُه - الذى مرَّ بنا - إنّ المجاز على ضربين . . « فإذا وصفْنا بالمجاز الكلمةَ المفردةَ - كقولنا (اليَدُ مجازٌ فى الـنعمة) و (الأسد مجازٌ فى الإنسان) . . . كـان حكمًا أجْرَيْناه على ما جرى عليه من طريق اللغة ، لأنّا أردْنا أنّ المتكلمَ قد جاز باللفظة أصلَها الذى وقعتْ له ابتداءً فى اللغة ، وأوْقـعَها على غير ذلك **إمّا تشبيهًا** ، **وإمّا لصلةٍ وملابسةٍ** بين ما نقلها إليه وما نقلها عنه»[1].

هذا التصريح - على وَجَازته - يمكن عدُّه بمثابةِ الخلاصة أو النتيجةِ النهائية لما كان قد عمِل له عبد القاهر وسعَى إلى إثباته من التفرقه فى المجاز بين مجازٍ يقوم علي عـلاقة المشـابَهة ، هو الاسـتعارة ، ومـجاز آخر ، لم يـذكرْه باسمٍ خاصٍّ ، يقوم على صـوَرٍ متعدّدةٍ من العـلاقات أو الملابسات غيـر المشابَهة ، وفي هذا السيّاق نجد مجادلاتِه مع سـابقيه من اللغويّين كابن دريدت ٣٢١هـ ، والنقّـاد كالآمدى ت ٣٧١هـ الذيـن أدخلوا فى الاستعـارة ما ليس منـها ، من أمثلةٍ دخلت فيما بعد إلى حظيرةِ المجاز المرسل . كما تصادفنا فى السياق نفسِه تصريحاتُه المؤذِنةُ بوضوح الفرق بينهما لديه .

من هذه التصريحـات: « أن المجاز أعمّ من الاستعارة، و. . كلّ اسـتعارة مجاز، وليس كلّ مجـاز استعارة . . . [لأن] الاستـعارة نقل الاسم عن أصله

(١) أسرار البلاغة ط. رتر صـ ٣٧٦ .

إلى غيره للتشبيه على حدّ المبالغة» ويقرر أن هذا الشرط - النقل للتشبيه وتحقيق المبالغة - هو السبب في عدّها من البديع وفى إكسابها قيمتها الخاصّة ، وأن هذا الشرطَ لايتحقق فى الضَرْبِ الآخرِ من المجاز ، ولا ينطبق على أمثلته من نحو (إجراء اليد على النِّعمة ، وتسمية البعير حَفَضًا والربيئة عينا والشاةَ عقيقةً) فهذه الأمثلة مجازٌ ولكنها ليست من الاستعارة ، إذ هى من باب « نقل اللفظ عن الشىء إلى الشىء بسبب اختصاص وضرب من الملابسة بينهما وخلْط أحدهما بالآخر» (الأسرار صـ٣٦٨) ، أو هى « على حدّ وقوع الشىءِ على ما يتّصل به وتكثُر ملا بستُه إيّاه » (الأسرار صـ ٣٦٩) ، وهو اختصاص وملابسة لا دخل لهما بعلاقة المشابهة التى نجدها فى استعارة الأسد - مثلا - للرجل الشجاع .

وفى ضوء ما نعرفه من تفرقة البلاغيين اللاحقين على عبد القاهر بين الاستعارة والمجاز المرسل انطلاقا من طبيعة العلاقة التى تربط المعنى الأول بالمعنى الثانى - أو المعنى الحقيقى بالمعنى المجازى **وأنّ أساسَ العلاقة فى الاستعارة هو المشابهة وفى المجاز المرسل هو ملابسةٌ غير المشابهة،** فإننا لا نملك إلاّ الإقرارَ بريادة عبد القاهر فى وضْع أساس التفرقة بين شطرى المجاز - كما يقولون- أعنى الاستعارة والمجاز المرسل ، وإن لم يذكر الشّطْر الأخير باسمه الصريح .

أما تقسيمُ الاستعارة إلى تصريحيّة ومكنيَّة فإنّ التمهيد له وإرساء أساسه لا يقلّ وضوحًا فى كلام عبد القاهر، لقد عرّف الاستعارة بقوله «أنْ تريد تشبيهَ الشىءِ بالشىءِ فتدعَ أنْ تُفصِحَ بالتشبيه وتظهرَه، وتجىءَ إلى اسم المشبَّه به فتُعيرَه المشبَّهَ وتجريَه عليه ، تريد أن تقول : رأيتُ رجلا هو كالأسد فى شجاعته، فَتَدَعَ ذلك وتقول (رأيتُ أسدًا) .

ثم يقول : «وضربٌ آخرُ من الاستعارة ، وهو ما كان نحو قوله :

«إذْ أصبحتْ بيد الشَّمال زمامها» .

والشاهد - كما نرى - ينتمي إلى قسم الاستعارة بالكناية ، إذ شبّه الشاعر ريح الشّمال بالإنسان فجعل لها يدًا ثم حذف المشبه به -المستعار- وأبقى لازمته وهى اليد، وذكر المشبّه -المستعار له- وهو ريح الشمال ، وهى بنْيَةٌ تخالف بِنْيةَ الاستعارة التصريحيّة التى تقوم على ذكر المستعار وحذف المستعار له . . ويؤكد عبد القاهر حقيقةَ الفـرق بين الضربين فيقول : «هذا الضربُ ، وإنْ كان الناسُ يضمّونه إلى الأول [يقصد ما ذُكِر فـيه المستعار] حيث يذكرون الاسـتعارة . . فليسا سواء ، ذاك أنكَ فى الأول **تجعل الشىءَ الشىءَ ليس به** ، وفى الثانى **تجعل للشىءِ الشىءَ ليس له**»[1] ، ودون أن تهولنا عبارةُ عبد القاهر البالغةُ الكثافـة . . فإن قصدَه أنكَ فى الـضّرْب الأول - حين تقول مثـلا (رأيت أسدًا ممسكًا سيفًـا) فإنك قد جعلتَ الرجلَ أسـدًا ، ولأنّ الرجل ليس أسدًا فأنت - بلغةِ عبـد القاهر- قد جعلتَ الشّىءَ الشّىءَ ليس بـه ، أى جعلت الرجل أسدًا وهو ليس بأسد .

أما فى الضرب الـثانى حين تقول - مثلا- (راحت يدُ الـريح توجّه شراعَ السّفينة) فـإنك قد جعلتَ للريح يدًا ، ولأن الريح ليس لها يدٌ فـأنت - بعبارة عبد الـقاهر - قد جعلت للشىءِ الشىءَ ليـس له ، أى جعلتَ للريح يدًا وليس لها يدٌ.

كلام عبد القـاهر فى الموضع السابق، يرسم - دون شك- الصورةَ المجرّدةَ لكل من نوعى الاستـعارة: التصريحـيّة والمكنيّة ، وإنْ لم يذكـرهما بالاسم . وهو يعـــود إلى نفس الموضــوع فى مـكانٍ آخـرَ من الدلائل ، حـــيث يخص الاستـعارة التـصريحيّـة بحديث فى رفض فـكرة النقل فيهـا - أى نقل الاسم المستـعار عن معناه - كالقـول بأن الأسدَ أُطلق بمعنى الرجلِ الشجـاع وأنّ البدرَ أطلق بمعنى الإنسـان الجـميـل . . إلخ ، إذ يرى - فى هذا المكان - أن الاسم

---

(١) الدلائل ط : شاكر ص ٦٧ .

المستعار يحتفظ بمعناه الذى وُضع له - أي معنى الأسد والبدر الحقيقيّين، تأسيسًا على أن الاستعارةَ هى (ادّعـاءُ معنى الاسم لشىء) وأن هذا الادّعاء - الذى هو مصدر المبالغة التى تتحقّق بالاستعارة - يتنافى مع فكرة النقل التى من شأنها أن تسلبَ الاسمَ معناه وتقضى على وظيفة المبالغة[١].

الحديث السـابق خاصّ بالاستـعارة التصـريحيّـة ، وحديث (النقل) - مع رفضِ عـبد القـاهر له وتخطئتـه للقـائلين به - واردٌ فيـها ، لكنّ الاسـتعـارةَ التصريحيّة ليست الضربَ الوحيـدَ من الاستعارة، إذ نعلم كما يقول - « أن فى الاستعارة ما لا يُتَصوَّر تقديرُ النقل فيه ألبَتَّةَ وذلك مثل قول لبيد :

وغداةِ ريحٍ قد كَشَفْتُ وقِـــرَّةٍ إذْ أصبحتْ بيدِ الشَّمالِ زمامُها

يقول عبد القاهر :

«لا خلافَ فى أنّ (اليـد) استـعارةٌ ، ثم إنّك لا تسـتطيع أن تزعم أن لفظ (اليـد) قـد نُقل عـن شىء إلى شىء . . . وإنما المعنى علـى أنه أرادَ أن يُثـبت للشَّمال فـى تصريفها الغداةَ على طـبيعتهـا، شَبَّهَ الإنسان قد أخـذ الشىء بيده يقلّبـه ويصرّفه كـيف يريد ، **فلمّـا أثبت لها مثـل فعل الإنسان بـاليد استعارَ لها اليدَ** . . . . وكذلك سبـيلُ نظائره مما تجدُهم قد أثبتـوا فيه للشىء عـضواً من أعـضاء الإنسـان ، من أجل إثباتهـم له المعنى الذى يكون فى ذلك العضو من الإنسان»[٢].

وتجىء أمثلةُ عـبد القاهر لهذا الضـرب وشرْحُه لها بعد ذلك مـؤكّدة تعلُّق حديثه بما سُمِّىَ بعـد ذلك بالاستعارة المكنيّة، مثـلا : بيت الحماسة فى وصف شجاعٍ فاتكٍ بسيفه :

إذا هزّه فى عظْمِ قِرْنٍ **تهلّلتْ** **نواجذُ أفواه المنايا** الضّواحِك

(١) الدلائل ٤٣٢ - ٤٣٥ .

(٢) الدلائل ٤٣٥، ٤٣٦ .

يقـول عبد القـاهر : «**فإنـه لما جعل (المنايا) تضـحك، جعل لهـا الأفواه والنواجذ** التى يكون الضّـحكُ فيهـا. وهناك بيت المتنبى فى وصف جيش الروم الضخم الذى هزمه سيف الدولة :

خَمِيسٌ بشرْق الأرضِ والغرب زَحْفُهُ   وفى **أُذْن الجوْزَاءِ** منه زَمَـــــازِمُ

يقول عبـد القاهر : « **لما جعل الجوزاء تسـمع .. أثبت لها الأذن** التى بها يكون السمعُ من الأناسىّ»[1]

وليس من شكّ فى تعلُّق حـديث عبـد القاهر فى الموضـع الأخير بـضرب **الاستعارة المكنية دون ذكرها بالاسم، ولا فى توجّهه إلى خاصتّها الفارِقة، وهى اشتمالها على تشـبيهٍ مضمر فى النفس، مع ذكر المشبَّـه وحذف المشبه به وإبقاء بعض لوازمه، وهو حديث يعزِّزه بقوة ما وصف به بعضَ أمثلتها من قبلُ بأنها (ضرْبٌ آخرُ من الاستعارة)**[2] .

وكلّ ما سبق يؤكّد ريادة عبد القاهر على طريق التمييز بين ضربى الاستعارة اللذين وقف عليهما الـلاحقون - التصريحيّة والمكنيّـة - كما كان رائدًا فى لمح أساس التـقسيم بين الاستـعارة والمجاز المرسَل - وكـان قد تحدث عن (التمـثيل على حدّ الاستعارة)- وهو ما أطلق عليه لاحقوُه (الاستعارة التمثيلية) و (المجاز المركّب) - جاعلا منه مقابلا للتشبيه التـمثيلى أو - إذا شئنا القياس على عبارته - (التمـثيل على حـدّ التشـبيـه) ، وقد جعـل من الثلاثة - المجاز (الـلغوى) والكناية والتمثـيل على حد الاستعارة - المظاهر التى يتجلّى فـيها إطلاقُ اللفظِ مُـرادًا به غيـرُ ظاهر مـعناه ، وذلك ما يقطع بـدوره الحاسم فى رسم خـريطة البـحث فى علم البيـان ، تلك الخريطة التى لم يخـرج عن حدودها أحـدٌ من اللاحقين .

---

(١) الدلائل ٤٣٦ .

(٢) الدلائل ص ٦٧ .

فى الكناية والاستعارة والتمثيل على حدّ الاستعارة
من (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر

فصل
فى اللفظ يُطلق والمراد به غير ظاهره

اعلم أن لهذا الضَّـرْب اتسّاعـا ، وتفنُّنا لا إلى غاية ، إلاَّ أنه على اتسـاعه يدور فى الأمر الأعَمّ على شيئين : الكِناية ، والمجاز .

مفهوم الكناية :

والمرادُ بالكناية ههنا أن يُـريد المتكلم إثباتَ مـعنى من المعـانى، فلا يذكـرَه باللفظ الموضوع له فى اللغة، ولكن يَجِىءُ إلى معنى هو تاليه رِدْفُه فى الوجود، فيـومئُ به إليه ، ويجعلُه دليلا علـيه ، مثال ذلك قـولهم: «هو طويلُ النِّجاد» يريدون طويلَ القامـة، و (كثيـرُ رَماد القدْر) يـعنون كثيـر القِرى، وفى المرأة: (نَؤُومُ الضُّحَى) ، والمُرادُ أنَّها مُترفةٌ مَخْدُومة، لها مَنْ يكفيها أمرَها، فقد أرَادُوا فى هذا كلِّه كما ترى معنـى، ثم لم يذكروه بلفْظه الخاصّ به، ولكنهم توصَّلوا إليه بذكر معنـى آخر من شأنه أن يردُفَه[1] فى الوجود . وأنَ يَـكونَ إذا كان ، أفلا ترى أنَّ القامـةَ إذا طالت طال النِّجاد ؟ ،وإذا كثر القرى كثـر رمادُ القِدْر؟ وإذا كانت المرأةُ مترفةً لها من يكْفيها أمرَها ردَف ذلك أنْ تَنَامَ إلى الضحى ؟ .

مفهوم المجاز

وأما المجاز فقد عوَّل الناسُ فى حدِّه على حديث النقل ، وأن كلَّ لفظ نُقل عن مـوْضُوعِـه فـهو مـجـاز . والكلام فى ذلك يطول ، وقـد ذكرتُ مـا هو الصحيح من ذلك فى موضع آخر ، وأنا أقتصر ههنا على ذكر ما هو أشهرُ منه

---

(١) ردَفه يردُفه ، وردِفه يردَفه : جاءَ بعده ، ناب عنه .

وأظهر ، والاسم والشهرة فيه لشيئين: الاستعارة والتمثيل ، وإنما يكون التمثيلُ مجازًا إذا جاءَ على حدِّ الاستعارة .

معنى الاستعارة

والاستـعارة : أن تريدَ تشـبيه الشيء بالشيء، فـتدعَ أن تُفْصِـح بالتشبـيه وتظهره وتجيءَ إلى اسم المشـبه به فتـعيرَه المشـبه وتجريه عليـه. تريد أن تقول: رأيتُ رَجُلاً هو كالأسدِ في شـجاعته، وقوةِ بَطْشه سـواء : فتدع ذلك وتقول: رأيتُ أسدًا .

وضربٌ آخر من الاستعارة وهو ما كان نحو قوله :

« إذْ أصبَحَتْ بِيَدِ الشَّمالِ زِمَامُها »[1]

هذا الضرب وإن كان الناس يضـمُّونه إلى الأول حيث يذكرونَ الاستعـارةَ فليسا سَـواءً، وذاك أنَّك في الأول تجـعل الشيءَ الشيءَ ليس به، وفي الثـاني تجـعل للشيء الشيءَ ليس له، تفسيرُ هذا أنَّك إذا قلت: رأيـتُ أسَدًا، فقد ادَّعيْتَ في إنسان أنه أسد وجعلته إياه ، ولا يـكون الإنسان أسدًا. وإذا قلت (إذ أصبحتْ بِيَدِ الشَّمَال زِمامها) فقد ادّعيت ان للشَّمال يدًا ومعلوم أنه لا يكون للريح يد .

وههنا أصلٌ يجب ضبطُه وهو أنَّ جعْلَ المشبَّه المشبَّهَ به على ضربين :

أحدهما : أن تُنزله منزلةَ الشيء تذكرهُ بأمر قـد ثَبَت له فأنت لا تحتاج إلى أن تُعمل في إثباته وتزجيته ، وذلك حيـث تُسقط ذكر المشبَّه من الشيئين ولا تذكره بوجه من الوجوه ، كقولك : رأيتُ أسَدًا .

والثاني: أن تَجْعل ذلك كالأمر الذى يحتاج إلى أن تعمل في إثباته وتزجيته، وذلك حيث تجرى اسم المشـبَّه به صراحةً على المشبه فـتقول: زيدٌ أسدٌ، وزيدٌ هُوَ الأسدُ ، أو تجيءُ به على وجه يرجع إلى هذا كقولك: إن لقيتَه لقيتَ به أسدًا ،وإن لقيتَهُ لـيلقَيَنَّك منه الأسدُ ، فأنتَ في هذا كله تعمل في إثْبَاتِ كونه أسدًا أو الأسد وتضع كلامك له .

---

(١) من بيت في الفخر بالكرم للشاعر المخضرم لبيد بن ربيعة ، وهو بتمامه :

وغداةِ ريح قد كشفْتُ وقرَّةٍ إذ أصبحَتْ بيد الشَّمالِ زمامُها

وأما فى الأول فتخرجه مُخرج مالا يُحتاج فيه إلى إثبات وتقرير ، والقياس يقتـضى أن يقال فى هذا الضـرب، أعنى ما أنت تعمل فى إثـباته وتَزْجِيَـته إنه تشبيه على حد المبالغة. ويقتصر على هذا القدر ، ولا يسمى استعارة .

وأما التمثيل الذى يكون مجازاً لمجيئك به على حدِّ الاستعارة:

فمـثاله قـولك للرجل يتردَّد فى الشىء بين فـعله وتركه: أراك تُقَـدِّمُ رِجْلاً وتؤخِّـرُ أخرى، فـالأصل فى هذا : أرَاكَ فى تردّدك كمَنْ يقـدِّم رجْلا ويؤَخِّـر أُخرى، ثم اختُصِرَ الكلامُ وجُعِل كأنه يقدم الرجل ويؤَخرها على الحقيقة ، كما كان الأصل فى قولك: رأيت أسدًا (رأيت رجلاً كـالأسد) ثم جُعل كأنه الأسد على الحقيقة.

وكذلك تقول للرجل يعمل غير مَعْمَلٍ : أراكَ تنفخُ فى غَيْرِ فَحْم ، وتخطُّ على الماءِ ، فتـجعله فى ظاهر الأمر كـأنَّه ينفُخ ويخط ، والمعنى على أنك فى فعلك كمن يفعل ذلك .

وتقول للرجل يُـعمل الحيلة حـتى يُميل صاحـبه إلى الشىء قـد كان يأباه ويمتنع منه : ما زَالَ يفـتِلُ فى الذُّروة والغَارب حـتَّى بلَغَ منه ما أراد ، فتـجعله بظاهر اللفظ كأنه كان منه فَـتْل فى ذرْوَة وغَارب. والمعنى على أنه لم يزل يرْفُق بصاحبه رفقا يشبه حالُه فيه حال الرجل يجىءُ إلى البعير الصَّعب فيحكُّه ويَفْتِل الشعر فى ذروته وغاربه حتى يسكن ويسـتأنس ، وهو فى المعنى نظير قولهم : فُلاَنٌ يُقَرِّدُ فُلاَنًا، يعنى به أنه يتلطف له ، فعلَ الرجل ينزع القُرادَ من البعير ليلذ ذلك فيسكن ويثبت فى مكانه حتى يتمكن من أخذه .

وهكذا كلُّ كلام رأيْـتَهم قد نَحَـوا فيه الـتمثـيلَ ثم لم يُفصِـحُوا بذلك ، وأخرجوا اللفظ مخرجه إذا لم يريدوا تمثيلا .

فى الفَرْق بين الاسْتِعَارة والمَجَاز المُرْسَل(*)

من (أسرار البلاغة) لعبد القاهر

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كلام فى ذكر المجاز وفى بيان معناه وحقيقته

— « المجاز » « مَفْعَلٌ » من « جازَ الشيءَ يَجُوزه » ، إذا تعدَّاه . وإذا عُدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة ، وُصف بأنه « مجاز » ، على معنى أنهم جازوا به موضعَه الأصلىَّ ، أو جاز هو مكانه الذى وُضع فيه أوَّلا .

ثُمَّ اعلم بَعْدُ أنَّ فى إطلاق « المجاز » على اللفظ المنقول عن أصله شرطًا ، وهو أن يقع نَقْلُه على وجهٍ لا يَعْرَى معه من ملاحظة الأصل . ومعنى « الملاحظة » ، أن الاسم يقع لما تقول إنه مجاز فيه ، بسببٍ بينه وبين الذى تجعله حقيقةً فيه ، نحو أن « اليد » تقع للنعمة ، وأصلها الجارحة ، لأجل أن الاعتبارات اللغوية تتبع أحوالَ المخلوقين وعاداتِهم ، وما يقتضيه ظاهر البِنْيَة وموضوع الجِبِلّة ، ومن شأن النعمة أن تصدُر عن « اليد » ، ومنها تصل إلى المقصودِ بها . [وفى ذكر « اليد » إشارةٌ إلى مَصْدَرِ تلك النعمةِ الواصلةِ إلى المقصود بها] ، والموهوبةِ هى منه . (1)

وكذلك الحكم إذا أريد باليد القوة والقدرة / ، لأنَّ القدرة أكثر ما يظهر سُلطانها فى اليد ، وبها يكون البطشُ والأخذُ والدفعُ والمنعُ والجذبُ والضربُ والقطعُ ، وغيرُ ذلك من الأفاعيل التى تُخبر فَضْلَ إخبارٍ عن وجوه القُدْرة ، وتُنبىء عن مكانها ، ولذلك تجدهم لا يريدون باليد شيئًا لا ملابسة بينه وبين هذه الجارحة بوجهٍ .

(*) لظروف خاصة صورنا هذا النص –كما هو– من طبعة الأستاذ محمود شاكر للأسرار ، ولم نقم بصفّه من جديد .

– ولوجوب اعتبار هذه النكتة فى وصف اللّفظ بأنه « مجاز » ، لم يَجُز استعماله فى الألفاظ التى يقع فيها اشتراك من غير سبب يكون بين المشترِكَيْن ، كبعض الأسماء المجموعة فى المَلاحن ، [١] مِثْلُ أن « الثَّوْرَ » يكون اسما للقطعة الكبيرة من الأَقِطِ ، [٢] و « النهار » اسمٌ لفرخ الحُبَارَى ، و « الليل » ، لولد الكَرَوان ، كما قال : [من المتقارب]

أكَلْتُ النَّهار بِنِصْفِ النَّهارِ   ولَيْلًا أكلتُ بلَيْلٍ بَهِيم

وذلك أن اسم « الثور » لم يقع على الأقط لأمرٍ بينه وبين الحيوان المعلوم ، ولا « النهار » على الفرخ لأمرٍ بينه وبين ضوء الشمس ، أدّاه إليه وساقه نحوه .

• • •

– والغرضُ المقصود بهذه العبارة = أعنى قولَنا : « المجازُ » = أن نبيّن أن للّفظ أصلًا مبدوءًا به فى الوضع ومقصودًا ، وأنَّ جريه على الثانى إنما هو على سبيل الحُكْم يتأدّى إلى الشىء من غيره ، وكما يعبَق الشىءُ برائحةِ ما يجاورُه ، وَيَنْصَبِغ بلونِ ما يدانيه . ولذلك لم ترهم يُطلقون « المجاز » فى الأعلام ، إطلاقَهم لفظ النَّقل فيها حيث قالوا : « العَلَمُ على ضربين : منقولٌ ومرتجلٌ ، وأن المنقول منها يكون منقولًا عن اسم جنسٍ ، كأسد وثور وزيد وعمرو = أو صفةٍ ، كعاصم وحارث ، أو فعل ، كيزيد ويشكر = / أو صَوْتٍ كبَبَّة ، فأثبتوا لهذا كله النَّقل من غير العَلَمية إلى العلمية ، ولم يروا أن يصفوه بالمجاز فيقولوا مثلًا :

---

(١) « الملاحن » ، قال أبو بكر بن دريد فى أول كتابه « الملاحن » : « وقد اشتققنا له هذا الاسم من اللغة العربية الفصيحة التى لا يشوبها كدر » ثم قال : « ومعنى قولنا الملاحن ، لأن اللَّحن عند العرب الفطنة » ، يعنى ما فيه من الإيماء والتعريض والاشتراك أيضًا .

(٢) « الأقط » ، الجبن المتخذ من اللبن الحامض .

إن « يشكر » حقيقة فى مضارع « شَكَرَ » ، ومجاز فى كونه آسم رجل = وأن « حَجَرًا » حقيقة فى الجماد ، ومجازٌ فى آسم الرجل . وذلك أن « الحجر » لم يقع اسمًا للرجل لالتباسٍ كان بينه وبين الصخر ، على حسب ما كان بين اليد والنعمة ، وبينها وبين القدرة = ولا كما كان بين الظَّهر الحامل وبين المحمول فى نحو تسميتهم المزادة « زاوية » ، وهى اسم للبعير الذى يحملها فى الأصل = وكتسميتهم البعير « حَفَضًا » ، وهو آسم لمتاع البيت الذى يُحمَل عليه = ولا كنحو ما بين الجزء من الشخص وبين جملة الشخص ، كتسميتهم الرجل « عَيْنًا » ، إذا كان ربيئةً ، والناقةَ « نابًا » = ولا كما بين النَّبت والغيث ، وبين السماء والمطر ، حيث قالوا : « رعينا الغيثَ » ، يريدون النبتَ الذى الغيث سببٌ فى كونه = وقالوا : « أصابنا السماء » ، يريدون المطر . وقال : [من الرجز]

* تَلُفُّهُ الأَرْوَاحُ والسُّمِىُّ * [1]

= وذلك أن فى هذا كله تأوُّلًا ، وهو الذى أفضى بالاسم إلى ما ليس بأصل فيه = « فالعين » لما كانت المقصودة فى كون الرجل ربيئةً ، صارت كأنها الشخص كلُّه ، إذْ كان ما عداها لا يُغنى شيئًا مع فقدها = و « الغيث » ، لمَّا كان النبت يكون عنه ، صار كأنه هو = و « المطر » لما كان ينزل من السماء ، عبروا عنه بآسمها .

* * *

– وآعلم أن هذه الأسباب الكائنةَ بين المنقول والمنقول عنه ، تختلّف فى القوة والضعف والظهور وخلافه . فهذه / الأسماء التى ذكرتها ،

---

(١) للعجاج فى ديوانه ، من يائيته المشهورة ، والبيت فى صفة ثور الوحش وقد غمره المطر . و « السُّمِىّ » ، الأمطار ، جمع « سماء » .

إذا نظرتَ إلى المعانى التى وصلت بين ما هى له ، وبين ما رُدَّت إليه ، وجدتها أقوى من نحو ما تراه فى تسميتهم الشاةَ التى تُذبَح عن الصبىّ إذا حُلِقَتْ عقيقتُه ، عقيقةً = (١) وتجد حالها بعدُ أقوى من حال « العَقِيرة » ، (٢) فى وقوعها للصوت فى قولهم : « رَفع عَقِيرته » ، وذلك أنّه شىء جرى آتفاقًا ، ولا معنى يصل بين الصَّوت وبين الرِّجْل المعقورة .

= على أن القياس يقتضى أن لا يسمَّى « مجازًا » ، ولكن يُجرَى مُجْرَى الشىء يُحكَى بعد وُقُوعه ، كالمَثَل إذا حُكى فيه كلامٌ صَدَر عن قائله من غير قَصْدٍ إلى قياس وتشبيه ، بل للإخبار عن أمر مَن قَصَده بالخطابِ كقولهم : « الصَّيْفَ ضَيَّعَتِ اللَّبن » ، (٣) ولهذا الموضع تحقيق لا يتمّ إلّا بأن يوضع له فصل مُفْرَدٌ .

والمقصود الآن غير ذلك ، لأن قصدى فى هذا الفَصْل أن أبيِّن أن « المجازَ » أعمُّ من « الاستعارة » ، وأن الصحيح من القضيّة فى ذلك : أن كلَّ استعارةٍ مجازٌ ، وليس كلُّ مجازٍ استعارة . وذلك أنّا نرى كلامَ العارفين بهذا الشأن = أعنى علم الخطابة ونَقْدِ الشعر = والذين وضعوا الكتب فى أقسام البديع ، يجرى على أن « الاستعارة » نقلُ الاسم عن أصله إلى غيره للتشبيه على حدِّ المبالغة .

• • •

---

(١) « عقيقة المولود » ، هى الشعر الذى يكون على رأسه حين يولد .

(٢) « العقيرة » ، الرِّجل المعقورة ، وأصل ذلك أن رجلًا عُقِرت رجله ، فوضع العقيرة على الصحيحة ، وبكى عليها بأعلى صوته ، فقيل : « رفع عقيرته » .

(٣) هو مثل فى جميع كتب الأمثال . ويضربُ مثلًا للرجُل يضيِّع الأمر ، ثم يريد استدراكه ، وهو لا يقال إلّا بكسر التاء هى « ضيَّعْتِ » وإن خاطبت مذكرًا ، لا يغيّر عن صيغته ، وأصله خطابٌ لامرأة فى خبر هذا المثل .

– قال القاضى أبو الحسن فى أثناء فَصْلٍ يذكرها فيه : « ومِلاكُ الاستعارة ، تقريب الشَّبه ، ومناسبة المستعار / للمستعار منه » . [١] وهكذا تراهم يعدّونها فى أقسام البديع ، حيث يُذكر « التجنيس » و « التطبيق » و « التوشيح » و « ردُّ العجز على الصدر » وغير ذلك ، من غير أن يشترطوا شرطًا ، ويُعقِبُوا ذِكرَها بتقييد فيقولوا : « ومن البديع الاستعارةُ التى من شأنها كذا » . فلولا أنها عندهم لنَقْل الاسم بشرط التشبيه على المبالغة ، إمَّا قَطْعًا وإمَّا قريبًا من المقطوع عليه ، لما استجازوا ذكرها مطلقةً غير مقيّدة .

يبيِّن ذلك أنها إن كانت تُساوِقُ المجازَ وتجرى مَجْراه حتى تصلح لكل ما يصلح له ، فذِكْرُها فى أقسام البديع يقتضى أن كل موصوف بأنه مجازٌ ، فهو بديع عندهم ، حتى يكون إجراءُ « اليد » على النعمة بديعًا ، وتسمية البعير « حَفَضًا » ، والناقةِ « نابًا » ، والربيئةِ « عينًا » ، والشاةِ « عقيقةً » ، بديعًا كله ، [٢] وذلك بيِّن الفساد .

• • •

– وأمَّا ما تجده فى كتب اللغة من إدخال ما ليس طريقُ نقله التشبيه فى الاستعارة ، كما صنع أبو بكر بن دريد فى الجمهرة ، [٣] فإنه ابتدأ بَابًا فقال : « باب الاستعارات » ثم ذكر فيه : أن « الوغَى » اختلاط الأصوات فى الحرب ، ثم كَثُر وصارت الحرب « وَغًى » ، وأنشد : [من السريع]

---

(١) انظر دلائل الإعجاز رقم : ٥١١ ، والتعليق عليه ص ٤٣٤ ، رقم : ٤ ، وهذا النص هنا هو فى الوساطة ص : ٤٠ (طبعة صيدا) .

(٢) انظر رقم : ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

(٣) انظر الجمهرة لابن دريد ٣ : ٤٣٢ ، ٤٣٣ .

إِضْمَامَةٌ مِن ذَوْدِها الثَّلاثينْ   لَهَا وغًى مِثْل وَغَى الثَّمانينْ (١)

يعنى اختلاط أصواتها = وذكر قولهم : « رعَيْنَا الغيث والسَّماء » ، يعنى المطر = وذكر ما هو أبعد من ذلك فقال : « الخُرْس » ، ما تُطْعَمُه النُّفَساء ، ثم صارت الدَّعوة للولادة « خُرْسًا » = و « الإعذار » الختان ، وسُمِّى الطعام للختان إعْذَارًا = وأن « الظعينة » أصلها المرأة فى / الهَوْدَج ، ثم صار البعير والهودج ظَعِينَةً = و « الخَطْرُ » ضرب البعير بذنبه جانبى وَرِكيه ، ثم صار ما لصِق من البول بالوركين خَطْرًا = وذكر أيضا « الرَّاوية » بمعنى المزادة ، و « العقيقةَ » .

وذكر فيما بين ذِكْرِه لهذه الكلم أشياءَ هى استعارةٌ على الحقيقة ، على طريقة أهل الخطابة ونقد الشعر ، لأنه قال : « الظمأ » ، العطشُ وشهوةُ الماء ، ثم كثر ذلك حتى قالوا : « ظمِئتُ إلى لقائك » = وقال : « الوَجُورُ » ما أوجرته الإنسان من دَواءٍ أو غيرِه ، ثم قالوا : « أَوْجَره الرمحَ » ، إذا طعنه فى فيه .

فالوجه فى هذا الذى رأوه من إطلاق « الاستعارة » على ما هو تشبيه ، كما هو شرط أهل العلم بالشعر ، وعلى ما ليس من التشبيه فى شىءٍ ، ولكنه نقلُ اللفظ عن الشىء إلى الشىء بسبب اختصاصٍ وضربٍ من الملابسة بينهما ، وخَلْطِ أحدهما بالآخر = (٢) أنهم كانوا نظروا إلى ما يتعارفه الناس فى معنى العاريَّة ، وأنها شىءٌ حُوِّل عن مالكه ونُقل عن مقرّه الذى هو أصلٌ فى استحقاقه ، إلى ما ليس بأصل ، ولم يُراعوا عُرْف القوم . ووِزانهم فى ذلك وِزَانُ من يترك عُرف النحويين فى « التمييز » ، واختصاصهم له بما احتمل أجناسًا مختلفةً كالمقادير

---

(١) « الإضمامة » ، الجماعة ينضم بعضهم إلى بعض .

(٢) السياق : « فالوجه فى هذا ... أنهم كانوا نظروا .... » .

والأعداد وما شاركهما ، فى أن الإبهام الذى يراد كشْفُه منه هو احتماله الأجناس ، فيُسمَّى الحالَ مثلًا تمييزًا ، من حيث أنك إذا قلت : « راكبًا » ، فقد ميَّزت المقصود وبيّنته ، كما فعلت ذلك فى قولك : « عشرون درهمًا » و « مَنَوَانِ سمنًا » و « قَفِيزان بُرًّا » و « لى مثلُهُ رجلًا » و « لله درُّه رجلًا » .

/ وليس هذا المذهب بالمذهب المرضىّ ، بل الصواب أن تُقصَر « الاستعارة » على ما نقْلُه نَقْلُ التشبيه للمبالغة ، لأن هذا نقلٌ يَطّرد على حدٍّ واحد ، وله فوائد عظيمة ونتائج شريفة ، فالتطفُّل به على غيره فى الذكر ، وتركُه مغمورًا فيما بين أشياءَ ليس لها فى نقلها مِثْلُ نظامه ولا أمثالُ فوائده ، ضعفٌ من الرأى وتقصيرٌ فى النظر .

• • •

- وربما وَقع فى كلام العلماء بهذا الشأن « الاستعارةُ » على تلك الطريقة العامّية ، إلا أنه لا يكون عند ذكر القوانين وحيث تُقرَّرُ الأصول . ومثاله أن أبا القاسم الآمدى قال فى أثناء فصل يُجيب فيه عن شيءٍ اعتُرِض به على البحترى فى قوله : [من الكامل]

فكأنَّ مَجْلِسَهُ المُحجَّبَ مَحْفِلٌ   وكأنَّ خَلْوَتَه الخفيَّةَ مَشْهَدُ (١)

= أن المكانَ لا يسمَّى مجلسًا إلّا وفيه قوم . ثم قال : « ألا ترى إلى قول مُهَلْهِل : [من الكامل]

« وآستَبَّ بَعْدَك يا كُلَيْبُ المجلس » (٢)

---

(١) هو فى ديوانه .

(٢) هو من شعره فى رثاء أخيه كليب ، وكان قتله سبب حرب البسوس ، وصدر البيت :

« نُبِّئت أنّ النارَ بعدك أُوقِدتْ »

وأبياته فى شرح الحماسة ٢ : ١٩٧ وغيره .

على الاستعارة » ، [١] فأطلق لفظ « الاستعارة » على وقوع « المجلس » هنا ، بمعنى القوم الذين يجتمعون فى الأمور ، وليس « المجلس » إذا وقع على القوم من طريق التشبيه ، بل على حدِّ وقوع الشيء على ما يتَّصلُ به ، وتكثُر ملابَستُه إياه . وأىُّ شبه يكون بين القوم ومكانهم الذى يجتمعون فيه ؟ إلّا أنه لا يُعتدُّ بمثل هذا ، فإنّ ذلك قد يتّفق حيث تُرسَل العبارة .

وقال الآمدىُّ نفسه : « ثم قد يأتى فى الشعر ثلاثة أنواع أُخَر ، يكتسى المعنى العامّ بها بهاءً / وحسنًا ، حتى يخرج بعد عمومه إلى أن يصير مخصوصًا = ثم قال : وهذه الأنواع هى التى وقع عليها آسم البَديع ، وهى الاستعارة والطباق والتجنيس » . [٢]

فهذا نصٌّ فى موضع القوانين على أن « الاستعارة » من أقسام البديع ، ولن يكون النَّقلُ بديعًا حتى يكون من أجل التشبيه على المبالغة كما بيَّنتُ لك . وإذا كان كذلك ، ثم جعل « الاستعارة » على الإطلاق بديعًا ، فقد أعلمك أنها آسم للضرب المخصوص من النَّقل دون كُلِّ نَقْل ، فآعرفه .

– وآعلم أنَّا إذا أنعمنا النظر ، وجدنا المنقول من أجل التشبيه على المبالغة ، أحقُّ بأن يوصف بالاستعارة من طريق المعنى .

---

(١) نصّ كلام أبى القاسم الآمدى فى الموازنة ١ : ٣٧٢ .

(٢) هذا الأخير لم أوفق الآن إلى الوقوف عليه بتمامه فى الأجزاء الثلاثة من الموازنة ، ولكنى رأيت فى الجزء الأوّل : ١٤ ، وهو يذكر مسلم بن الوليد ومذهبه فقال : « ولكنه رأى هذه الأنواع التى وقع عليها اسم البديع ، وهى الاستعارة والطباق والتجنيس ، منثورة متفرقة فى أشعار المتقدمين ، فقصدها . وأكثر فى شعره منها » .

بيان ذلك : أن مِلك المُعِير لا يزول عن المستعار ، واستحقاقُه إيّاه لا يرتفع . فالعاريّة إنما كانت عاريّةً ، لأن يَدَ المستعير يدٌ عليها ، ما دامت يدُ المعير باقية ، ومِلْكه غيرُ زائل ، فلا يُتصوَّر أن يكون للمستعير تصرُّفٌ لم يستفده من المالك الذى أعاره ، ولا أنْ تستقرّ يدُه مع زوالِ اليد المنقول عنها ، وهذه جملةٌ لا تراها إلّا فى المنقول نقلَ التشبيه ، لأنك لا تستطيع أن تتصوَّر جَرْىَ الاسم على الفَرْع من غير أن تُحوِجَه إلى الأصل . كيف ؟ ولا يُعقَل تشبيهٌ حتى يكون ههنا مشبَّه ومشبَّه به . هذا ، والتشبيه ساذَجٌ مُرْسل ، فكيف إذا كان على معنى المبالغة ، وعلى أن يُجعل الثانى كأنه آنقلب مثلًا إلى جنس الأوَّل ، فصار الرجلُ أسدًا وبَحرًا وبدرًا ، / والعلم نُورًا ، والجهلُ ظلمةً ، لأنّه إذا كان على هذا الوجه ، كانت حاجتُك إلى أن تنظر به إلى الأصل أَمَسَّ ، لأنه إذا لم يُتَصوَّر أنْ يكون ههنا سبعٌ من شأنه الجرأة العظيمةُ والبطشُ الشديد ، كان تقديرك شيئًا آخر تَحوَّل إلى صفته وصار فى حكمه ، من أبعد المُحال .

• • •

– وأمّا ما كان منقولًا لا لأجل التشبيه ، كاليد فى نقلها إلى النعمة ، فلا يوجد ذلك فيه ، لأنك لا تُثبت للنعمة بإجراء اسم « اليد » عليها شيئًا من صفات الجارحة المعلومة ، ولا تروم تشبيهًا بها البتة ، لا مبالغًا ولا غير مبالغ . فلو فرضنا أن تكون « اليد » آسمًا وضع للنعمة ابتداءً ، ثم نُقلت إلى الجارحة ، لم يكن ذلك مستحيلًا . وكذلك لو ادّعَى مدَّعٍ أنّ جَرْىَ اليد على النعمة أصلٌ ولغةٌ على حِدَتها ، وليست مجازًا ، لم يكن مدَّعيًا شيئًا يحيله العقلُ . ولو حاول مُحاولٌ أن يقول فى مسئلتنا قولًا شبيهًا بهذا ، فرام تقدير شيء يجرى عليه آسم الأسد على المعنى الذى يريده بالاستعارة ، مع فقد السبُع المعلوم ،

ومن غير أن يسبقَ استحقاقه لهذا الاسم فى وضع اللغة ، رام شيئًا فى غاية البعد .

• • •

– وعبارةٌ أخرى : العاريّة من شأنها أن تكون عند المستعير على صفةٍ شبيهةٍ بصفتها وهى عند المالك ، ولسنا نجد هذه الصورة إلا فيما نُقل نَقْلَ التشبيه للمبالغة دون ما سواه . ألا ترى أن الاسم المستعار يتناول المستعارَ له ، ليدلَّ على مشاركته المستعار / منه فى صفةٍ هى أخصُّ الصفات التى من أجلها وُضع الاسم الأول ؟ = أعنى أن الشجاعة أقوى المعانى التى من أجلها سُمّى الأسد أسدًا ، وأنت تستعير الاسم للشىء على معنى إثباتها له على حدّها فى الأسد .

فأما « اليد » ونقلُها إلى النعمة ، فليست من هذا فى شىءٍ ، لأنها لم تتناول النعمةَ لتدلَّ على صفة من صفات اليد بحال . ويحرِّر ذلك نكتةٌ : وهى أنك تريد بقولك : « رأيت أسدًا » ، أن تُثبتَ للرجل الأسدية ، ولست تريد بقولك : « له عندى يَدٌ » ، أن تُثبت للنعمة اليديّة ، وهذا واضحٌ جدًّا .

• • •

واعلم أنَّ الواجب كان أن لا أَعُدَّ وضع « الشفةِ » موضع « الجحفلة » ، و « الجحفلة » فى مكان « المِشْفَر » ، ونظائره التى قدّمتُ ذكرها فى الاستعارة ، وأَضَنَّ باسمها أن يقع عليه ، ولكنى رأيتُهم قد خَلَطوه بالاستعارات وعَدُّوه مَعَدَّها ، فكرِهتُ التشدّد فى الخلاف ، واعتددت به فى الجملة ، ونبَّهت على ضعف أمره بأن سمّيتُه « استعارةً غير مُفيدة » .

المَجَازُ المُرْسَلُ

من كتاب (الإيضاح) للقزوينى

أضرب المجاز

والمجازُ ضَرْبان: مُرسَلٌ ، واستعارةٌ ؛ لأن العلاقة المُصحِّحةَ إن كانت تشبيهَ معناه بما هو موضوع له فهو استعارة ، وإلا فهو مُرْسَل .

وكثيرًا ما تُطْلَق الاستعارةُ على استعمال اسم المشبه به فى المشبه، فيسمى المشبه به مُستعارًا منه، والمشبه مُستعارًا له، واللفظ مستعارًا .

المجاز المرسل

الضرب الأول : المرْسَل، وهو ما كانت العلاقةُ بين ما استعمل فيه وما وُضع له **ملابَسَةً غيرَ التشبيه** ،كاليَد إذا استُعملَتْ فى النِّعمة؛ لأن من شأنها أن تَصْدُرَ عن الجارحة، ومنها تَصِل إلى المقصود بها، ويُشْتَرَطُ أن يكون **فى الكلام إشارةٌ إلى المُولِى لها**؛ فلا يقال: اتَّسَعَت اليَدُ فى البلد ، أو اقتنَيْت يدًا، كما يقال: اتَّسَعَت النعمةُ فى البلد ، أو : اقتنَيْتُ نعمةً ، وإنما يقال : جلَّتْ يَدُهُ عندى ، وكثُرَتْ أياديه لدَىَّ ، ونحو ذلك .

ونظير هذا قولهم فى صفة راعى الإبل : **إن له عليها إصبعًا**، أرادوا أن يقولوا : له عليها أثَرُ حذْق، فدلوا عليه بالإصبع؛ لأنه ما من حذْق فى عمل يَد إلا وهو مستفاد من حُسْن تصريف الأصابع، واللُّطف فى رَفعها ووَضعها، كما فى الْخَطِّ والنَّقْش ، وعلى ذلك قيل فى تفسير قوله تعالى: ﴿بَلَى قادرِينَ عَلَى أنْ نُسَوِّىَ بَنَانَهُ﴾ أى: نجعلها كخُفِّ البعير؛ فلا يتمكن من الأعمال اللطيفة، فأرادوا بالإصبع **الأثرَ الحسَنَ**، حيث يُقْصَد الإشارة إلى حذْق فى الصنعة، لا مُطْلَقًا حتى يقالَ: رأيتُ أصابعَ الدار، وله إصبعٌ حسنَةٌ وإصبعٌ قبيحةٌ، على معنى له أثَرٌ حَسَنٌ وأثرٌ قَبِيحٌ ، ونحو ذلك .

وَيَنْظُرُ إلى هذا قولُهم : ضـربْتُه سَوْطًا؛ لأنهم عـبَّروا عن الضربة الواقـعة بالسَّوْط باسم السَّوْط؛ فجعلوا أثر السوط سـوطًا، وتفسيرهم له بقولهم: المعنى ضربْتُه ضربةً بالسوط ؛ بيانٌ لما كان الكلام عليه فى أصله .

ونظيرُ قولنا «له عَلَىَّ يَدٌ» قولُ النبى ﷺ لأزواجـه « أسْرَعُكُنَّ لُحُوقًا - ويُرْوَى لحاقًا - بى أطْوَلُـكُنَّ يَدًا » وقوله: «أطولكن» نظيرُ ترشيح الاسـتعارة ، ولا بأسَ أن يُسَمَّى ترشيحَ المجاز، والمعنى بسطُ الْيَد بالعطاء .

وقيل : قوله «أطولكن» من الطَّوْل بمعنى الفَـضْل، يقال: لفُلان على فُلاَن طَوْلٌ ، أى: فَضْل؛ فاليد على هذين الوجهين بمعنى النِّعمة .

ويحتَـمِل أن يريد: أطولكن يَدًا بالعطاء ، أى : أمدُّكُنَّ ، فحـذف قوله : «بالعطاء» للعلم به .

وكاليد أيضا إذا استُعملَت فى القُدْرة؛ لأن أكثر ما يظهر سلطانها فى اليد، وبها يكون البطشُ، والضـربُ، والقطعُ، والأخذُ، والدفعُ، والوضعُ، والرفعُ، وغيرُ ذلك من الأفعال التى تنبئُ عن وجوه القدْرة ومكانها .

وأما اليد فى قول النبى ﷺ : « المؤمنون تتكافـأ دماؤهم ويسعى بذمَّتهم أدناهم ، وهم يدٌ على مَنْ سواهم» فهو استـعارةٌ، والمعنى أن مَثَلَهم مع كثرتهم فى وجوب الاتّفـاق بينهم مَثَلُ اليد الواحـدة، فكما لا يُتصـوَّر أن يخذلَ بعضُ أجزاء اليد بعضًا ، وأن تختلف بها الجهة فى التصرُّف؛ كذلك سبيلُ المؤمنين فى تعاضدهم على المشركين؛ لأن كلمة التوحيد جامعةٌ لهم .

وكالراويَة للمزَادَة[1] مع كونها للبعير الحـامل لها؛ لحمله إياها، وكالخَفْضِ فى البعير، مع كـونه لمتاع البيت؛ لحمله إياه، وكالسمـاء فى الغيث، كقوله : أصابتنا السماء؛ لكونه من جهَة المُظلَّة، وكالإكاف فى قول الشاعر :

«يأكُلْنَ كلَّ ليلةٍ إكافا»[2]

أى : عَلَفًا بثمن الإكاف.

(١) المزادة : وعاء من جلد يحمل به الماء .

(٢) الإكاف : البرذعة . والضمير للأحمرة التى يصفها أبو حزابة الوليد بن حنيفة في قوله قبله :

«إنّ لنا أحمرة عجافا» .

وجوه أخرى للمجاز المرسل :

وهذا الضرب من المجاز يقع على وجوه كثيرة غير ما ذكرنا.

التجوّز باسم الجزء عن الكلّ :

منها : **تسمية الشيء باسم جُزْئه**، كالعين فى الرَّبيئة[1] ؛ لكون الجارحة المخصوصة هى المقصود فى كون الرجل رَبيئةً؛ إذ ما عداها لا يُغْنى شيئًا مع فقدها ، فصارت كأنها الشخصُ كلُّه .

وعليه قوله تعالى : ﴿قُم اللّيْلَ إلاّ قَليلاً﴾[2] أى : صَلِّ ، ونحوه ﴿لا تَقُمْ فيهِ أبَدًا﴾[3] أى : لا تُصَلِّ، وقول النبى عليه السلام: «من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تَقدَّم من ذنبه» أى : من صَلَّى .

وباسم الكلّ عن الجزء

ومنها عكس ذلك نحو: ﴿يَجْعَلُونَ أصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ﴾[4] أى: أناملَهم، وعليه قولهم: قطعْتُ السارقَ، وإنما قطعتَ يَدَه .

وباسم السبب عن المسبَّب

ومنها: تسمية المسبَّب باسم السبب، كقولهم: رعَيْنا الغيثَ، إى: النباتَ الذى سببُه الغيثُ .

وعليه قوله عز وجل :﴿فَمَن اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[5] سُمِّىَ جزاءُ الاعتداء اعتداءً لأنه مُسبَّبٌ عن الاعتداء.

وقوله تعالى : ﴿وَنَبْلُوَ أخْبَارَكُمْ﴾[6] تُجُوِّزَ بالبلاء عن العِرْفان؛ لأنه[أى العرفان] مَسبَّب عنه ، كأنه قيل : ونعرف أخباركم .

---

(١) الربيئة : طليعة الجيش .

(٢) الآية ٢ من سورة المزمل .

(٣) بعض الآية ١٠٨ من سورة التوبة وبعده (لمسجدٌ أسِّس على التقوى من أوّل يوم أحقّ أن تقومَ فيه).

(٤) بعض الآية ١٧ من سورة البقرة .

(٥) بعض الآية ١٩٤ من سورة البقرة .

(٦) بعض الآية ٣١ من سورة محمد .

وعليه قولُ عَمْرِو بْنِ كُلْثُوم :

ألا لا يجهلَنْ أحدٌ علينـــــا فنجهلَ فوقَ جَهْلِ الجاهلينا[١]

الجهل الأول حقيقة، والثانى مجازٌ عبَّر به عن مكافأة الجهل .

وكذا قوله تعـالى: ﴿وَجَزاءُ سيِّئَةٍ سيِّئَـةٌ مِثْلُها﴾[٢] تُجُوِّزَ بلفظ السـيئة عن الاقتصاص ؛ لأنه مُسَبَّبٌ عنها .

قـيل: وإن عُبِّـر بهـا عمـا سـاء - أى : أحزن - لـم يكن مجـازًا؛ لأن الاقتصاص مُحْزِنٌ فى الحقيقة كالجناية .

وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ﴾[٣] تُجُوِّزَ بلفظ المكر عن عـقوبته ؛ لأنه سببها .

قيل: ويحتمل أن يكون مكـرُ الله حقيقةً؛ لأن المكر هو التدبير فـيما يضر الخصم ، وهذا مُحقَّق من الله تعالى، باستـدراجه إياهم بنعِمه مع ما أعدَّ لهم من نِقَمِه.

وباسم المسبَّب عن السبب

ومنها : تسمية السبَب باسم المسبَّب ، كقولهم : أمطرَتِ السماء نباتًا.

وعليه قولهم: « كما تَدِين تُدان» أى : كما تفعل تُجازَى .

وكذا لفظ الأسنمة فى قوله يصف غيثًا :

أقبل فى المُستَنِّ من رَبابـه أسْنِمَةُ الآبالِ فى سَحابه[٤]

وكذا تفسير إنزال أزواج الأنعـام فى قوله تعالى : ﴿وأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأنْعَامِ

---

(١) الجهل فى البيت بمعنى السفه والطيش، لا عدم المعرفة وما يقابل العلم، وعمرو بن كلثوم من أصحاب المعلقات وإن كان مقلا .

(٢) بعض الآية ٤٠ من سورة الشورى .

(٣) بعض الآية ٥٤ من سورة آل عمران .

(٤) المستن : الواضح ، أو المنصب باعتبار ما سيكون . الرباب : السحاب الأبيض . الأسنمة : جمع سنام. الآبال: جمع إبل ، وهي الجمال .

ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾[(١)] بإنزال الماء على وَجْهٍ؛ لأنها لا تعيش إلا بالنبات ، والنباتُ لا يقوم إلا بالماء ، وقد أنزلَ الماءَ ، فكأنه أنزلها .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِم نَارًا﴾[(٢)]

وقوله : فلانٌ أكل الدَّمَ، أي : الدِّيَةَ التي هي مُسبَّبة عن الدم ، قال :

أكلتُ دمًا إن لم أرُعْكِ بضَـــرَّةٍ بعيدةِ مَهْوَى القُرْطِ طيِّبَةِ النَّشْرِ[(٣)]

وقوله تعالى : ﴿فَـإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْـتَعِذْ باللهِ﴾[(٤)] أي : أردت القـراءة بقرينة الفاء مع استفاضة السنة بتقديم الاستعاذة .

وقوله تعالى : ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ﴾[(٥)] أي : أراد ، بقرينة «فقال ربِّ» .

وقوله تعـالى : ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾[(٦)] أي: أردنا إهلاكهـا ؛ بقرينة «فجاءها بأسُنا» .

وكذا قـوله تعالى: ﴿مَـا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَـرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ بقريـنة ﴿أَ فَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ وفيه دلالة واضحة على الوعيد بالإهلاك؛ إذ لا يقع الإنكار في«أ فَهُمْ يُؤْمِنُون»في الْمَحَزِّ [أي في موضعه الأنسب] إلا بتقدير: «ونحن على أن نهلكهم» .

وباسم ما كان عليه الشيء

ومنها : تسمية الشيء باسم ما كان عليه ، كقوله عز وجل: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾ أي : الذين كانوا يتامى؛ إذ لا يُتْمَ بعد البلوغ .

وقوله : ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًـا﴾ سَمَّاه مجرمًا باعتبـار ما كان عليه في الدنيا من الإجرام .

---

(١) بعض الآية ٦ من سورة الزمر .

(٢) بعض الآية ١٠ من سورة النساء .

(٣) أرعك: أفزعك ، مـهوى القرط : مـسقطه ومكان تدليـه ، وهو ما يحاذي صـفحة الـعنق من أسفل شحمة الأذن إلي أعلى الكتف ، وإذا كان هذا المهوى بعيدًا كان العنق طويلا ، ولذلك كان كناية عن طول العنق ، والبيت من مختارات أبي تمام في ديوان الحماسة لبعض الأعراب من غيـر تعيين.

(٤) بعض الآية ٩٨ من سورة النحل .

(٥) بعض الآية ٤٥ من سورة هود .

(٦) بعض الآية ٤ من سورة الأعراف .

وباسم ما يؤول إليه

ومنها : تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه ، كقوله تعالى : ﴿إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا﴾[١] .

ملابسات أخرى للمجاز المرسل :

ومنها : **تسمية الحالِّ باسم مَحَلِّه** ، كقوله تعالى : ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾[٢] أى : أهلَ ناديه .

ومنها : **عكس ذلك** ، نحو ﴿أَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ اللهِ﴾[٣] أى : فى الجنة .

ومنها : **تسمية الشىء باسم آلَتِه**، كقوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ﴾[٤] أى بُلَغة قومه .

وقوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لِى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الآخِرِينَ﴾ أى : ذِكرًا جميلاً وثناءً حسَنًا . .

---

(١) بعض الآية ٣٦ من سورة يوسف .

(٢) الاية ١٧ من سورة العلق .

(٣) بعض الآية١٠٧ من سورة آل عمران .

(٤) بعض الآية ٤ من سورة إبراهيم .

الاستعارة

من كتاب (أنوار الربيع) لابن معصوم

ذَوَى وَرِيقُ شَبَابِى فى الغَرَامِ بِهِمْ مِنَ استعارةِ نارِ الشّوقِ والألَــم

اعلمْ أن الكلامَ فى الاستعارةِ وأنواعها مما أطلقَ البيانيّونَ فيه أعنةَ الأقلام ، حتى أفردها بعضُهم بالتأليف ، وليس الغــرضُ هنا استقصاء ذلك وإنما المقصودُ تقريبُها إلى الأفهام ، بتعريف يُزيل عنها الإبهــام، وذكرُ أقسامها ، باختصار ، مع إثبات شىء مما وقع منها فى محاسن النظم والنثر .

قالوا : زُوِّجَ المجازُ بالتشــبيه فتولّد بينهمــا الاستعارة ، فهى مجــاز علاقته المشابهة .

ويُقال فى تعريفها: اللفظُ المستــعملُ فيما شُبِّه بمعناه الأصلى ، كأسد فى قــولنا : رأيتُ أسدًا يَرْمى ، فأســدٌ استعارةٌ ، لأنه لفظٌ استُــعمل فى شُجاعٍ شُبِّه بالأســد الذى هو الحيوان المفترس ، وكثيرا مــا تُطلَقُ الاستعارةُ على فعْلِ المتكلم ، أعنى اســتعمالَ اسم المشــبَّه به فى المشبَّه ، فــيكونُ بمعنَى المصْدَرِ ويكون المتكلم مستعيــرًا، والمعنَى المشبه به مستعارًا منه ، والمعنى المشبــه مستعارًا له ، واللفظ المشبه به مستعارًا .

وقال بعضُهم: حقيقةُ الاستــعارة : أنْ تُستعارَ الكلمةُ من شىءٍ معروفٍ بها إلى شىءٍ لم يُعرفْ بهــا ، وحكمةُ ذلك إظهارُ الخــفىّ ،أو إيضاح الظاهرُ الذى ليس بجلىّ ، أو حُصولُ المبالغة ، أو المجموعُ. فــمثال إظهار الخفى قوله تعالى ﴿وإنّهُ فى أمِّ الكتابِ﴾[1] فإنّ حقيــقته : وإنه فى أصْلِ الكتاب، فاستُــعير لفظُ الأمِّ للأصل، لأن الأوْلادَ تنشــأ من الأمّ ، كمــا تنشــأ الفروعُ من الأصــول ، وحِكمة ذلك تمثــيلُ ما ليس بمرئىٍّ حتى يصــيرَ مرئيّــا، فينتقل الســامعُ من حدِّ السماع إلى حدِّ العيَان ، وذلك أبلغ فى البيان .

---

(١) سورة الزخرف ٤ .

ومثال إيضاح ما ليس بجلي ليصير جليا ، قوله تعالى ﴿وَاخْفِضْ لَهُما جَنَاحَ الذُّلِّ﴾[1] فإن المراد أمر الولد بالذل لوالديه رحمةً فاستعير للذل أولاً جانب ، ثم للجانب جناح ، وتقدير الاستعارة القريبة : واخفض لها جانب الذل. أى اخفض جانبك ذلا. وحكمة الاستعارة فى هذا جعل ما ليس بمرئى مرئيا، لأجل حسن البيان ، ولما كان المراد خفض جانب الولد للوالدين، بحيث لا يُبقى الولد من الذل لهما والاستكانة ممكنا احتيج فى الاستعارة إلى ما هو أبلغ من الأولى ، فاستعير لفظ الجناح لما فيه من المعانى التى لا تحصل من خفض الجانب ، لأن من يميل جانبُه إلى الجهة السفلى أدنى ميل ، صدق عليه أنه خفض جانبه ، والمراد خفض يلصق الجنب بالأرض ، ولا يحصل ذلك إلا بذكر الجناح كالطائر. ومثال المبالغة ﴿وَفَجَّرْنا الأرْضَ عُيونًا﴾[2] وحقيقته وفجرنا عيون الأرض، ولو عبر بذلك لم يكن فيه من المبالغة ما فى الأول المشعر بأن الأرض كلها صارت عيونا. انتهى .

وأركان الاستعارة ثلاثة : مستعارٌ منه ، ومستعارٌ له ، ومستعارٌ ، وقد تقدم بيانها.

وأقسامها كثيرة باعتبارات : فتنقسم باعتبار المستعارِ منه ، والمستعار له ، والوجْه الجامع لهما إلى خمسة أقسام .

أحدها ، استعارة محسوسٍ لمحْسوسٍ بوجهٍ محسوسٍ، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إذا تَنَفَّسَ﴾[3] استعير خروج النفس شيئًا فشيئًا لخروج النُّور من المشرق عند انشقاق الفجر قليلا قليلا بجامع التتابع على طريق التدريج ، وكل ذلك محسوس ، وقول الشاعر :

وورْدٍ جَنِيٍّ طالعَتْنَا خُدُودُهُ ... بِبِشْرٍ ونَشْرٍ يَبْعَثَانِ عَلَى السُّكْرِ

فالمستعارُ منه الوَجَنَاتُ الحُمْر ، والمستعار له ورَق الوَرْدِ ، بجامعِ الحُمْرةِ والجَميعُ مَحْسوس .

---

(١) سورة الإسراء ، ٢٤ .

(٢) سورة القمر من الآية ١٢ .

(٣) سورة التكوير ، ١٨ .

والثانى ، استعارةُ محسُوسٍ لمحسُوسٍ بوجْه عقلى ، وهى ألطف من الأولى ، ومثاله قوله تعالى ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيلُ نَسْلَخُ منهُ النَّهارَ﴾[1] فإنّ المستعارَ منه كَشْط الجلدِ وإزالتُه عن الشاةِ ونحوها ، والمستعارَ له كشْفُ الضَوْء عن مكانِ الليل . وهما حسيان ، والجامعُ لهما ما يُعقل من تَرَتّب أمر على آخر، وحصولهُ عقب حصوله كترتب ظهور اللحم على الكشط ، وظهور الظلمة على كشف الضوء ، والترتُّب أمر عقلى .

الثالث ، استعارةُ معقولٍ لمعقولٍ بوجه عقلى، قيل : وهى ألطفُ الاستعارات، ومثاله قوله تعالى﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنا هذا﴾[2] فإن المستعارَ منه الرقادُ، والمستعارَ له الموتُ، والجامعَ بينهما عدمُ ظهورِ الفعْل،والجَميع عقلىّ.

الرابع: استعارةُ محْسُوسٍ لمعقولٍ بوجْه عقلى ، ومثاله قوله تعالى : ﴿فَاصْدَعْ بِما تؤمَرَ﴾[3] فإن المستعارَ منه صَدْعُ الزجاجة ، وهو كسْرها ، وهو حسّىٌّ ، والمستعارَ له تبليغُ الرسالةِ وهو عقلى ، والجامع لهما التأثير وهو عقلى أيضا .

الخامس، استعارةُ معقولٍ لمحسوس بوجْه عقلى ، ومثاله قوله تعالى : ﴿إنَّا لَمَّا طَغَى الماءُ﴾[4] فإن المستعارَ له كثرة الماء وهى حسية والمستعارَ منه التكبُّر و هو عقلى ، والجامعَ الاستعلاءُ المفرط وهو عقلى أيضا .

وتنقسم باعتبار اللفظ إلى :

أصلية ، وهى ما كان اللفظُ المستعارُ فيها اسمَ جنس، كأسَدٍ وقيام وقُعُود، ومنه آية العجل[5] .

وتبعية ، وهى ما كان اللفظُ فيها غيرَ اسم الجنس كالفعل ،والمشتقات ،

---

(١) سورة يس ، ٣٧ .   (٢) سورة يس ، ٥٢ .

(٣) سورة الحجر، ٩٤ .

(٤) سورة الحاقة ، ١١ .

(٥) يقصد قوله تعالى ﴿ فأخرَجَ لهمْ عِجْلاً جسَدًا له خوارٌ ﴾ طه ٨٨

كسائر الآيات السابقة ، وكالحروف نحو قوله تعالى ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾(١) شبه ترتب العداوة والحزن على الالتقاط بترتب علته الغائبة عليه كالمحبة والتبنِّي ونحو ذلك، ثم استعمل في المشبه اللام الموضوعة للمشبه به .

وتنقسم باعتبار الطرفين إلى وفاقية وعنادية .

لأن اجتماعَ الطرفين فى شىء إن كان ممكنًا سُمِّيت **وفاقيّة**، نحو وأحيَيْنا، فى قوله تعالى ﴿أَوَ مَنْ كانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْناهُ﴾(٢) أى ضالا فهديناه. استعير الإحياء- وهوجَعْلُ الشَّىْء حيًا- للهداية التى هى الدلالة على طريق يوصِّل إلى المطلوب. والإحياءُ والهداية مما يمكن اجتماعُهُما فى شىء.

وإن كان ممتنعا سُمّيتْ **عنادية** ، وذلك كاستعارة المعدوم للموجود لانتفاء النفع به كما فى المعدوم ، ولا شك أن اجتماع الوجود والعدم فى شىء ممتنعٌ . وذلك كاستعارة اسم الميت للحىّ الجاهل ، فإن الموتَ والحياةَ ممتنعٌ اجتماعهما .

ومن العنادية : التهكميّة والتمْليحيّة، وهما ما استُعْمِل فى ضد أو نقيضٍ نحو قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾(٣) أى أنذرهم. استعيرت البشارة التى هى الإخبار بما يسرّ للإنذار الذى هو ضدّه، بإدخاله فى جنسها على سبيل التهكُّم ، وكذا قولك :(رأيت أسدًا) وأنت تريد جبَانًا على سبيل التمليح والطرافة .

وتنقسم باعتبار الجامع إلى عاميّة، وهى المبتذَلةُ لظهور الجامع فيها، نحو رأيتُ أسدا يرمى، **وخاصيّة** وهى الغريبة التى لا يظفرُ بها إلا من ارتفع عن طبقة العامة ، والاستعارات الواردة فى التنزيل كلها من هذا القبيل.

ومنه [أى من الضرب الخاصىّ الغريب] قول طُفَيْل الغَنَوىّ :

وجعلتُ كُورِى فوقَ نَاجِيَةٍ يقتاتُ شَحْمَ سَنَامِها الرَّحْلُ

---

(١) سورة القصص ، ٨

(٢) سورة الأنعام ، ١٢٢ .

(٣) سورة آل عمران ، ٢١ .

وموضع اللّطف والغرابة منه أنه استعار الاقتيات لإذهَابِ الرَّحْلِ شَحْمَ السّنام ، مع أن الشّحم يُقْتات .

ثم الغرابة قـد تكون فى نفس الشَّبَهِ، بأن يكون نَفْسُ التشـبيه غريبـا كقول يزيد بن مَسْلمـةَ بن عبد الملك يصف فرسًـا له ، بأنه مؤدّب ، وأنه إذا نزل عنه وألقى عنانه فى قَرَبُوسِ سَرْجِه وقَف مكانَهُ إلى أن يعود :

عوَّدتُه فيما أزورُ حَبائبـــــى إهْمالَهُ وكذاك كلُّ مخاطِــــرِ

فإذا احتَبَى قَرَبُوسَهُ بعنانــــه عَلَكَ الشكيمَ إلي انْصراف الزّائرِ

شبّه هيئة وقوعِ العنان فى موقعه من قَرَبُوس السّرْجِ بهيئةِ وقوع الثوبِ فى موقعه منْ رُكبة المحتَبى ، فجاءتْ الاستعارةُ غريبةً لغرابة الشّبَه .

وقد تحصل الغربةُ بتصرُّفٍ فى الاستعارةِ العاميّة

كقول كُثَيِّر عزة[١] وقيل غيره :

ولما قضيْنا مِنْ مِنًى كلَّ حاجــــةٍ ومسَّح بالأركانِ مَنْ هو ماســـــحُ

وشُدَّتْ عليَ دُهْمِ المَهَارَى رِحَالُنَـا ولمْ ينظر الغَادِى الذى هو رَائحُ[٢]

أخذْنَا بأطراف الأحاديث بيْنَـــــنَا وسَالتْ بأعنَاقِ المَطِىّ الأباطِـــحُ

استعارَ سَيَلانَ السُّيولِ الواقعة فى الأباطِحِ لسيْر الإبل سيْرًا حثيثا فى غاية السّرعة المشتملة على لِينٍ وسَلاسة[٣] ، والتشبيه فيـها ظاهر عاميّ لكنه تصرَّفَ فيه بما أفاده اللطف والغرابة حين أسند الفـعلَ وهو (سالت) إلى الأباطح دون المطـىّ أو أعناقـها ، حـتى أفاد أن الأباطـحَ امتـلأت من الإبل. وأدخلِ الأعناق فى السيْـرِ، لأنّ السرعةَ والبطءَ فى سـير الإبل يَظْهَـرَانِ غالبًا فى الأعناق، ويُتَـبيَّن أمرُهما فى الهَوادِى[٤]، وسائر الأجـزاء يَستَنِد إليها فى الحـركة ، ويتبعـها فى الثقل والخفة.

---

(١) هو أبو صخر كثير - بضم الكاف وتشديد الياء - بن عبد الرحمن ابن الأسود - المشهور بكثير عزة.

(٢) في الديوان (حدب المهارى) ،و(لم يعلم الغادى).

(٣) فى الأصل (وسلامته) .

(٤) الهوادى جمع هادية ، وهى مقدّمة كل شىء وأوله .

ومثل هذه الاستعارة فى الحُسْنِ وعُلُوِّ الطبقة فى هذه اللفظة بعينها [أى لفظة (سالت)] قولُ ابنِ المعتز:

سَالَتْ عليه شِعابُ الحَيِّ حين دَعَا أنصارَهُ بوجوهٍ كالدّنانيـــــــر[1]

أرادَ أنه مُطاع فى الحَيِّ، وأنهم يسرعون إلى نُصرته، وأنه لا يدعُوهم لِخَطْبٍ إلا أتوهُ وكثُروا عليه وازدحموا حوالَيْه، حتى تجدَهم كالسّيول، تجىء من ههنا وههنا، وتنصبّ من هذا المسِيل وذاك، حتى يغَصَّ بها الوادى ويطفَحَ منها. وهذا التشبيه ظاهرٌ معروف أيضاً، ولكنَّ حُسْنَ التّصَرُّف فيه أفادَهُ الغرابةَ بإسناد الفعل إلى الشّعاب دون الأنصار أو الوجوه، حتى أفاد أنّ الشعابَ امتلأت من الرجال، وكما أن إدخال الأعناق فى السيّر أكدّ الدقةَ والغرابةَ فى [المثال] الأول، أكّدها هنا تعديةُ الفعل إلى ضمير الممدوح بـ(عليه)، لأنه يؤكدّ مقصوده من كونه مطاعًا.

وكذا فى قوله:

فَرْعَاءُ إنْ نَهَضَتْ لِحَاجَتِهَـــا عَجِلَ القَضِيبُ وأبطأ الدِّعْصُ

فإن تشبيهَ القَوام بالقضيب، والرِّدف بالدِّعص، تشبيهٌ عامىٌّ مبتذل لكنّ وصفَه الأولَ بالعجلة والثانىَ بالبطءِ أفاده غرابةً ولطفا.

الاستعارة التمثيلية

وقد يكون وجهُ التشبيه فى الاستعارة منتزعًا من عدةِ أمور فتسمَّى الاستعارةُ تمثيليةً، والعَلَمُ فى ذلك [أى المثال الأشهر] ما كتبه الوليدُ بنُ يزيد لما بُويع بالخلافة إلى مروان بن محمد، وقد بلغه أنه متوقِّفٌ فى بيعته له: أما بعد فإنى أراك تقدِّم رِجْلاً وتؤخّر أخرى، فإذا أتاك كتابى هذا، فاعتمد على أيهما شئتَ والسلام. فشبَّه صورة تردّده فى المبايعة بصورة تردّد من قام ليذهب فى أمر، فتارة يريد الذهاب فيقدّم رِجْلا، وتارة لا يريده فيؤخر أخرى، فاستعمل الكلامَ

---

(١) لم أجد هذا البيت في الديوان.

الدالّ على هذه الصورة فى تلك، ووجْه الشَبه وهو الإقدام تارة والإحجام أخرى منتزع من عدة أمور كما ترى .

وإذا **تحقق معنى الاستعارة حِسًا أو عقلاً، سُمِّيَتْ تحقيقيَّة** لتحقُّق معناها فى الحس أو العقل؛ فالأول كقوله: (لدى أسدٍ شاكى السلاح)[١]؛ فإنّ الأسَدَ مستعار للرجل الشجاع، وهو أمر متحقِّق حسًا ، والثانى كقوله تعالى ﴿وأنزَلْنا إلَيْكُم نورًا﴾[٢] فإن النورَ مستعارٌ للبيان الواضح ، وهو أمرٌ متحقق عقلا .

الاستعارة بالكناية :

وقد يُضمَر التشبيه فى النفس فلا يصرَّحُ بشىءٍ من أركانه سوى المشبَّه[٣] ويُدَلُّ على ذلك التشبيه المضمر فى النفس بأن يُثْبَتَ للمشبه أمرٌ مختصٌ بالمشبه به ، **فيسمَّى ذلك التشبيهُ المضمرُ استعارةً بالكناية** ، ومكنيًا عنها، لأنه لم يصرَّحْ به ، بل دُلَّ عليه بذكر خواصِّه ولوازمه، **ويُسمَّى إثباتُ ذلك الأمرِ المختصِّ بالمشبَّه به استعارةً تخييلية**، لأنه قد استُعير للمشبهِ ذلك الأمرُ المختصّ بالمشبه به ، وبه يكون كمالُ المشبَّهِ به أو قِوامه فى وجه التشبيه لِيُتَخَيَّلَ أنّ المشبَّه من جنس المشبه به .

ثم ذلك الأمْرُ المختصُّ بالمشبّه به على ضربين ، أحدهما مالا يكمُل وجهُ التشبيه فى المشبه به بدونه ، والثانى ما به يكون قوام وجه الشبه فى المشبه به.

---

(١) هذا المثال من بيت لزهير بن أبى سُلمى هو :

لدى أسد شاكى السلاح مقذَّفٍ   له لِبَدٌ أظفارُه لم تُقلَّم

(٢) سورة النساء / ١٧٤.

(٣) (المشبَّه) من أركان التشبيه يقابله (المستعار له) من طرفى الاستعارة، ونظرًا لأن الاستعارة تقوم على علاقة المشابهة نلاحظ فى كلام البلاغيّين عنها استعمال مصطلحات التشبيه فى أحيان كثيرة .

فالاول كقول أبى ذُؤَيْب الهذلىّ:

وإذا المنيةُ أنشبَتْ أظْفَارَها ... ألفيْتَ كلَّ تميمةٍ لا تَنْفَـعُ

شبه المنيةَ فى نفسه بالسبع فى اغتيال النفوس بالقهر والغلبة، من غير تفرقة بين نَفَّـاع وضَرَّار ، ولا رقة لمرحـوم، ولا بُقْيـا على ذى فضـيلة، فأثبـت لها الأظفار التى لايكمل ذلك الاغتيال فى السبع بدونها تحقيقا للمبالغة فى التشبيه، فتشبيه المنية بالسبع استعارة بالكناية ، وإثبات الأظفار للمنية استعارةٌ تخييلية .

والثانى كقول العتبى :

فلئنْ نطقتُ بِشكْرِ برّكَ مُفصِحًا ... فلسانُ حَالِى بالشّكايَةِ أنْطَـــقُ

شبّـهَ الحالَ بإنســان متكلّمٍ بالـدلالة على المقصـود ، وهذا هو الاستـعارةُ بالكناية ، ثم أثبت للحالِ اللسانَ الذى به قِوام الدلالة فى الإنسان المتكلم وهذه الاستعــارةُ التخييلية . هذا مـا ذهب إليه الخطيب فى تفسير الاســتعارة بالكناية والتخييلية ، وبينه وبين السكاكى فى ذلك نزاع لا يتسع المجال لبيانه ، وكتبهما كافلة بذلك ، فمن أراده فعليه بها .

واعلم أنّ الاستـعارة تنقـسم باعتبـار آخر - غـير اعـتبـار اللفظ والطرفين والجامع- **إلى ثلاثة أقسام : مطلقة ومجردة ومرشحة .**

فالمطلقة، هى ما لم تُـقرن بصفـة ولا تفريع كـلام مما يلائم المستـعارَ أو المستعارَ منه نحو : عِنْدِى أسَدٌ ، والمراد بالصفة ، الصفةُ المعنوية لا النعت .

والمجرّدة ، هى ما قُرِن بما يلائم المستعار له كقول كثير :

غَمْرُ الرّداءِ إذَا تَبَسّم ضاحِكًا ... غَلِقَتْ بِضِحْكَتِه رِقَابُ المَـالِ

فإنه استعارَ الرداء للعطاء ، لأنه يصون عِرْض صاحبه كما يصونُ الرداء ما يُلقى عليه ، ثم وصـفه بالغَمْـر الذى يلائم العطاء لا الرداء ، فنظر إلى المستـعار له تجريدًا للاستعارة .

والمرشّحة ، هى ما قرن بما يلائم المستعارَ منه كقوله تعالى ﴿أولَئكَ الذِينَ اشْتَرَوا الضَّلالَةَ بِالْهُـدى فَمَا رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ﴾ فإنه استعار الاشـتراء للاستبدال

والاختيار ، ثم قرنها بما يلائم الاشتـراء من الربح والتجارة ، فنظر إلى المستعار منه .

وقد يجتمع التجريد والترشيح كما فى قول زهير :

لَدَى أسَدٍ شَاكِي السِّلاح مقذَّفٍ   له لِبَدٌ أظفارُهُ لم تُقلَّـــم

فقوله : (شـاكى السِّلاح) تجريد ، لأنه قُرِنَ بما يلائم المسـتعارَ له، أعنى الرجلَ الشجـاع. وقوله : مقذَّف إلى آخـر البيت ترشيح ، لأن هذه الصـفة إنما تلائم المستعارَ منه ، أعنى الأسد الحقيقى .

والترشـيح أبلغ من الإطلاق والتجـريد ، ومِنْ جَمْعِ التـجريد والترشيح لاشتماله على تحقيق المبالغة فى التشـبيه ، لأن فى الاستعارة مبالغة فيه . فترشيحها وتزيينهـا بما يلائم المستعارَ منه تحقيقٌ لذلك وتقويةٌ له ، ومبنىَ الاستعـارة على تناسى التشبيه وادّعـاء أنّ المستعارَ له عَيْنُ المسـتعارِ منه لا شىءٌ مشبَّه به ، حتى إنه يُبْنَى على عُلوِّ القدْر ما يُبنى على علو المكان .

كقول أبى تمام :

ويصعَدُ حتَى يظنَّ الجَهُولُ   بأنّ لهُ حاجةً فى السّمـاءِ

فإنه استعارَ الصعودَ لعلوِّ القَدْرِ ، ثم بنَى عليه ما يُبنَى على علوِّ المكان والارتقاء إلى السماء ، فـلولا أنّ قصدَه أنْ يتناسى التشـبيه ويصمِّمَ على إنكاره فـيجعلَه صاعدًا فى السماء من حيث المسافةُ المكانية لما كان لهذا الكلام وجه.

وكقوله أيضا :

خدَمَ العُلَى فخدمْنَه وهى التى   لا تخدم الأقوامَ ما لم تُخـدَم
وإذا ارتقَى من قُلّةٍ فى سُـؤدَدٍ   قالتْ له الأخرىَ بلغتَ تقـدَّمِ

الاستعارة بالكناية
من كتاب (الإيضاح)

فصل

في بيان الاستعارة بالكناية ، والاستعارة التَّخْييليَّة.

قد يُضمر التشبيه في النفس؛ فلا يُصرَّح بشيء من أركانه سوى لفظ المشبه، ويُدَلُّ عليه[1] بأن يُثْبَتَ للمشبه أمرٌ مُختصٌّ بالمشبه به ، من غير أن يكون هناك أمرٌ ثابت حسًا أو عقلا أُجْرِيَ عليه اسمُ ذلك الأمر؛ فيُسَمَّى التشبيهُ استعارةً بالكناية، أو مكْنيًا عنها، وإثباتُ ذلك الأمر للمشبه استعارة تخييلية، والْعَلَمُ في ذلك قول لَبِيد :

وغَداةِ ريحٍ قد كشفْتُ وقِــرَّةً ... إذ أصبحَتْ بِيَدِ الشَّمال زِمامُها[2]

فإنه جعل للشَّمال يَدًا، ومعلوم أنه ليس هناك أمر ثابت حسا أو عقلا تجرى اليد عليه، كإجراء الأسد على الرجل الشجاع، والصِّراطِ على مِلَّة الإسلام فيما سبق، ولكن لما شبَّه الشَّمال- لتصريفها القِرَّةَ على حكم طبيعتها في التصريف- بالإنسان المصرِّف لِمَا زِمامُه بيده، أثبتَ لها يدًا على سبيل التخييل؛ مبالغةً في تشبيهها به، وحكم الزمام -في استعارته للقِرَّة- حكم اليد في استعارتها للشَّمال؛ فجعل للقِرَّة زمامًا؛ ليكون أتمَّ في إثباتها مُصَرَّفَةً، كما جعل للشَّمال يَدًا، ليكون أبلغ في تصييرها مُتصرِّفة؛ فوفَّى المبالغَة حقَّها من الطرفين، فالضمير في «أصبحت» و «زمامها» للقِرَّة، وهو قول الزمخشري، والشيخ عبد القاهر جعله للغداة، والأول أظهر .

---

(١) عليه : أي على التشبيه المضمر في النفس .

(٢) كشفت: هزمت وأزلت وتغلبت عليها، ويروى : وزعت ، وكففت وكلاهما بمعنى واحد، والقصد في الجميع أنه لغناه يستطيع أن يتغلب على شدّة الشتاء. قرة : قر ، برد . الشمال : الريح الهابّة من جهة الشمال ، وهي أبرد الرياح . زمامها : قيادها .

واعلم أن الأمر المختصَّ بالمشبه به المثبتَ للمشبه ، منه ما لا يكمل وجه الشبه فى المشبه به بدونه ، كما فى قول أبى ذُؤَيْب الْهُذَلِىِّ :

وإذا المَنِيَّةُ أنشبَتْ أظفارَها ... ألفَيْتَ كُلَّ تَميمَةٍ لا تَنْفَعُ[1]

فإنه شبه المنية بالسبع، فى اغتيال النفوس بالقهر والغلبة ، من غير تفرقة بين نَفَّاعٍ وضَرَّارٍ، ولا رِقَّةٍ لمرحوم ، ولا بُقْيًا على ذى فضيلة؛ فأثبت للمنية الأظفارَ التى لا يكمل ذلك فى السبع بدونها ؛ تحقيقًا للمبالغة فى التشبيه.

ومنه ما به يكون قوام وجه الشبه فى المشبه به ، كما فى قول الآخر :

ولَئِنْ نَطَقْتُ بشكر بِرِّكَ مُفْصِحًا ... فلسانُ حالى بالشكايَةِ أنْطَقُ

فإنه شبه الحالَ الدالةَ على المقصود بإنسان مُتكلِّم فى الدلالة؛ فأثبت لها اللسانَ الذى به قوام الدلالة فى الإنسان .

(١) أنشبت أظفارها : أعلقتها بها وأغمدتها فيها . ألفيت: وجدت. التميمة الخرزة وشبهها يستدفعون بها الآفات ويتعوذون بها من شر العين . والبيت من قصيدة يرثى بها أبو ذؤيب أبناءه الخمسة ، وقد ثكلهم فى عام ، واسم أبى ذؤيب: خويلد بن خالد بن محرث بن زبيد بن مخزوم ، شاعر مخضرم.

بلاغة الترشيح فى الاستعارة

من كتاب (الإيضاح)

والترشيح : أبلغ من التجريد ؛ لاشتمـاله على تحقيق المبالغة ، ولهذا كان مَبناه على تَناسِي التشبيـه، حتى إنه يُوضَع الكلامُ فى عُلُوِّ المنزلةِ وَضْعَه فى عُلُوِّ المكان كما قال أبو تمام :

وَيَصْعَدُ حتَّى يَظُنَّ الْجَهُولُ بأن له حاجةً فى السمـــاء

فلولا أنَّ قَصْدَه أنْ يَتناسَى التـشبيهَ ، ويُصَمِّمَ على إنكاره؛ فيـجعله صاعدًا فى السماء من حيثُ المسافةُ المكانيةُ ، لَمَا كان لهذا الكلام وَجْهٌ .

وكما قال ابن الرومى :

يا آلَ نُوبَخْتَ ، لا عَدِمْتُكُـــمُ	ولا تَبَدَّلْتُ بَعْدَكُمْ بَـــدَلا
إن صحَّ عِلمُ النجوم؛ كان لكـــم	حقًّا إذا ماسِواكُمُ انْتَحَـــلا
كم عالم فيكُمُ وليس بـــأنْ	قاسَ ولكنْ بأنْ رقى فَعَـــلا!!
أعلاكُمُ في السماء مَجْدُكُـــمُ	فلستُمُ تَجهلون ما جهـــلا
شافَهتُمُ البدرَ بالسؤال عن الـــ	ـأمر إلى أن بَلَغْتُمُ زُحَـــلا .

وكما قال بَشَّارٌ :

أتتنى الشمسُ زائـرةً ولم تَكُ تَبْرَحُ الْفَلَكا

وكما قال أبو الطَّيِّب :

كَبَّرْتُ حَوْلَ دِيارهم لما بَـــدَتْ منها الشموسُ وليس فيها الْمَشرِقُ

وكما قال :

ولم أرَ قَبْلى مَنْ مَشَى البدرُ نحوهُ ولارجلا قامت تُعانقهُ الأسَـــدُ

ومن هذا الفن ما سبق من التـعجب والنَّهْى عنه؛ غير أن مـذهب التعجب على عكس مـذهب النهى عنه ؛ فـإن مـذهب التعـجب إثبـاتُ وصفٍ ممتنع ثُبـوتُه للمستعار منه ، ومذهب النهى عنه إثباتُ خاصَّةٍ من خَواصِّ المستعارِ منه .

وإذا جاز البناء على المشبه به مع الاعتراف بالمشبه(*) ، كما فى قول العَبَّاس ابن الأحْنَف :

هى الشمسُ مَسكنُها فى السماء ... فعزِّ الفؤادَ عَزاءً جميـــــلا

فلن تستطيعَ إليها الصُّعـــودَ ... ولن تستطيع إليكَ النُّـــزولا

وقول سعيد بن حُمَيْد :

قُلْتُ :زُورى ؛ فأرسلت : ... أنا آتيكَ سُحْـــــرَهْ

قلتُ : فالليل كان أخـــ ... ـفى وأدنى مَسَـــرَّهْ

فأجابَتْ بحُجَّـــــة ... زادت القلب حَسْـــرَهْ

أنا شمسٌ ، وإنمـــا ... تطلُعُ الشمس بُكْـــرَهْ

فَلأَنْ(١) يجوزَ مع جَحْده فى الاستعارة أوْلَى .

من هذا الباب قول الفَرَزْدَق :

أبى أحْمَدُ الغيثيْن صَعْصَعَةُ الـــذى ... مَتَى تُخلف الجَوْزاءُ والدَّلْوُ يُمْطِر(٢)

أجارَ بنَات الوائدين ، ومَنْ يُجِــرْ ... على الموت ، فاعلم أنه غيرُ مُخْفَــر

ادّعَى لأبيه اسمَ الغيث، ادِّعـاء من سلّم له ذلك و مَنْ لا يَخطر بباله أنه مُتناولٌ له من طريق التشبيه .

وكذا قول عَدِىٍّ بن الرِّقاع يصف حَمارَيْن وحْشيَّين :

يتعاوَران من الغُبار مُـــلاءةً ... بيضاء مُحكَمَةً هما نَسجَاها(٣)

تُطوَى إذا وردا مكانًا مُحْزِنًـــا ... وإذا السَّنابكُ أسْهَلَتْ نَشَراهــا

(*) يقصد : إذا جاز بناء الكلام على التشبيه مع تناسيه ، اى تناسى أننا أمام صورة تشبيهية يُذكَرُ فيها المشبّه، فيكون هذا التّناسِى فى الاستعارة حيث يُجْحَدُ المشبَّه - اى يُحذف ولا يُعترف به - أولى ، اى أكثر إمكانًا .

(١) الفاء داخلة علي جواب « إذا » فى قوله « وإذا جاز البناء » أول الفقرة.

(٢) احمد الغيثين: أحقهما بالحمد والثناء. تخلف الجوزاء: تطمع فى المطر ثم لاتفى. الجوزاء والدلو: برجان من اثنى عشر برجا في السماء تنتقل فيها الشمس، فإذا حلّت هذين كثر المطر. يمطر: يعطى عطاء كثيرًا كالمطر. الوائدين: الدافنين بناتهم حيات خوف الإملاق، أو العار، أو خوفهما . من يجر: الذى يحمى. مخفر بصيغة اسم الفاعل من المزيد بالهمزة °: غادر، ناقض للعهد .

(٣) يتعاوران : يتداولان ويتبادلان . محزنًا : صلبا لاتراب فيه . السنابك : أطراف حوافر الخيل . أسهلت : وجدت أرضا سهلة .

فى الفَرْق بين الاسْتِعَارة والتّشبيه
من كتاب (أنْوار الربيع) لابن مَعْصُوم

خاتمة : من المهم الفرق بين الاستعارة والتـشبيه المحذوف الأداة نحو (زيد أسد) ، قـال الزمخـشرى فى قوله تـعالى ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ فـإن قلت : هل يُسمَّى مـا فى الآية استعـارةً؟ قلت : مُختلفٌ فـيه ، والمحققـون على تسميـته تشبيها بليغا لا استعارة ، لأن المستعار له[1] مذكور وهم المنافقون . وإنما تطلق الاستعارة ، حـيث يُطوَى ذكرُ المستعارِ له ، ويُجـعلُ الكلامُ خِلْوًا عنه ، صالحًا لأن يرادَ به المنقولُ عنه والمنقولُ إليـه، لولا دلالة الحال أو فحوى الكلام . ومن ثم ترى المفلقِين من السّحرَة[2] يتناسوْن التشبيه ويضربون عنه صفحًا .

وعلّله السكّاكى بأنّ من شرط الاستعارة، إمكانَ حَـمْل الكلام على الحقيقة فى الظاهر، وتناسى التشبيه، و(زيدٌ أسَد) لا يمكن كونُه حقيقةً، فلا يجوز كونُه استعارةً، وتابَعَهُ صاحب الإيضاح.

قال فى عـروس الأفراح : ومـا قالاه ممنوع ، وليس من شـرط الاستـعارة صلاحيةُ الكلام لصرفه إلى الحقيقة فى الظاهر .

فقال : بل لو عُكِسَ ذلك وقيل : لابد من عدم صلاحيَتِه لكان أقرب لأن الاسـتعـارة مجـاز لابد له من قـرينة ، فإن لم تكن قـرينة امـتنع صرفـه إلى الاستعارة، وصرفناه إلى حقيقته، وإنما نصرفه إلى الاستعارة بقرينة ، إما لفظية

(١) يقصد المشبَّه ، وسبق أنْ قلنا إنهم يخلطون بين مصطلحات التـشبيه والاستعـارة فيستخدمون بـعضها مكان بعض .

(٢) يقصد فحولَ البلغاء

أو معنوية ، نحو : زَيدٌ أسَدٌ ، فالإخبار به عن زيد قرينة صارفة عن إرادة حقيقته .

قال : والذى نختاره، أن نحو (زَيْدٌ أسد) قسمان ، تارة يُقصَد به التشبيه فتكون أداة التشبيه مقدَّرةً ، وتارة يقصد به الاستعارة ، فلا تكون مقدرة ويكون الأسد مستعملاً فى حقيقته، وذكْرُ زيد والإخبار عنه بما لا يصلح له حقيقةً قرينةٌ صارفةٌ إلى الاستعارة دالة عليها ، فإن قامت قرينة على حذف الأداة صرنا إليه ، وإن لم تقم ، فنحن بين إضمارٍ واستعارةٍ ، والاستعارة أوْلى، فيُصار إليها .

وممن صرّح بهذا الفرق ، عبد اللطيف البغدادى فى قوانين البلاغة وكذا قال حازم : الفرق بينهما أن الاستعارة وإن كان فيها معنى التشبيه فتقدير حرف التشبيه لا يجوز فيها ، والتشبيه بغير حرف على خلاف ، لأن تقدير حرف التشبيه واجب فيه ، قاله فى الإتقان .

من الاستعارات المختارة

من كتاب (العمدة) لابن رشيق القيروانى

ومما اختاره ابن الأعرابى وغيره قول أرْطَاة بن سُهَيَّة .

فقلتُ لها يا أمّ بيضاء إننى هُرِيقَ شبابى واسْتَشَنَّ أديمى

فقال - هريق شبابى - لما فى الشباب من الرونق والطراوة التى هى كالماء، ثم قال - استشن أديمى - لأن الشَّنَّ هو القِربة اليابسة ، فكأن أديمه صار شنًا لَمّا هُريق ماء شبابه، فصحَّت له الاستعارة من كل وجه ولم تبعد.

ومثل ذلك فى الجودة ما اختاره ثعلب وفضّله جماعة ممن قبله ، وهو قول طُفَيل الغَنَوى :

فوضعْتُ رحلى فوقَ ناجيةٍ يَقْتَاتُ شَحْمَ سَنامِها الرَّحْلُ

فجعَل شحم سنامها قوتًا للرحْل ، وهذه استعارة كما تراها كأنها الحقيقة لتمكُّنها وقربها ، وقد تناولها جماعة منهم كُلْثوم بن عمرو العتَّابى : قال فى قصيدة يعتذر فيها إلى الرشيد :

ومن فوق أكوار المهارى لُبَانــة أُحلَّ لها أكْلُ الذرى والغوَارب

ثم أتى أبو تمام وعوَّل على العتَّابى وزاد المعنى زيادةً لطيفة بيّنة فقال:

وقد أكَلُوا منها الغَوَارب بالسُّرَى فصارت لها أشباحُهُم كالغوارب

وكان ابن المعتز يفضل ذا الرمة كثيرًا ، ويقدمه بحسن الاستعارة والتشبيه لاسيما بقوله :

فلما رأيتُ الليلَ والشمسُ حيَّة حيَاةَ الذى يقضى حُشَاشة نازع

لأن قوله - والشمس حية - من بديع الكلام والاستعارة ، وباقى البيت من عجيب التشبيه . واختار الحاتمى فى باب الاستعارة فى وصف سحائب - وأظنه لابن مَيَّادة ، واسمه الرَّمَّاح بن أبْرَدَ من بنى مرة ، وميادة أمه :

إذا ما هَبَطْنَ القاعَ قد مات بَقْلُه   بكَيْنَ به حتى يعيش هشيم

ورواه قوم لأبى كبير ، وابن ميادة أولى به وأشبه .

والاستعارة كثيرة فى كتاب الله عز وجل وكلام نبيه ﷺ : من ذلك قوله تعالى : ﴿لما طَغَى الماءُ﴾ وقوله : ﴿فلما سكَتَ عن موسى الغضب﴾ وقوله : ﴿سمعوا لها شهيقًا وهى تفورُ ، تكادُ تميَّزُ من الغيظ﴾ ،فالشهيق والغيظ استعارتان ، وقوله تعالى : ﴿يا أرضُ ابلَعِى ماءكِ﴾ وكثير من هذا لو تُقُصِّىَ لطال جداً . وقول النبى ﷺ : لحالب حلب ناقة : « دَعْ داعىَ اللبن» يعنى بقيةً من اللبن فى الحلب ، وقوله : « تمسحوا بالأرض فإنها بكم برة». قال أبو عبيد: يريد أنها منها خَلْقهم ، ومنها مَعَادهم وهى - بعد الموت - كِفَاتُهُمْ. وقوله : « رب تقبَّل تَوبَتى ، واغْسِلْ حَوبَتى » فغسْل الحوبة استعارة مليحة .

ومن أناشيد هذا الباب - وهو فيما زعم ابن وكيع أولُ استعارة وقعت - قولُ امرئ القيس يصف الليل :

ولَيْلٍ كموج البحرِ أرْخَى سُدُولَه   علىَّ بأنواعِ الهموم ليبتلى

فقلت له لما تمطى بصُلْبِهِ   وأردف أعجازًا وناءَ بكَلْكَلِ

فاستعار لليل سدولا يرخيها، وهى الستور، وصُلْبًا يتمطى به، وأعجازًا يردفها وكلكلا ينوء به . وقال حسان بن ثابت يذكر قَتَلَةَ عثمان رحمة الله عليه :

ضَحَّوْا بأشْمَطَ عنوانُ السجود به   يُقَطِّعُ اللَّيلَ تسبيحًا وقرآنا

فالاستعارة قوله -عُنْوَانُ السجود به- وقد أخذه من قول الله تعالى : ﴿سِيمَاهُمْ فى وجوههم من أثر السجود﴾ وقال جميل العُذْرى :

أكلَّمَا بانَ حَىٌّ لا تُلائمهم   ولايبالون أن يَشْتَاق مَنْ فَجَعُوا

علقتنى بهوى منهم، فقد جَعَلَتْ   من الفراق حَصَاةُ القلب تَنْصَدِعُ

البديع « حَصَاة القلب » . ومن كلام المولَّدين قولُ أبى نواس :

بصَحْنِ خدٌّ لم يَغِضْ ماؤُه   ولم تَخضْهُ أعينُ الناس

البديع كل البديع عجزُ البيت. وقال أيضًا :

فإذا بدا اقتادَتْ محاسنُه   قَسْرًا إليه أعنَّةَ الحَـــدَقِ

البديعُ « أعنة الحدق » وقوله « اقتادت » . وقال أبو الطيب :

ضممْتَ جناحيْهم علي القلبِ ضَمّةً   تموت الخَوَافِى تحتها والقَـــــــوَادِمُ

أراد بالجناحين مَـيْمَنَةَ العـسكر ومَيْـسرَتَـه، وبالقلب موضعَ الملك، وبالخـوافى والقوادم السيوفَ والرماح ، وهذا تصنيع بديع ، كله حسن الاستعارات.

وقال السَّرِىُّ الموصلى :

يشق جيوب الورد فى شَجَراته   نسيمٌ متى ينظرْ إلى الماء يبـــرد

فالبديع قوله « متى ينظر » .

المجاز المركّب*

من كتاب (الإيضاح)

وأما المجاز المركب فهو اللفظ المركب المستعمل فيما شُبِّه بمعناه الأصلى تشبيه التمثيل للمبالغة فى التشبيه ، أى : تشبيه إحدى صورتين منتزَعتين من أمْرَيْنِ أو أمورٍ بالأخرى ، ثم تَدخل المشبَّهَةُ فى جنس المشبه بها ، مُبالَغةً فى التشبيه ؛ فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه .

كما كتب به الوَليدُ بنُ يَزِيدَ - لمّا بُويِعَ - إلى مَرْوَان بن محمد ، وقد بلغه أنه مُتَوَقِّفٌ فى البيْعة له : « أمـا بعدُ؛ فإنى أراك تقدِّم رِجْلاً ، وتؤخِّر أخرى ، فإذا أتاك كتابى هذا ؛ فاعتمد على أيِّهما شئتَ ، والسلامُ » .

شبَّه صورة تردُّده فى المبايعة بصورة تردُّدِ مَنْ قام ليذهب فى أمر ، فتارةً يريد الذهاب فيقدِّم رِجْلاً ، وتارةً لا يريد فيؤخر أخرى .

وكما يقال لمن يعمل فى غير مَعْمَل : « أراك؛ تَنفُخ فى غير فحم ، وتَخُطُّ على الماء » والمعنى : إنك فى فعلك كمن يفعل ذلك ، وكما يقال لمن يُعْمِل الحيلة حتى يُميل صاحبَه إلى ماكان يمتنع منه « ما زال يَفْتِل منه فى الذِّرْوَة والغارب حتى بَلَغ منه ما أراد » والمعنى أنه لم يَزَل يرفُق بصاحبه رِفقًا يشبه حالُه فيه حالَ مَنْ يَجيءُ إلى البعير الصَّعْب ، فيحكُّه ، ويَفْتِل الشَّعْرَ فى ذِرْوَته وغاربه حتى يسكُن ويَستأنس ، وهذا فى المعنى نظير قولهم : «فُلانٌ يُقَرِّدُ فُلانًا» أى : يتلطف به، فِعْلَ مَنْ يَنْزِعُ القُرادَ مِنَ البعير ؛ ليَلْتَذَّ بذلك؛ فيسكُن ، ويثبت فى مكانه ، حتى يتمكن من أخذه .

(*) المجاز المركب هو نفسه ما سماه عبد القاهر : التمثيل على حدّ الاستعارة ، وما سمّاه غيره : الاستعارة التمثيليّة .

وكذا قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِه﴾ فإنه لما كان التقدم بين يدى الرجل خارجًا عن صفة المُتابِع له ؛ صار النهيُ عن التقدم مُتعلِّقًا باليدين . . مَثَلاً للنهى عن ترك الاتِّباع .

وكذا قوله تعالى : ﴿والأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ إذ المعنى -والله أعلم- أن مَثَلَ الأرض فى تصرفها تحت أمر الله تعالى وقدرته مَثَلُ الشىء يكون فى قبضة الآخذ له منَّا ، والجامع يَدَه عليه ، وكذا قوله تعالى : ﴿والسَّموَاتُ مطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِه﴾ أى : يخلق فيها صفةَ الطَّىِّ حتى تُرَى كالكتاب المطْوِىِّ بيمين الواحد منَّا ، وخصَّ اليمين ليكون أعلى وأفخم للمثَل؛ لأنها أشرف اليدين وأقواهما ، والتى لا غناء للأخرى دونَها ، فلا يَهَش إنسان لشىء إلا بدأ بيمينه، فهيَّأها لنَيْله ، ومتى قُصِدَ جَعْلُ الشىء فى جهة العناية جُعِل فى اليد اليمنى، ومتى قُصِد خلافُ ذلك جُعِل فى اليُسْرَى ، كما قال ابن مَيَّادَةَ :

ألم تكُ في يمنَي يديْكَ جَعَلْتنى؟ فلا تَجْعَلَنِّى بعدها فى شمالكا

أى : كنتُ مكرمًا عندك ، فلا تجعلنى مُهانًا ، وكنت فى المكان الشريف منك؛ فلا تَحُطَّنى فى المنزل الوضيع .

وكذا إذا قلتَ للمخلوق : «الأمر بيدك» أردتَ المَثَلَ، أى : الأمر كالشىء يحصل فى يدك؛ فلا يمتنع عليك .

وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ قال الزمخشرى: كان الغضب كان يُغْرِيه على ما فعل، ويقول له : «قُلْ لقومك كذا ، وألقِ الألواحَ، وجُر برأس أخيك إليك » فَتَرَكَ النطقَ بذلك، وَقَطَعَ الإغراء، ولم يستحسن هذه الكلمة، ولم يستفصحْها كل ذى طبع سليم، وذوق صحيح إلا لذلك، ولأنه من قَبِيل شُعَبِ البلاغة، وإلا فما لقراءة مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ «ولما سكن عن موسى الغضب» لاتجد النفس عندها شيئًا من تلك الْهِزَّةِ وَطَرَفًا من تلك الرَّوْعة ؟ » .

وأما قولهم: «اعتصمت بحبله» فقال الزمخشرى أيضًا: يجوز أن يكون تمثيلاً لاستظهاره به، وَوُثُوقه بحمايته، باستمساك المتدلِّى من مكان مرتفع،

بحبل وثيق يأمن انقطاعه، و [يجوز] أن يكون الحبل استعارةً لعهده ، والاعتصامُ لوثوقه بالعهد أو ترشيحًا لاستعارة الحبل بما يناسبه .

وكذا قول الشَّمَّاخِ :

إذا ما رَايَةٌ رُفِعَتْ لمجد   تلقَّاها عَرَابَةُ باليميــن

الشبه فيه مأخوذ من مجموع التَّلَقِّى واليمين ، على حدِّ قولهم : تلقَّيْتُه بكلْتا اليدين ؛ ولهذا لا تَصلُحُ حيث يُقصد التجوُّز فيها وحدَها ؛ فلا يقال : «هو عظيم اليمين» بمعنى «عظيم القدرة» ولا «عرفتُ يمينَكَ على هذا» بمعنى «عرفتُ قُدْرتك عليه» .

ومثله قول الآخر :

هَوِّنْ عليكَ، ؛ فإن الامو   ر بكَفِّ الإله مقاديرُهـــا

وكذا ما رَوَى أبو هُرَيْرَةَ عن النبى ﷺ أنه قال : « إن أحدكم إذا تصدق بالتمرة من الطَّيِّب - ولايقبل الله إلا الطيب - جعل اللهُ ذلك فى كفه، فيُرَبِّيها كما يربّى أحدُكم فِلْوَهُ ، حتى يبلغ بالتمرة مِثْلَ أُحد » **والمعنى فيهما على انتزاع الشبه من المجموع .**

وكل هذا يُسَمَّى التمثيل على سبيل الاستعارة ، وقد يُسَمَّى التمثيلَ مُطلقًا ومتى فشا استعمالُه كذلك سُمِّى مَثَلاً ؛ ولذلك لا تُغَيَّر الأمثال.

القَوْلُ فِى الكِنَايَة

من كتاب (الإيضاح)

الكناية : **لفظ أريدَ به لازمُ معنــاه مع جواز إرادة معناه حــينئذ،** كقولك: «فلانٌ طويلُ النِّجاد» أى : طويل القامة، و«فلانة نَؤومُ الضُّحَى» أى : مُرَفَّهة مخدومةٌ، غير محتاجة إلى السعى بنفسها فى إصلاح المهمات، وذلك أنَّ وقتَ الضحى وقتُ سَعْى نساء العرب فى أمر المعاش، وكفاية أسبابه وتحصيل ما يُحتاج إليه فى تَهْيِئَة المُتَناوَلات ، وتدبيرِ إصلاحها ؛ فلا تنام فيه من نسائهم إلا مَنْ تكون لها خَــدَمٌ ينوبون عنها فى الســعى لذلك ، ولا يمتنع أن يُراد مع ذلك طُولُ النِّجادِ ، والنومُ فى الضحى ، من غير تأوُّل.

الفرق بين الكناية والمجاز :

فالفرق بينها وبين المجــاز من هذا الوجه، أى من جهة إرادة المعنى مع إرادة لازمه ، فإن المجــاز ينافى ذلك ؛ فلا يصح فى نحو قولك: «فى الحــمَّام أسد» أن تريد مــعنى الأسد من غــير تــأوُّل ؛ لأن المجاز ملزومُ قــرينةٍ معــاندة لإرادة الحقيقة كما عرفت ، وملزومُ مُعانِد الشىء مُعاندٌ لذلك الشىء .

ثم **الكناية ثلاثة أقسام** ؛ لأن المطلوب بها إما غيــرُ صفة ولا نسبة ، أو صفةٌ، أو نسبة .

والمراد الصفة المعنوية كالجود، والكرم، والشجاعة، وأمثالها، لا النعت.

الأولى المطلوب بها غــير صفة ولانســبة ، فمنهــا ما هو معنًى واحدٌ كــقولنا: «المضْيَاف» كنايةٌ عن زيد ، ومنه قولُه كنايةٌ عن القلب :

الضاربين بكل أبْيَضَ مِخْــذَمٍ　　　والطاعنين **مَجامعَ الأضغان**[1]

---

(١) أبيض: سيف أبيض . مخذم: قاطع . الأضغان : الأحقاد . وهو لعمرو بن معد يكرب الزبيدي.

ونحوه قول البحترى فى قصيدته التى يذكر فيها قتلَه الذئبَ :

فأتبعتُها أخرى ، فاضْلَلْتُ نَصلَهــا   بحيثُ يكون اللُّبُّ والرُّعْبُ والحِقْدُ[١]

فقــوله :« بحيث يــكون اللب، والرعب، والحقــد» ثلاث كنايات لا كناية واحدة ؛ لاستقلال كل واحدة منها بإفادة المقصود.

وشرط كل واحدةٍ منهما أن تكون مختــصة بالمكنىِّ عنه لا تتعداه ؛ ليحصل الانتقال منها إليه.

وجَعَلَ السكاكى الأولى قريبةً ، والثانيةَ بعيدةً ، وفيه نظر.

الثانية : المطلوب بها صفة ، وهى ضربان : قريبة ، وبعيدة .

القريبة : ما يُنْتَقَل منها إلى المطلوب بها ، لا بواسطة [أى بلا واسطة].

وهى إما واضحــة كقولهم كنايةً عن طويل القامــة « طويلٌ نجادُه ، وطويل النِّجاد » . والفرق بينهما أن الأولى كنايةٌ ساذجــة ، والثانية كناية مُشتملة على تصريح ما ؛ لتضمن الصفة فيه ضميرَ الموصوف ، بخلاف الأول.

ومنها قول الحماسى :

أَبَتِ الرَّوَادِفُ والثُّدِىُّ لقُمْصِهـــا   مَسَّ البُطونِ وأن تَمَسَّ ظُهورا[٢]

وإما خَفيَّــةٌ كقولهم كناية عن الأبله «عريض القَفا» فــإن عرضَ القفا وعِظَمَ الرأس إذا أفرط -فيما يقال- دليلُ الغباوة، ألاترى إلى قول طَرَفَةَ بْنِ العَبْد:

أنا الرجل الضَّرْبُ الذى تَعرفونه   خَشَاشٌ كرأس الحيَّةِ المُتَوَقِّــدِ[٣]

والبعيدة : ما ينتــقل منها إلى المطلوب بها بواسطة ، كــقولهم كنايةً عن

---

(١) أضللت :دفنت وغيبت . النصل : حديدة الرمح ، والـضمير في «نصلها» ضمير الضــربة كالضمير فى « أتبعتها» لأن الحديث عن ضربات يلحق بعضهــا بعضًا ، والإضافة إضافة سبب لمسبب . اللُّب : العقل الذكى . الرعب : الخوف.

(٢) الروادف : الأعجاز كالأرداف ، واحدها رادفة . وبعد هذا البيت :

وإذا الرياح مع العَشِىِّ تناوحت   نبهن حاسدة ، وهجن غيورا

(٣) الرجل الضرب : الرجل الماضى الندب . خــشاش : شجاع ، أو دخال فى الأمور . المتــوقد : الحاد السريع التوقد فى النشاط والمضاء .

الأبله «عريض الوسادة» فإنه ينتقل من عرض الوسادة إلى عـرض القفا ، ومنه إلى المقصود .

وقد جعله السكاكى من القريبة على أنه كناية عن عرض القفا ، وفيه نظر وكقولهم : «كثير الرماد» كناية عن المضْيـاف فإنه ينتقل من كثرة الرماد إلى كثرة إحراق الحطب تحت القدُور ، ومنها إلى كثـرة الطبائخ، ومنها إلى كثرة الأكَلَة، ومنها إلى كثرة الضيفان ، ومنها إلى المقصود .

وكقوله :

وما يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فإنـــى جَبَانُ الكلبِ مَهْزُولُ الفَصيلِ(١)

فإنه ينتقل من جُـبْن الكلب عن الهرير فى وجه مَنْ يدنو من دار مَنْ هو بمَرْصَد لأن يَعِسَّ دونهـا ، مع كون الهـرير فى وجـه مَنْ لا يعرفـه طبيـعيًـا له ، إلى استمرار تأديبه ، لأن الأمور الطبيعية لا تتغير بُموجِب لا يقوى، ومن ذلك إلى استمرار مُـوجِب نُباحه وهو اتصال مشـاهدته وجوهًا إثر وجوه، ومن ذلك إلى كونه مَقْصِدَ أدانٍ وأقاصٍ، ومن ذلك إلى أنه مشهور بحسن قِرَى الأضياف .

وكذلك يُنتـقل من هُزال الفصيل إلى فقـد الأم ، ومنه إلى قوة الداعى إلى نَحْرِها ، لكمال عناية العرب بالنوق لا سيَّما المُتْلِيات(٢)، ومنها إلى صرفها إلى الطبائخ ، ومنها إلى أنه مضياف .

ومن هذا النوع قول نُصَيْب :

لعبد العزيز على قومـــه وغيرهِـمُ مِنَنٌ ظاهـرهْ(٣)
فبابُكَ أسهلُ أبوابهـــم ودارُك مَأْهُولَةٌ عامـــرهْ
وكَلْبُكَ آنَسُ بالزائريـــن مِنَ الأمّ بالإبنة الزائره

(١) مهزول : ضعيف نحيل ، الفصيل : ولد الناقة إذا فصل عن أمه . والبيت لابن هرْمَة ، شاعر من مخضرمى الدولتين ، توفى سنة ١٤٥ هـ .

(٢) المتليات : النياق وراءها أتلاؤها ، هى متلية بصيغة اسم الفاعل، وولدها تلو أو تلوة بكسر التاء وسكون اللام .

(٣) عبد العزيز ممدوح نصيب هو ابن مروان ، وأبو عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى، ونصيب : شاعر من الموالى ، عاش ومات فى العهد الأموى .

فإنه يُنتقل من وصف كلبه بما ذكر إلى أن الزائرين مَعارِفُ عندَه ، ومن ذلك إلى اتصال مشاهدته إياهم ليلاً ونهاراً ، ومنه إلى لزومهم سُدَّتَه ، ومنه إلى تَسَنِّي مَباغيهم لديه من غير انقطاع ، ومنه إلى وُفور إحسانه إلى الخاصِّ والعامِّ وهو المقصود .

ونظيره مع زيادة لطف قول الآخر :

يكاد إذا ما أبصرَ الضَّيْفَ مُقبلا يكلِّمُه من حبِّهِ وَهْوَ أعْجَمُ[1]

ومنه قوله :

لا أُمْتِعُ العُوذَ بالفِصَالِ، ولا أبتاعُ إلا قريبة الأجَلِ[2]

فإنه ينتقل من عدم إمتاعها إلى أنه لا يُبْقِي لها فِصالَهَا ؛ لتأنس بها ويحصل لها الفرح الطبيعي بالنظر إليها ، ومن ذلك إلى نحرها ، أوْ لا يُبْقِي العُوذَ إبقاءً على فصالها، وكذا قُرْبُ الأجل يُنْتَقلَ منه إلى نحرها ، ومن نحرها إلى أنه مِضْيافٌ .

ومن لطيف هذا القسم قولُه تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِى أَيْدِيهِمْ﴾ أى : ولما اشتدَّ ندمُهم وحسرتُهم على عبادة العجل ؛ لأن مَنْ شأن من اشتدَّ ندمُه وحسرتُهُ أن يعضَّ يدَه غَمًّا ؛ فتصيرُ يَدُه مَسقوطًا فيها، لأن فَاهُ قد وقع فيها .

وكذا قول أبى الطيب كنايةً عن الكذب :

تشتكى ما اشتكَيْتُ من ألم الشَّوْ قِ إليها ، والشَّوْقُ حَيْثُ النُّحُولُ

وكذا قوله :

إلى كَمْ تَرُدُّ الرُّسْلَ عَمَّا أتَوْا لَهُ كأنهمُ فيما وَهَبْتَ مَلامُ ؟!

فإن أوله كناية عن الشجاعة ، وآخره كناية عن السماحة .

وكذا قول أبى تمام :

فإن أنا لم يَحْمَدْكَ عَنِّىَ صاغرًا عَدُوُّكَ؛ فاعلم أننى غيرُ جامد[3]

---

(١) لابن هرمة أو للنابغة الجعدى .

(٢) هو لابن هرمة أيضًا ، والعُوذ: النوق الحديثة النتاج ، واحدتها عائذ ، والفصال : جمع فصيل .

(٣) صاغرًا : مرغمًا ذليلا ، وهو حال من «عدو» .

يريد بحمده عنه حفْظَهُ مَدْحَهُ فيه وإنشاده، أى : إن لم أكُنْ أُجيدُ القول فى مدحك ، حتى يَدْعُوَ حُسْنُه عدوَّك إلى أن يحفظه ويَلْهَجَ به صاغرًا فلا تَعُدَّنى حامدا لك بما أقول فيك ، ووصفه بالصَّغار؛ لأن من يحفظ مديح عَدُوِّه ويُنْشِده فقد أذلَّ نفسَهُ ، فكنى بِحِفْظِ عَدُوِّ الممدوح مَدْحَه له عن إجادته القولَ فى مدحه .

وكذا قول من يصف راعِىَ إبِلٍ أو غَنَمٍ :

ضعيفُ العصا،بادِى العُرُوقِ تَرَى لـه   عليها- إذا ما أجْدَبَ الناسُ - إصْبَعا

وقول الآخر :

« صُلْبُ العصا ، بالضرب قد دَمَّاها »

أى : جعلها كالدَّمِ فى الحسن.

والغرض من قول الأول «ضعيفُ العصا» وقول الثانى «صُلْبُ العصا» وهما وإن كانا فى الظاهر مُتضادَّين فإنهما كنايتان عن شىء واحد، وهو حُسْنُ الرِّعْيَة، والعملُ بما يصلحها ، ويحسن أثره عليها .

فأراد الأول أنه رَفِيقٌ مُشْفِقٌ عليها ، لايَقْصد من حمل العصا أن يُوجِعَها بالضرب من غير فائدة ؛ فهو يتخيَّر مَا لأنَ من العصا.

وأراد الثانى أنه جَيِّدُ الضبطِ لها ، عارفٌ بسياستها فى الرَّعْىِ ، يزجرها عن المراعى التى لا تُحمد ، ويتوخَّى بها ما تسمن عليه ، ويتضمن أيضًا أنه يمنعها عن التشرُّد والتبدُّد ، وأنها - لمَا عَرَفَتْ من شدَّة شكيمَته وقوة عَزِيمته - تنساق فى الجهة التى يريدها ، وقوله « بالضرب قد دمَّاها » تَوْرِيَةٌ حسنة، ويؤكد أمرها قوله «صُلْبُ العصا» .

الثالثة : المطلوب بها نسبة كقول زيادِ الأعْجَم :

إن السَّماحَةَ والمرُوءَةَ والنَّـدَى   فى قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابنِ الحشْرَجِ[1]

فإنه حين أرادَ أن لا يصرح بإثبات هذه الصفات لابن الحشرج جمعها فى قُبَّةٍ؛ تنبيهاً بذلك على أن مَحَلَّها ذو قُبَّةٍ، وجعلها مضروبة عليه؛ لوجود ذَوِى قِبابٍ

(١) ابن الحشرج : من ولاة الدولة الأموية ، واسمه عبد الله ، وزياد الأعجم شاعر أموى مولى .

فى الدنيا كثيرين ؛ فأفاد إثبات الصفات المذكورة له بطريق الكناية .

ونظيره قولهم : « المجد بين ثَوبَيْهِ ،والكرم بين بُرْدَيْهِ » .

وقول الآخر :

والمجْدُ يَدْعُو أن يَدومَ لجِيــــدِهِ ... عِقدٌ مَساعِى ابنِ العَمِيدِ نظَامُهُ(١)

فإنه شبَّه المجدَ بإنسان بديع الجمال ، فى ميل النفوس إليه ، وأثبت له جيدا على سبيل الاستعارة التخييلية، ثم أثبت لجيده عقدا ، ترشيحًا للاستعارة، ثم خصَّ مَساعِىَ ابن العميد بأنها نظامُه ، فنبَّه بذلك على اعتنائه خاصَّةً بتزيينه، وبذلك على مَحَبَّته وَحْدَه له ، وبها على اختصاصه به ، ونبَّه - بدُعاء المجد أن يدوم لجِيده ذلك العقدُ - على طلبه دَوَامَ بَقَاءِ ابنِ العَمِيدِ ، وبذلك على اختصاصه به .

وكقول أبى نُوَاس :

فما جازهُ جودٌ ، ولا حَلَّ دُونَــهُ ... ولكِنْ يَصيرُ الجُودُ حَيْثُ يَصير(٢)

فإنه كَنّى عن جميع الجود بأنْ نكَّرَهُ، ونفى أن يجوز مَمْدُوحَه ويَحُلَّ دونَه فيكونَ مُتَوَزَّعًا، يقوم منه شىء بهذا وشىء بهذا، وعن إثباته له بتخصيصه بجهته بعد تعريفه باللام التى تفيد العموم، ونظيره قولهم «مجلس فلان مَظِنَّةُ الجود والكرم» هذا قول السكاكى .

وقيل: كنى بالشطر الأول عن اتِّصافه بالجود،وبالثانى عن لزوم الجود له.

ويحتمل وجهًا آخر ، وهو : أن يكون كل منهما كناية عن اختصاصه به، وعدمُ الاقتصار على أحدِهما للتأكيد والتقرير .

وكقولهم « مثلك لا يبخل » قال الزمخشرى : نَفَوا البخل عن مثله ، وهم

---

(١) جيده : عنقه . مساعى ابن العميد : مكارمه ،وأفضاله ، واحدتها مسعاة. وابن العميد هو محمد ابن الحسين ، وزير البويهيين . وزعيم كتاب القرن الرابع الهجري .

(٢) جازه : تعداه وجاوزه ، حل دونه : نزل بعيدا عنه .

يريدون نَفْيَـهُ عن ذاته ، قصدوا المبالغة فى ذلك ؛ فـسلكوا به طريق الكناية ؛ لأنهم إذا نَفَوْهُ عَـمَّنْ يَسُدُّ مَسَدَّهُ ، وعـمَّن هو على أخصِّ أوصافه ، فقـد نَفَوْهُ عنه .

ونظيره قـولُكَ للعربى «العرب لا تَخْـفِرُ الذِّمَمَ»[١] ، فإنه أبلـغ من قولك «أنت لا تخفر» .

ومنه قولهم « أيْفَعَتْ لِدَاتُهُ ، وبلغَتْ أتْرَابُه»[٢] يريدن إيفاعَهُ وبُلوغَه .

وعليه قولُه تعـالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِه شَىْءٌ ﴾[٣] على أحد الوجهين ، وهو أن لا تجعل الكاف زائدة .

قيل: وهذا غاية لنفى التشبـيه؛ إذ لو كان له مثلٌ؛ لكان لمثله شىء (يماثله) وهو ذاته تعالى ، فلما قال ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِه﴾ دلَّ على أنه ليس له مثل.

وكقول الشَّنْفَرَى الأزْدِىِّ فى وصف امرأة بالعفَّة :

يَبِيتُ بِمَنْجَاةٍ مِن اللَّوْمِ بَيْتُهَا   إذا ما بُيوتٌ بالملامَةِ حُلَّتِ[٤]

فإنه نبَّـه بنفى اللوم عن بيتها علـى انتفاء أنواع الفجـور عنه ، وبه على براءتها منها ، وقال « يَبِيتُ» دون « يَظَلُّ » لمزيد اختصاص الليل بالفواحش.

هذا على مـا رواه الشيخ عبـد القاهر والسكَّـاكىُّ ، وفى الأغانى الكبـير: «يَحِلُّ بمنجاة» .

وقـد يُظَنُّ أن هنا قسـمـا رابعًا، وهو أن يكون المطـلوب بالكناية الوصفَ والنِّسبة مـعًا، كما يقـال : « يكثر الرماد فى ساحة عَـمْرو » فى الكناية عن أن عَمْرًا مِضْيافٌ ، وليس بـذاك ؛ إذ ليس ما ذُكِرَ كناية جديدة ، بل هو كنايتان:

---

(١) لا تخفر الذمم : لا تنقض العهود ولا تغدر.

(٢) أيفع : ترعرع وناهز البلوغ. لداته ، -ومثله أترابه- أي أقرانه ونظراؤه ومن ولدوا معه ، أو من تربوا معه . مفرداتها على التوالى : لِدة ، تِرْب ، قِرْن ، نَظير .

(٣) بعض الآية ١١ من سورة الشورى .

(٤) المنجاة مكان النجاة. والشنفرى : شـاعر جاهلي عدّاء ، يضرب به المثل فيقـاس عليه من يراد وصفه بالتفوق فى العدو .

إحداهما عن المِضْيافِيَّة ، والثانية عن إثباتها لعَمْرو .

وقد ظهـر بهذا أن طرف النسبة المثبتة بطريق الكناية يجـوز أن يكون مكْنيًا عنه أيضا ، كـما فى هذا المثـال ، ونحوهُ بيتُ الشَّنْفَـرَى المتقـدم ؛ فإن حُلول البيت بمنجـاة من اللوم كناية عن نسبـة العفَّة إلى صـاحبه ، والمـنجاة من اللوم كناية عن العفة .

واعلم أن الموصوف فى القسم الثانـى والثالث قد يكون مذكورا كـما مر ، وقد يكونُ غيرَ مذكور ، كما تقول فى عرض من يؤذى المسلمين : « المسلم من سَلِم المسلمون من لسانه ويده»[١] أى : ليس المؤذى مسلمًا .

وعليه قـوله تعالى فى عـرض المنافقين : ﴿ هُدًى لِلمتَّـقِينَ ، الَّذِينَ يُؤمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾[٢] إذا فُسِّرَ الغَـيْبُ بالغَيْبَةِ ، أى : يؤمنون مع الغيبـة عن حضرة النبى ﷺ أو أصحـابه رضى الله عنهم ، أى : هدى للمـؤمنين عن إخلاص، لا للمؤمنين عن نفاق .

---

(١) هذا التركيب مما أثر عن رسول الله ﷺ .

(٢) بعض الآيتين ٢-٣ من سورة البقرة .

القيمة الفنيَّة لصور التجوُّز المختلفة
من كتاب (دلائِل الإعْجَاز) لعبد القاهر

فصل

قد أجمع الجـميعُ على أنَّ الكناية أبلغُ من الإفصاح، والـتَّعْريضَ أوقعُ من التَّصْريح، وأن للاستعارة مزيةً وفضلاً ، وأن المجاز أبدًا أبلغُ من الحقيقة.

إلاَّ أنَّ ذلك وإن كان معـلُومًا على الجملة، فإنَّه لا تطمـئن نفسُ العاقل فى كل ما يطلب العلمَ به حـتى يبلغ فيه غايتـه ، وحتى يغلغل الفكر إلى زواياه، وحتى لا يبقى عليه موضع شُبهة ومكان مسألة .

فنحن وإن كنّا نعلمُ أنك إذا قلت: هو طَويلُ النِّجادِ، وهو جَمّ الرَّمَادِ، كان أبهى لمعناك ، وأنبَل من أنْ تدعَ الكـناية وتصرِّح بالذى تريد. وكـذا إذا قلت : رأيتُ رَجُـلاً هُوَ والأسَدُ سـواءٌ ، فى معَنى الشـجاعـة وفى قوة القلب وشـدة البطش وأشبـاه ذلك، وإذا قلت : بلَغَنى أنَّكَ تُقَدِّمُ رِجلاً وتُؤَخِّـرُ أُخْرَى، كان أوقَعَ من صـريحه الذى هـو قولك بلغنى أنَّك تـتردد فى أمـرك وأنك فى ذلك كمن يقول : أخْرُجُ ولا أخرج، فيقدم رجلا ويؤخر أخرى .

ونقطَعُ على ذلك حتى لا يخالجنا شك فيـه ، فإنَّما تسكنُ أنفسُنا إذا عرفنا السبب فى ذلك والعلةَ ، ولِمَ كان كذلك ، وهيـأنا له عبارة تُفهم عنا من نريد إفهامه ... وهذا هو القول فى ذلك:

اعلم أن سبيلك أوّلاً أن تعلم أنْ ليست المزيَّةُ التى تُثْبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره، والمبالغةُ التى تدَّعى لها فى أنْفُس المعانى التى يقصد المتكلم إليها بخبره ، ولكنَّها فى طريق إثباتِه لها وتقريره إياها .

تفسير هذا أنْ ليس المعنى إذا قلنا * : «إن الـكنايَة أبلغُ من التصـريح» أنَّك لما كَنيتَ عن المعنى زِدْتَ فى ذاته، بل المعنى أنَّكَ زدتَ فـى إثباته فجـعلتَه أبلغَ وآكدَ وأشدّ . فليـست المزيةُ فى قولهم : جَمُّ الرَّمَاد، أنه دل على قـرىً أكثر ، بل أنك أثبتَّ له القِرَى الكـثيرَ من وجه هو أبلغُ ، وأوجـبْتَهُ إيجـابًا هُو أشدُّ ، وادّعيتَه دعوى أنت بها أنْطَقُ ، وبصحَّتها أوثق

وكذلك ليست المزيةُ التى تراها لقـولك : (رأيتُ أسدًا) على قولك (رأيتُ رجلاً لا يتميَّـزُ عن الأسَدِ فى شجاعَته وجـرأته) ، أنك قد أفدْتَ بالأول زيادةً فى مسـاواته الأسدَ ، بل إنك أفـدت تأكيـدًا وتشديدا وقوة فى إثبـاتك له هذه المساواةَ وفى تقريرك لها ، فليس تأثير الاستـعارة إذن فى ذات المعنى وحقيقته ، بل فى إيجابه والحكم به .

وهكذا قياسُ **التمثيل** . . ترى المزيةَ أبدًا فى ذلـك تقعُ فى طريق إثبـات المعنى دونَ المعنى نفسه ، فإذا سمـعتهم يقولون : إنَّ مِنْ شان هذه الأجناس أنْ تُكسب المعـانى نُبلا وفضـلا ، وتوجِبَ لها شـرفًا ، وأن تفخِّـمهـا فى نفوس السامعين ، وترفعَ أقـدارها عند المخاطبين ، فإنهم لا يريدون الشجـاعة والقرى وأشباه ذلك من معانى الكَلِم المفردة ، ،وإنما يَعْنُون إثبات معانى هذه الكلم لمن تَثْبُت له ، ويُخبَرُ بها عنه .

هذا ما ينبـغى للعاقل أن يجعلَه على ذُكْـر منه أبدا ، وأن يعلم أنْ ليس لنا إذا نحن تكلمنا فى البلاغة والفصاحة مع معانى الكلِم المفردة شُغْلٌ ولا هى منا بسبيل ، وإنما نعمد إلى الأحكام التى تحدث بالتأليف والتركيب ، وإذ قد عرفتَ مكان هذه المزية والمبالغـة التى لاتزال تسمع بها وأنها فى الإثبـات دون المثبت ، فإن لها فى كل واحدٍ من هذه الأجناس سببًا وعلة .

أما الكناية فإن السبب فى أن كان للإثبات بها مزيةٌ لا تكون للتصريح أنَّ كلَّ عاقل يعلم - إذا رجع إلى نفسه - أن إثباتَ الصفة بإثبات دَليلها، وإيجابَها بما هو شاهدٌ فى وجـودها ، آكدُ وأبلغُ فى الدعوى من أن تَجىءَ إليهـا فَتُثْبِـتَها هكذا ساذجًا غُفْلا ، وذلك أنك لا تدَّعى شاهدَ الصفة ودليلهَا إلاّ والأمرُ ظاهر

معروف وبحيث لا يُشَك فيه ولايُظَن بالمخبر التجوُّزَ والغلط .

وأما الاستعارةُ فسَبَبُ ما ترى لهـا من المزية والفخـامة أنَّك إذ قُلتَ: (رأيت أسدًا) ، كنتَ قد تـلطَّفْتَ لما أردتَ إثباته له من فَرْط الشجـاعة ، حتى جعلتها كالشيء الذى يجب له الثبوتُ والحصول، وكالأمر الذى نُصِب له دليلٌ يقطع بوجـوده . وذلك أنه إذا كان أسـدًا فواجبٌ أن تكون له تلـك الشجـاعة العظيمة ، وكالمستحيل أو الممتنع أن يعرَى عنها ، وإذا صرحتَ بالتشبيه فقلتَ: رأيت رجُلاً كالأسد ، كنتَ قد أثبتَّها إثباتَ الشىء يترجَّح بين أن يكون وبين أن لا يكون ، ولمْ يكن من حديث الوجوب فى شيء .

وحكم التمثيل حكمُ الاستعـارة سـواءً ، فإنك إذا قلت : أراك تقـدّم رِجْلا وتؤخر أخرى ، فأوجبت له الصورة التى يُقطع مـعها بالتَّحيُّر والتردُّد كان أبلغ لا محالة من أن تجرى على الظاهر ، فتقول : قد جعلتَ تتردَّدُ فى أمرك ، فأنت كمَنْ يقول : أخرج ولا أخرج ، فيقدم رجلا ويؤَخر أخرى ..

فصل

اعلم أنَّ من شـأن هذه الأجناس أن تجرىَ فـيهـا الفضـيلة ، وأن تتفـاوت التفاوتَ الشديد .

أفلا ترى فى الاسـتعـارة: العاميَّ المبتـذل كقـولنا: رأيت أسدًا ، ووردْتُ بحـرًا، ولقيت بدرًا ، والخـاصيَّ النادر الذى لا تجـده إلا فى كـلام الفحـول، ولايقوى عليه إلا أفراد الرجال ؛ كقوله :

« وسالتْ بأَعْناقِ المطىِّ الأبَاطحُ »

أراد أنها سارت سـيرًا حثيثًا فى غـاية السرعة، وكانت سرعـةٌ فى لين وسلاسة كأنها كانت سيولاً وقعت فى تلك الأباطح فجرت بها .

ومثل هذه الاستعارة فى الحسن واللطف وعلوِّ الطبقة فى هذه اللفظة بعينها قول الآخر :

سالتْ عليه شعابُ الحىّ حين دعا أنصارَهُ بوجُوهٍ كالدنانيـــــر

أراد أنه مطاع فى الحى وأنهم يسرعون إلى نصـرته، وأنه لا يدعوهم لحرب، أو

نازل خطب ، إلا أتوه وكثروا عليه ، وازدحموا حواليْه ، حتى تجدهم كالسيول تجيءُ من ههنا وههنا ، وتنصبُّ من هذا المَسِيلِ وذاك ، حتى يغَصّ بها الوادى ويطفح منها .

ومن بديع الاستعارة ونادرها - إلا أن جهة الغرابة فيه غير جهتها فى هذا- قولُ يزيدَ بن مَسلمةَ بن عبد الملك يصف فرسًا له ، وأنه مؤدّب، وأنه إذا نزل عنه وألقى عنانه فى قَربوس سرجه ، وقف مكانه إلى أن يعود إليه :

عوَّدتهُ فيما أزورُ حبَائِبى ... إهمالَه وكذاك كلُّ مخاطِر

وإذا احتبى قَرَبُوسُهُ بعنانه ... علَكَ الشَّكيمَ إلى انصراف الزّائر

فالغرابة ههنا فى الشَّبه نفسه وفى أن استدرك أن هيئة العنان فى موقعه من قربوس السرج كالهيئة فى موقع الثوب من رُكبة المحتبى ، وليست الغرابة فى قوله :

« وسالتْ بأعناق المَطِىِّ الأباطِحُ »

على هذه الجملة، وذلك أنه لم يُغرب لأن جعل المطىَّ فى سرعة سيرها وسهولته كالماء يجرى فى الأبطح، فإن هذا شَبَهٌ معروف ظاهر ، ولكن الدقة واللطف فى خصوصيَّة أفادها بأن جعل «سال» فعلاً للأباطح ثم عدّاه بالباء بأن أدخل الأعناق فى البيْن فقال : «بأعناق المطىّ» ولم يقل بالمطىّ ،ولو قال : سالت المطىُّ فى الأباطح لم يكن شيئًا . وكذلك الغرابة فى البيت الآخر ليس فى مطلق معنى (سال) ولكن فى تعديته بعلى والباء وبأن جعله فعلاً لقوله «شعاب الحى » ولولا هذه الأمور كلها لم يكن هذا الحسنُ ، وهذا موضع يدق الكلام فيه .

وهذه أشياء من هذا الفن :

اليومُ يومان مُذْغيِّبْتَ عن بصرى ... نفسى فداؤُك ما ذنبي فأعتذر

امسى وأُصبح لا ألقاكَ ، وَاحزَنًا ... لقد تأنّق في مكرُوهي القدر

سَوارُ بن المضَرَّب وهو لطيف جدًا :

بعرض تَنُوقَةٍ للريح فيها ... نسيمٌ لا يرُوع التُّربَ وَانِ

ابنُ المعتز :

حتى إذا ما عَرف الصَّيْدَ الضَّارْ وأَذِنَ الصبحُ لنا في الإبصـــار

المعنى : حتى إذا تهيأ لنا أن نبصر شيئًا ، لَمَّا كان تعذُّر الإبصار منعًا من الليل، جعل إمكانه عند ظهور الصبح إذنًا من الصبح .

وله :

بخيلٌ قد بليت بـــه يَكُدُّ الوعدَ بالحجج

وله :

يُنَاجِينِيَ الإخلافُ من تحت مَطْلِــه فتختَصِمُ الآمالُ واليأسُ فى صدْرى

ومن سرِّ هذا الباب أنك ترى اللفظة المستعارة قد استُعيرت فى عدة مواضع ، ثم ترى لها فى بعض ذلك ملاحةً لاتجدها فى الباقى . مثال ذلك أنك تنظر إلى لفظة « الجسر » فى قول أبى تمام :

لا يطمع المرءُ أن يَجْتَابَ لُجَّتَـــه بالقول ما لم يكن جسرًا له العمل

وقوله :

بَصُرْتَ بالرَّاحة العظمى فلم ترها تُنَالُ إلا على جِسْرٍ من التَّعَـــب

فترى لها فى الثانى حسنًا لا تراه فى الأول، ثم تنظر إليها فى قول ربيعة الرقى:

قولى : نعم، ونعم إن قلت واجبةٌ قالت :عسى، وعسى جسر إلى نَعَم

فترى لها لُطفًا ،وخلابة وحسنًا ليس الفضل فيه بقليل .

ومما هو أصل فى شـرف الاستعـارة أن ترى الشاعـر قـد جمع بين عـدة استعارات قصـدًا إلى أن يُلحق الشكلَ بالشكلِ، وأن يُتمَّ المعنى والشبهَ فيـما يريد.

مثاله قول امرئ القيس :

فقلتُ له لَمَّا تمطَّى بصُلْبـه وأردف أعجازًا ونَاءَ بكَلْكَلِ

لما جـعل للَّيل صُلْبًا قد تمـطَّى به ثَنَّى ذلك فجـعل له أعـجـازًا قد أردف بهـا الصُّلب، وثلّث، فجعل له كَلْكَلاً قد ناء به ، فاستوفى له جملة أركان الشخص وراعى ما يراه الناظر من سـواده إذا نظر قُدَّامَه وإذا نـظر إلى خلفه ، وإذا رفع البصر ومدَّه فى عُرْض الجو .

من تاريخ التفكير فى المجـــاز

(١)

نموذج من الدراسات اللغوية حول القرآن

من (مجاز القرآن) لأبى عبيدة(*)

قـالوا : إنما أُنزل القـرآن بلسان عـربى مـبين ، وتَصـداقَ ذلك فى آية من القرآن: ﴿ وما أَرْسَلْنَـا من رَسُولٍ إلا بِلِسَانِ قَـوْمِهِ ﴾ ، فلم يَحـتجْ السلفُ ولا الذين أدركُوا وحـيَهُ إلى النبى ﷺ أن يسـألوا عن معـانيه لأنهم كـانوا عربَ الألسن فاسـتغنَوْا بعلمـهم به عن المسألة عن معـانيه ، وعـما فيـه مما فى كلام العرب مثله من الـوجوه والتلخيص. وفى القرآن مثلُ مـافى الكلام العربى من وجوه الإعراب ، ومن الغريب، والمعانى .

ومن المحتمل من **مجاز ما اخْتُصِر وفيه مُضْمر** ، قال : ﴿وانطَلَقَ الملأُ منهُمْ أنْ امْشُوا واصـبرُوا ﴾ ، فهذا مختـصر فيه ضميـر مجازه : «وانطَلَقَ الملأُ منهُمْ »، ثم اختصر إلى فعلهم وأُضمـر فيه : (وتواصَوْا أن امْشُوا أو تنادوا أنْ امْشُوا) أو نحو ذلك. وفى آية أخرى : ﴿ماذا أرادَ اللهُ بهَذَا مَثَلا﴾ ، فهذا من قول الكفار ، ثم اختصر إلى قول الله ، وأضـمر فيه (قُلْ يا محمد) : ﴿يُضِلَّ به كثيرا﴾ ، فهذا من كلام الله.

ومن **مجاز ما حُذف وفيه مضمر** ، قال : ﴿وسَلِ القَرية التى كُنا فـيها والعيرَ التَّى أقبلْنَا فـيها ﴾ ، فهذا محذوف فيه ضـمير ، مجازه ، (وسل أهْلَ القرية ومنْ فى العِير) .

ومن مجـاز ما كُفَّ عن خبـره استغنـاءً عنه وفيه ضـمير قـال: ﴿حتى إذَا

(*) أبو عبيدة معمر بن المثنى التَّيمِىّ ، احد أعلام مدرسة البصرة، يتعرض كتابه (المجاز) للظواهر اللغوية غير النمطية فى النص القرآنى . توفى حوالى ٢١٠هـ .

جَـاءُوها وفُتِـحَتْ أبوابُهـا وقال لهُـم خزنتُـهـا سلام عليكُم طِبْـتُم فـادخلُوها خالدين﴾، ثم كفَّ عن خبره .

ومن مجاز ما جاءَ لـفظُه لفظَ الواحد الذى له جِماع منه ووقع معنى هذا الواحد على الجميع ، قال ﴿يُخْرِجكُمْ طِـفْلا﴾ ، فى موضع : (أطفالا). وقال: ﴿ إنما المؤمنون إخوةٌ فأَصْلِحُوا بين أخَوَيْكُم﴾ فهذا وقع معناه على قـوله : ﴿وإن طائفـتـان من المؤمنين اقـتـتلوا﴾ ، وقـال : «والمَلَك على أرْجَائها» ، فى موضع : (والملائكة) .

ومن مجـار ما جاءَ من لفظ خـبر الجمـيع على لفظ الواحد ، قال: ﴿والملائكَة بعدَ ذلكَ ظَهِيرٌ ﴾ . فى موضع : (ظُهَراء) .

ومن مـجار مـا جاء لفظه لفظ الجـميع الذى له واحـدٌ منه ، ووقع معني هذا الجميع على الواحد، قال : ﴿الذين قَالَ لَهُم النَّاسُ إنَّ الناسَ قدْ جَمَـعُوا لكم﴾ والناس جميع ، وكان الذى قـال رجلاً واحدًا . . . . وقال : ﴿إنا كلَّ شيء خلَقناه بقدَر﴾ والخالق الله وحده لا شريك له .

. . . .

ومن مجاز ما جاءَت مخاطبته مخاطبة الغائب ومعناها للشاهد، قال : ﴿الَمَ ذلك الكِتَابُ﴾ ، مجازه : آلَمَ هذَا القُرآن .

ومن مجاز ما جاءَت مخاطبتُه مخاطبةَ الشاهد ، ثم تُركت وحُولت مخـاطبتُـه هذه إلى مخـاطبة الغـائب ، قال الله : ﴿حـتى إذا كُنْتُمْ في الفُلْكِ وجَرَيْنَ بِهِم﴾ ، أي بكم .

ومن مجاز ما جاءَ خـبرُهُ عن غائب ثم خُوطب الشاهد ، قال : ﴿ثم ذَهَبَ إلى أهْلِه يَتَمطَّى أوْلى لَكَ فأوْلى﴾ .

ومن مجـار ما يزاد فى الكلام من حـروف الزوائد، قـال الله: ﴿إن الله لا يستَحى أن يضربَ مثلاً مـا بعوضةً فما فوقَهـا﴾ ، وقال : ﴿ فما منكُم مِنْ أحَد عنـه حاجزين﴾، وقال: ﴿وشـجرةً تخرُجُ من طُـور سيناءَ تَنْبُتُ

بالدُّهْنِ وصِبْغٍ للآكلين﴾، ،وقال : ﴿وإذْ قال ربُّكَ للملائكة﴾ ، وقال : ﴿ مامنعك ألا تَسْجُدَ ﴾ مجاز هذا أجمع إلقاؤهن .

ومن مجاز المضمر فيه استغناءً عن إظهاره قال :«بِسْم الله» . ففيه ضمير مجازه:(هَذا بِسْم الله)، (أو بسم الله أوّل كل شيء) ونحو ذلك .

ومن مجاز المكرر للتوكيد قال : ﴿ رأيتُ أحَدَ عَشَرَ كَوكَبًا والشمسَ والقَمَرَ رأيتُهمْ لى ساجدِين﴾ . أعاد الرؤية . وقال : ﴿ أوْلى لَكَ فأوْلَى﴾ ، أعاد اللفظ. وقال : «فصيام ثلاثة أيّام في الحَجِّ وسبعة إذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كامِلَة﴾ . وقال : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أبى لَهَبٍ وتَبَّ ﴾ .

ومن مجاز المجمل استغناءً عن التكرير قال : (. . . . .) ؟.

ومن مجاز المقدَّم والمؤخَّر قال : ﴿فإذَا أنزَلْنَا عَلَيْهَا الماءَ اهتَزَّتْ وربَتْ﴾ ، أرَادَ: ربَتْ واهتَزَّتْ . وقال : ﴿ لمْ يَكَدْ يرَاهَا﴾ أى لمْ يرَهَا ولَمْ يكَدْ .

ومن مجاز ما يُحوِّلُ خبرُه إلى شيء من سببه ويُتْرِكُ خبرهُ هو قال : ﴿فَظلَّتْ أعناقُهم لهاخَاضِعِين﴾ حوَّل الخبرُ إلى الكناية[1] التى فى آخر الأعناق.

ومن مجاز ما يُحوِّل فعل الفاعل إلى المفعول أو إلى غير المفعول قال : ﴿ما إنَّ مفاتِحَهُ لَتنُوءُ بالعُصبَة﴾ والعصبةُ هى التى تنوءُ بالمفاتيح.

ومن مجاز ما وقع المعنى على المفعول وحُوِّلَ إلى الفاعل قال: ﴿كمَثَلِ الَّذى يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ﴾ ، والمعنى على الشاءِ المَنْعُوقِ بِهِ وحُوِّل إلى الراعى الذى ينعق بالشَّاء .

ومن مجاز المصدر الذى فى موضع الاسم أو الصفة قال:﴿ولكنَّ البرَّ مَنْ آمَنَ بالله﴾ المعنى: البارّ. وقال: ﴿إنّ السموات والأرضَ كانَتَا رَتْقًا﴾،

---

(١) الكناية هنا بمعنى الضمير .

والرَّتقُ مصدر وهو فى موضع مَرْتُوقَتَيْن، وقال: «أنَا رَسُول ربّك» أى رسالة ربك .

. . . .

والقرآن: اسم كتاب الله ، لا يُسمى به غيره من الكتب ، وذلك لأنه جمَع وضمَّ السور ، ومجازه من قوله : ﴿إنَّ علينا جمعَه وقرآنه﴾ . أى تأليف بعضه إلى بعض ، ﴿ فإذا قرأْنَاه فاتَّبع قرآنه ﴾ ، وسُمِّيَ الفرقانَ لأنه يَفْرِق بين الحق والباطل والمؤْمن والكافر .

ففى القرآن ما فى الكلام العربى من الغريب والمعانى ومن المُحْتَمل من مجاز ما اختُصر ، ومجاز ما حُذِف ومجاز ما كُفَّ عَنْ خبره، ومجاز ما جاءَ لفظُه لفظَ الواحد ووقع على الجميع ، ومجازِ ما جَاءَ لفظُه لفظَ الجميع ووقع معناه على الاثْنَين ، ومجاز ما جاءَ لفظهُ خبرًا لِجَميع على لفظ خبر الواحد، ومجاز ما جاءَ الجميعُ في موضع الواحد ، إذا أشرك بينه وبين آخر مفرد ، ومجاز ما خبَّر عن اثنين أو عن أكثر من ذلك ، جُعل الخبرُ للواحد أو للجميع وكُفَّ عن خَبرِ الآخر ، ومجاز ما خبَّر عن اثنين أو أكثر من ذلك فجُعِلَ الخَبَر للأول منهما ، ومجازِ ما خبَّر عن اثنين أو عن أكثر من ذلك فجعل الخَبَر للآخر منهما ، ومجاز ما جاءَ من لفظ خَبرِ الحيوان والموات على لفظ خبر الناس - والحيوان كلُّ ما أكل من غير الناس وهى الدواب كلها - ومجاز ما جاءَت مخاطبتُه مخاطبةَ الغائب ومعناه مخاطبة الشاهد . ومجاز ما جاءَت مخاطبته مخاطبة الشاهد ، ثم تركت وحوِّلت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب، ومجاز ما يُزَادُ من حروف الزوائد ويقع مجاز الكلام على إلقائهن، ومجاز المضمر استغناءً عن إظهاره ، ومجاز المكرَّر للتوكيد، ومجاز المُجْمل استغناءً عن كثرة التكرير ، ومجاز المقدَّم والمؤَخَّر ، ومجازِ ما يُحوَّل من خبره إلى خبر غيره بعد أنْ يكون من سببِه ، فيجعل خبره للذى من سببه ويترك هو . وكل هذا جائز قد تكلموا به .

(٢)

الدراسات القرآنية والقيمة الفنية للتجوّز

من (تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة(*)

قال عبد الله بن مسلم بن قتيبة :

الحمد لله الذى نَهَجَ لنا سبيل الرشاد، وهدانا بنور الكتاب ، ﴿ولمْ يَجْعَلْ له عِوَجا﴾ بل نزله قيِّما مفصّلا بينا ﴿لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حَمِيد﴾ وشرّفه وكرّمه ، ورفعه وعظّمه ، وسمّاه روحا ورحمة ، وشفاءً وهدي ونورًا .

وقطع منه بمعجز التأليف أطماعَ الكائدين ، وأبانَهُ بعجيب النظم عن حِيل المتكلِّفين، وجعلَه مَتْلُوًا لا يُمَلُّ علي طول التلاوة ، ومسموعا لا تمجُّه الآذان، وغضًا لا يخلُق علي كثْرة الردّ ، وعجيبا لا تنقضى عجائبُه ، ومفيدا لا تنقطع فوائده ... .

باب ذكر العرب وما خصّهم الله به

من العارضة والبيان واتساع المجاز

وإنما يَعْرف فضلَ القرآن مَنْ كثُرَ نظرُهُ ، واتسع علمه ، وفهِمَ مذاهب العرب، وافتنانَها فى الأساليب، وما خصّ الله به لغتها دون جميع اللغات ، فإنه ليس فى جميع الأمم أمةٌ أوتيَتْ من العارِضة، والبيان ، واتِّسَاع المجال ، ما أُوتيَتْه العرب خِصِّيصَى من الله لما أرهصه فى الرسول ، وأراده من إقامة الدليل على نُبُوّته بالكتاب ، فجعله عَلَمَه كما جعل عَلَمَ كلٌ نبىٌ من المرسلين من أشبه الأمور بما فى زمانه المبعوث فيه .

(*) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، من كبار العلماء فى مجالات اللغة والأدب والدراسات القرآنية والحديث النبوى ، ت ٢٧٦هـ .

فكان لموسى فلقُ البحر ، واليد ، والعَصَا ، وتفجُّر الحَجَر فى التِّيه بالماء الرَّوَاء ، إلى سائر أعلامه **زمن السحر** .

وكان لعيسى إحياءُ الموتى ، وخَلْقُ الطير من الطِّين ، وإبراءُ الأكمَه والأبرص ، إلى سائر أعلامه **زمن الطب** .

وكان لمحمد ﷺ الكتابُ الذى لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لم يأتوا به ولو كان بعْضُهم لبعض ظهيرًا، إلى سائر أعلامه **زمن البيان**.

فالخطيب من العرب إذا ارتجل كلاما فى نكاح أو حَمَالَة ، أو تحْضِيض أو صلح أو ما أشبه ذلك ، **لم يأتِ به من وَادٍ واحد** بل يَفْتَنُّ فيختصر تارةً إرادة التخفيف ، ويُطيل تارةً إرادة الإفهام ، ويكرِّر تارةً إرادة التوكيد ، ويُخْفِى بعضَ معانيه، حتى يَغْمض على أكثر السامعين ، ويكشف بعضها حتى يفهمه بعض الأعجميِّين ، ويشير إلى الشىء ويكْنِى عَنِ الشَّىء. وتكون عنايَتُهُ بالكلام على حسب الحال ، وقَدْر الحفل، وكثرة الحشد ، وجلالة المقام .

ثم لا يأتى بالكلام كلّه مهذَّبا كل التهذيب ، ومصفًّى كلَّ التَّصفية ، بل تجده يمزُجُ ويشُوب ، ليدل بالناقص على الوافر، وبالْغَثِّ على السمين. ولو جعله كلَّه نَجْرًا واحدًا لبخسه بهاءَه ، وسَلَبَه ماءَه.

ومثل ذلك الشهاب من القبس تبرزه للشعاع، والكوكبان يقترنان فينقص النوران ، والسِّخَابُ يُنظم بالياقوت والمرجان والعقيق والعِقيان ، ولا يُجعل كله جنسًا واحدا من الرَّفيع الثمّين ولا النفيس المصون.............

....

صور المجاز كما رسمها ابنُ قتيبة

وللعرب المجازاتُ فى الكلام ، ومعناها طرقُ القولِ ومآخذه ، ففيها الاستعارة والتَّمثيل والقَلْب، والتَّقْديم، والتَّأخير، والحَذْف والتَّكرار والإخفاءُ والإظهار والتَّعْرِيض والإفصَاح، والكناية والإيضاح، ومخاطبةُ الواحد مخاطبةَ الجميع، والجميعِ خطابَ الواحد، والواحدِ والجميع خطابَ الاثنين، والقصدُ

بلفظ الخُصوص لمعنَى العـموم وبلفظ العموم لمعنى الخصوص، مع أشيـاء كثيرة ستَراها فى أبواب المجاز ، إن شاء الله تعالى .

وبكل هذه المذاهب نَزَل القرآن ، ولذلك لا يَقْدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شىء من الألسنة كما نُقِلَ الإنجيل عن السّريانيـة إلى الحبشية والرومية وتُرجمت الـتوراة والزَّبور، وسائر كـتب الله تعالـى بالعربية ، لأن الـعجم لم تَّسع فى المجاز اتسّاع العرب .

الا ترى أنك لو أَرَدْتَ أن تنقل قوله تعـالى: ﴿وإمَّا تَخَافَنَّ من قَوْمٍ خـيانَةً فانبِذْ إلَيهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ لم تسـتطعْ أن تأتِىَ بهذه الألفاظ مُؤدِّيةً عن المعنى الذى أودعَتْه حتى تَبْسُط مـجموعَها. وتَصِلَ مقْطُوعها، وتُظهرَ مَسْـتُورَها فتقول: إن كانَ بينك وبين قومٍ هـدنةٌ وعهد فخِفْتَ منهم خـيانة ونقضًا فـأعْلِمْهم أنَّك قد نقَضْتَ ما شـرَطْتَ لهم ، وآذنهم بالحرب ، لتكون أنت وهم فى العلم بالنقض على استواء .

وكذلك قـوله تعالى : ﴿فَـضَرَبْنَا على آذانِهِمْ فى الكَهْـف سنِينَ عَدَدًا﴾ إن أردتَ أن تنقُلَهُ بلفظه لم يفهـمْه المنقولُ إليه ، فـإن قلت : أنَمْنَاهُم سِنِينَ عَدَدًا لكُنْتَ مُتَرجما للمعنى دون اللفظ.

وكـذلك قوله: ﴿والذيـنَ إذا ذُكِّرُوا بآيات ربهم لـم يَخِرُّوا عليـهـا صُمًّـا وعُمْـيانًا﴾ إن تَرْجَمْتَـه بمثل لفظه استَغْلَقَ، وإن قلت: لم يَتَـغافَلُوا أدَّيْتَ المعنى بلفظ آخر .

وقد اعترض كتابَ اللهَ بالطعن ملحدون ولغَـوْا فيه وهجروا ، واتَّبعوا ﴿ما تَشَابَه منه ابتغاءَ الفتنة وابتغاءَ تأويله﴾ بأفهام كليلة . وأبصار عليلة ونظر مَدْخول فحرَّفُوا الكلام عن مواضِعه، وعَدَلوه عن سبله .

ثم قَضَوْا عليه بالتناقض والاستحالة فى اللَّحن وفسادِ النَّظْم، والاختلاف.

وأدْلَوْا فى ذلك بعلَلٍ ربما أمالت الضعيفَ الغَمْر، والحَدَث الغِرَّ، واعترضت بالشُّبه فى القلوب، وقدحَتْ بالشكوك فى الصدور

. . . .

وقالوا: مـاذا أرادَ الله بإنزال المتـشابه فى القـرآن، مَنْ أرادَ لعبـاده الهُدى والبيان؟ وتعلَّقُوا بكثير منه لطف معناه لما فيه من المَجَازات: بمُضْمَر لغير مذكور، أو محذوف من الكلام متروك ، أو مَزيدٍ فيه يوضِّح معناه حذفُ الزيادة أو مقدَّم يوضِّح معناه التأخيرُ ، أومؤَّخر يوضِّح معناه التقديمُ ، أو مستعار ،أو مقلوب.

وتكلموا فى الكناية مثل قوله: ﴿تبّتْ يدَا أبى لَهَب﴾، ومثل قوله: ﴿ليتَنى لم أتَّخذْ فُلانًا خليلاً﴾ .

وفى تكرارالكلام فى﴿قُلْ يأيُّها الكَافِرون﴾،وفى سورة الرحمن،وفى تكرار الأنباءِ والقصص من غير زيادة ولا إفادة ، وفى مخالفة معنى الكلام مخرجه .

وقد ذكرتُ الحجُةَ عليهم فى جميع مـا ذكروا وغيره مِمّا تركوا ، وهو يشبه ما أنكروا ، ليكونَ الكتابُ جامعا للفَنِّ الذى قصدتُ له .

وأفردتُ للغريب كتابا، كىْ لا يطول هـذا الكتاب ، وليكونَ مقصوراً على معناه ، خفيفا على من قرأه ، إن شاء الله تعالى

. . . .

باب المتشابه

وأما قـولهم: ماذا أراد بإنزال المتـشابه فى القـرآن، مَنْ أراد بالقرآن لعـباده الهدى والتبيان؟

فالجـواب عنه : أن القرآن نَزَلَ بألفـاظ العرب ومـعانيهـا ، ومذاهبـها فى الإيجاز والاخـتصـار، والإطالة والتوكـيد، والإشارة إلى الشىء، وإغـمـاض بعض المعانى حتى لا يظهر عليه إلا اللَّقِن ، وإظهـار بعضها ، وضرْب الأمثال لما خَفِيَ.

ولوكان القرآن كله ظاهرًا مكشوفا حتى يستوىَ فى معرفته العالم والجاهل، لبطل التفاضلُ بين الناس، وسقطت المحنةُ، وماتتْ الخواطر .

باب القول فى المجاز

وأما المجـاز فمن جهـته غلط كثيـرٌ من الناس فى التأويل، وتشـعّبت بهم الطرق، واختلفـت النِّحَل، فالنّصارَى تذهب فى قـول المسيح عليـه السلام فى الإنجيل ، « أدْعُو أبى ، وأذهبُ إلى أبى » وأشباه هذا، إلى أُبوَّة الولادة.

ولو كان المسيحُ قال هذا فى نفسه خاصةً دون غيره، ما جاز لهم أن يتأولوه هذا التأويل فى الله - تبارك وتعالى عما يقـولون علوّا كبيرًا - مع سعة المجاز. فكيف وهو يقوله فى كثير من المواضع لغيره، كقوله حين فتح فاه بالوحى: «إذا تصـدقت فلا تعلم شـمالُك بما فـعلتْ يمينُك، فإن أباك الـذى يرى الخفـيّات يَجـزيك به علانيـةً، وإذا صليتُم فـقولوا: يا أبانا الذى فـى السمـاءِ ليتـقدسَ اسمُك، وإذا صُمتَ فاغسل وجهك وادْهِن رأسك لِئَلاَّ يعلم بذلك غيرُ أبيك».

وقد قرأُوا فى الزبور أن الله تبارك وتعالى قـال لداود عليه السلام: «سيولد لك غلام يسمى لى ابنا وأُسمِّى له أبا » .

وفى التوراة أنه قال ليعقوب عليه السلام : « أَنت بِكرى » .

وتأويل هذا أنه فى رحـمتـه وبرِّه وعطفه على عـباده الصـالحين ، كالأب الرحيم لولده .

وكذلك قـال المسيح للمـاء : «هذا أبى»، وللخبـز: «هذا أمّى»، لأن قوام الأبدان بهـما، وبقـاءَ الروح عليهـما، فـهمـا كالأبوين اللذين منهـما النـشأة وبحَضانَتِهما النماء.

وكانت العرب تسـمِّى الأرض أمّا : لأنها مبـتدأُ الخلق، وإليها مـرجعهم ومنها أقواتُهم ، وفيها كفايتهم.

وقال أمُيّة بن أبى الصلت :

والأرض مَعْقِلُنا وكانت أُمَّنا   فيها مقابِرُنا وفيها نُولَـــــدُ

وقال يذكرها :

منها خُلقْنا وكانتْ أُمَّنا خُلِقَتْ ونحن أبناؤُها لوْ أنَّنا شُكُــرُ
هى القرارُ فما نَبْغِى بها بَــدَلاً ما أرحَمَ الأرضَ إلا أنَّنا كُفُــرُ

وقال الله تعالى فى الكافر : ﴿فأُمُّـه هاوية﴾ لما كانت الأم كافلةَ الولد وغاذيته ومأواه ومربيتَه ، وكانت النار للكافر كذلك - جعلها أُمَّه .

وقـال فى أزواج النبى ﷺ ﴿وأَزْوَاجُـه أُمَّـهَاتُهُم﴾أى: كـأُمـهـاتِهم فى الحرمات.

وفى التوراة : « إن اللهَ برَّك اليومَ السابعَ وطهَّره ، من أجل أنه استراح فيه من خليقته التى خلق » .

وأصل الاستـراحة: أن تكون فى معـاناة شىء يُنصِبُك ويتعـبك، فتستريح. ثم يتَنقَّل ذلك فـتصيـر الاستـراحةُ بمعنى الفـراغ، تقول فى الكلام: استـرحنا من حاجتك وأمرنا بها، تريد فرغنا، والفراغ أيضا يكون من الناس بعد شغلك.

ثم قد يتنقـل ذلك فيصـير فى معنى القَـصْد للشىء ، تقـول: لَئِنْ فرغتُ لك، أى قصدتُ قَصْدك .

وقال اللـه تعالى : ﴿سَنَفْـرُغ لَكُمْ أيّها الثَّـقَلان﴾. والله تبارك وتـعالى لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ، ومجازه: سنقصد لكم بعد طول الترك والإمهال.

وقال قتادة : قد دَنَا من الله فراغٌ لخلقه ، يريد : أن الساعة قد أزفت وجاءَ أشْرَاطُها.

وتأوّل قـوم فى قولـه تعالى: ﴿ فى أىِّ صـورةٍ مَّـا شاءَ رَكَّـبك ﴾ مـعنى التناسخ، ولم يُرد الله فـى هذا الخطاب إنسانا بعـينه، وإنما خـاطَبَ به جمـيع الناس كما قال: ﴿ يأيها الإنسانُ إنَّك كادحٌ إلى ربِّك كدْحًا﴾ كما يقول القائل: يأيها الرجل ، وكُلُّكم ذلك الرجل .

فأرادَ: أنَّه صورهم وعدَّلهم، فى أى صورة شـاءَ ركبهم: من حُسْنٍ وقُبْح، وبياضٍ وسواد ، وأُدْمةٍ وحُمرة .

ونحوُه قوله: ﴿ومن آياته خَلْق السموات والأرضِ واختلافُ ألسنتِكم وألوانكم﴾ .

وذهب قوم فى قول الله وكلامه: إلى أنه ليس قولاً ولا كلاماً على الحقيقة، وإنما هو إيجاد للمعانى، وصرفُوه فى كثيرٍ من القرآن إلى المجاز، كقول القائل: قال الحائط فمالَ، وقُلْ برأسك إلىَّ، يريد بذلك المَيْلَ خاصةً، والقَولُ فضل .

وقال بعضهم فى قوله للملائكة: ﴿اسْجُدُوا لآدم﴾: هو إلهام منه للملائكة كقوله: ﴿وأوْحَى ربك إلى النحل﴾ أيْ ألهمها، وكقوله: ﴿وما كانَ لبَشَرٍ أنْ يكلِّمَه الله إلاَّ وحيًا أوْ مِنْ وراءِ حِجاب أو يُرسلَ رسولاً فيوحِيَ بإذْنه ما يَشَاء﴾ وذهبوا فى الوحى ههنا : إلى الإلهام.

وقالوا فى قوله للسماء والأرض: ﴿ ائْتِيا طَوْعًا أو كرْهًا قالتا أتيْنا طائعين﴾ . لم يقل الله ولم يَقُولا ، وكيف يخاطب معدومًا؟ وإنما هذا عبارة : لكَوَّنَّاهُمَا فكانتا . قال الشاعر حكاية عن ناقته :

تقولُ إذا دَرَأْتُ لها وَضِينِى أهذَا دِينُه أبدًا ودِينِــى
أكلُّ الدهر حَلٌّ وارْتِحَــالٌ أما يُبقى علىَّ ولاَ يقِينِــى

وهى لم تَقُلْ شيئًا من هذا، ولكنه رآها فى حال من الجهد والكلال، فقضى عليها بأنها لو كانت مِمَّن تقول لقالت مثل الذى ذكر.
وكقول الآخر :

« شكَا إلىَّ جَمَلِى طولَ السُّرى »

والجملُ لم يشْكُ ، ولكنه خبَّر عن كثرة أسفاره وإتعابه جملة ، وقضى على الجمل بأنه لو كان متكلمًا لاشتكى ما به ، وكقول عنترة فى فرسه :

فازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ القنَا بلَبَانِـه وشكَا إلىَّ بعَبْرةٍ وتَحَمْحُمِ

لما كان الذى أصابه يُشْتَكى مثلُه ويُسْتَعْبَرُ منه ، جَعَلَه مشتكيا مستعبرًا وليس هناك شكوى ولا عَبْرة .

قالوا : ونحو هذا قوله تعالى : ﴿ يَوم نقولُ لجَهَنَّمَ هلْ امتَلأتِ وتقولُ هَلْ من مَزيد﴾ وليس يومئذ قولٌ منه لجهنم ولا قولٌ من جهنم، وإنما هى عبارة عن سعتها .

وفى قـوله : ﴿تدْعُو مَـنْ أدبَر وتولَّى﴾ يريد : أن مصيـر من أدْبر وتولى إليها، فكأنها الداعيةُ لهم ، كما قال ذو الرمة :

دَعَتْ ميَّةَ الاعدادُ واستبدلت بها   خناطيلَ آجالٍ من العِين خُـذَّلِ

والأعداد : المياه ، لما انتقلت مـيةُ إليها ورغبت عن مائها كانت كـأنها دعتها ، وكقول الآخر :

ولقد هبطتُ الوادِيْن وواديــا   يدعُو الأنيسَ به الغضيضُ الأبْكَمُ

والغضيض الأبكم : الذُّباب ، يريد : أنهَ يَطِنّ فيدل بطنينه على النبات والماءِ ، فكأنه دُعاءٌ منه ، وقال أبو النجم يذكر نبتا :

مسْتأسِدا ذِبَّانُه فى غَيْطَـلِ   يَقُلْنَ للرائد : أعْشَبْتَ انزِلِ

ولم يقل الذباب شيـئًا من هذا، ولكنه دلَّ على نفسـه بطنينه ، ودل مكانُه على المرعى لأنه لايجتمع إلا فى عشب، فكأنه قال للرائد: هذا عشب فانزل.

وقال آخر يصف ذئبًا :

يستخْبر الريحَ إذا لمْ يَسْمَع   بمثْلِ مِقْرَاعِ الصفَّا المُوقَّـعِ

يريد: أنه يتشـمّم ثم يتبع الرائحة بخطْم كـأنه الفأس التى يكسر بها الـصخر، فجعل تشممه استخبارًا .

قال أبو محمد :

وقد تبيّن لمن قـد عرف اللغةَ ، أن القول يقع فـيه المجاز، فيقـال : قال الحائط فمال ، وقلْ برأسك إلىّ ، أى أملْـه . وقالت النّاقةُ ، وقال البعـير ،ولا يقال فى مثـل هذا المعنى تكَلَّمَ ، ولا يُعقل الكلام إلا بالنـطق بعينه ، خـلا موضع واحد وهو أن نتبيَّن فى شىء من الموات عبرةً وموعظة فتقول خبَّر وتكلَّم وذَكَر، لأنه دلَّك معنى فيه، فكأنه كلمك ، وقال الشاعر :

وعظتكَ أجداثٌ صُمُتْ ونعتْكَ ألسنةٌ خُفُتْ
وتكلمتْ عن أوْجُه تَبْلى وعن صُور سُبُتْ
وأرتكَ قبركَ في القبُو رِ وأنت حَيٌّ لَمْ تَمُتْ

وقال الكميت يمدَحُ رجلا :

أخبرتْ عن فعاله الأرضُ واستنْطقَ منهَا اليَبَابَ والمعْمُورا

أراد أنه حفر فيها الأنهار ، وغرس الأشجار ، وأثَّر الآثار ، فلما تبينت للناظر صارت كأنها مخبرة.

وقال عوف بن الخَرِع يذكر الدار :

وقفتُ بِهَا ما تُبِين الكَلاَمَ لِسائلها القولَ إلا سِرَارا

يقول: ليست تُبين الكلام لمخاطبها ، إلا أنَّ ظَاهر ما يُرى دليل على الحال فكأنه سِرارٌ من القول ، ولهذا قالت الحكماء : كل صامتٍ ناطق ، يريدون أن أثَر الصنعة فيه يدل على محدِثه ومدبِّره .

(٣)

باب فى فرق بين الحقيقة والمجاز

من كتاب (الخصائص) لابن جنى

الحقيقة: ما أقِرّ فى الاستعمال على أصل وضعه فى اللغة. **والمجازُ**: ما كان بضدٍّ ذلك .

وإنما يقع المجـازُ ويُعدَل إليـه عن الحقـيقـة لمعانٍ ثلاثة ، وهى : الاتّـسَاعُ والتوكيد والتشبيه ، فإن عَدِمَ هذه الأوصاف كانت الحقيقة أَلْبتَّة .

فمن ذلك قول النبى ﷺ فى الفرس (هُوَ بَحْر) فـالمعانى الثلاثة موجودةٌ فيه . أما **الاتّساع** فلأنه زادَ فى أسـماءِ الفرس التى هى فـرَسٌ وطِرْفٌ وجَوَادٌ ونحوُها : البَحْر ، حتى إنه إنْ احتِيج إليـه فى شعر أو سَجْع أو اتّساع استُعمِل استعمال بقية تلك الأسماء ، لكنْ لا يُفضى إلى ذلك إلا بقرينة تُسقط الشُبهة. وذلك كأن يقول الشاعر :

علوتَ مَطًا جَوادِكَ يَوْمَ يَوْمٍ ... وقد ثُمِدَ الجِيَادُ فَكَانَ بَحْـراَ

وكأنْ يقـول الساجع : (فرسُك هذا إذا سَمَـا بغُرَّته كان فَجْـرًا، وإذا جَرَى إلى غايَتِـه كان بَحْـرا) ، ونحو ذلك ، ولو عُرِّيَ الكلامُ من دليـلٍ يوضِّح الحالَ لم يقعْ عليه (بَحْر) ، لما فيه من التَّعجرُف فى المقال من غير إيضاح ولا بيان ، ألا ترى أنْ لو قال : (رأيت بَحْرًا) وهو يريد الفـرس لم يُعلم بذلك غرضُه ، فلم يجزْ قوله ، لأنه إلبَاس ، وإلغاز على الناس .

وأما **التشبيه** فلأن جريَه يجرى فى الكثرة مجرَى مائه .

وأما **التوكيد** فـلأنه شـبّـه العَـرَضَ بالجَـوْهر ، وهو أثـبتُ فى النفـوس منه، والشُّبَـه فى العرض منتفيـة عنه، ألا ترى أن من الناس من دفع الأعراضَ، وليس أحد دفع الجواهر.

وكذلك قول الله سبحانه : ﴿وأدْخَلْنَاهُ فى رَحْـمَتِنَا﴾ هذا هو مجاز ، وفيه الأوصاف الثلاثة.

أمَّا السعة فلأنه كأنه زاد فى أسماءِ الجهات والمحالِّ اسما هو الرحمة.

وأما التشبيه فلأنّه شبـه الرحمة - وإن لم يصح دخولها - بما يجوز دخوله فلذلك وضعها موضعه .

وأما التوكيـد فلأنه أخبر عن العَرَضِ بما يُخبَـر به عن الجوهر ، وهذا تعالٍ بالعَرَض وتفخـيمٌ منه ، إذ صيَّر إلى حيِّز مـا يشاهَد ويلمَس ويعايَن ، ألا ترى إلى قول بعضــهم فى الترغيب فى الجميل : ولو رأيتم المعروفَ رجـلاً لرأيتموه حسنا جمـيلا . وإنما يرغِّب فيه بأن ينبِّه عليـه ، ويعظِّم من قدره ، بأن يصّوره فى النفوس علـى أشرف أحواله ، وأنوه صـفاته ، وذلك بأن يتـخيل شخـصًا متجسمًا لاعرضا متوهًّما ، وعليه قوله :

تَغَلْغَلَ حبُّ عَثْمةَ فى فؤادِى فباديه مع الخَافِى يَسِيـــرُ

(أي فبَاديه إلى الخَافى يَسيرٌ) أى فبادية مضــمومًا إلى خافيه يسير . وذلك أنه لمَّا وصف الحب بالتغلغُل فقد اتَّسع به ، ألاترى أنه يجوز على هذا أن يقول:

شكوتُ إليها حبَّها المُتَغَلْغـلاَ فمـا زادهَا شكوَاىَ إلاَّ تَدَلُّلا

فيصف بالمتغلغِل ما ليس فى أصل اللغة أن يوصف بالتَّغَلْغُل ، إنما ذلك وصفٌ يخص الجـواهر لا الأحداث، ألاترى أن المتـغلغِل فى الشىء لابد أن يتـجاوز مكانا إلى آخـر. وذلك تفـريغ مكان وشـغل مكان، وهذه أوصـاف تخصّ فى الحقيقة الأعيان لا الأحداث . فهذا وجه الاتساع .

وأما التشبيه فلأنه شبّـه مالا ينتقل ولا يزول بما يزول وينتقل ، وأما المبالغة والتوكيد فلأنه أخرجه عن ضعف العرَضية إلى قوة الجَوْهرية .

ومن المجاز كـثير من باب الـشجاعـة فى اللغة: من الحُـذُوف ، والزيادات والتقديم ، والتأخير : والحَمْل على المعنى ، والتحريف .

ألا ترى أنك إذا قلت : (بَنُو فلانٍ يَطَؤُهم الطريق) ففيه من السَّعة إخبارُك

عـما لا يصحُّ وَطْؤُه بما يصح وَطؤُه . فـتقـول على هذا : أخـذنا على الطريق الواطِئِ لبنى فـلان ، ومـررنا بقـوم مَـوْطُوئين بالطريق. ويا طـريق طَأْ بِنَا بنى فلان، أى أدنَّا إليـهم . وتقول : بَنى فلانٌ بيـتَه على سَنَن المارة رغبـةً فى طِئَةِ الطريق بأضيافه له . أفلا ترى إلى وجه الاتساع عن هذا المجاز.

ووجه التشبيه إخبارك عن الطريق بما تخبر به عن سالكيه ، فشبَّهتَهُ بهم، إذْ كان هو المؤَدِّى لهم ، فكأنه هم .

وأما التوكيد فلأنك إذا أخـبرتَ عنه بوطْئِه إياهم كان أبلغ من وَطْءِ سالكيه لهم . وذلك أن الطريق مقيم ملازم، فأفعاله مقـيمة معه ، وثابتة بثباته. وليس كذلك أهل الطريق ، لأنهم قـد يحضرون فـيه ويغيبـون عنه ، فأفعـالهم أيضا كذلك ، حاضرة وقتـا ، وغائبة آخر. فأين هذا مما أفعاله ثابتـةٌ مستمرة . ولما كان هذا كـلاما الغرضُ فيـه المدحُ والثناءُ اختاروا له أقوي اللفظين ، لأنه يـفيد أقْوَى المعنيين .

وكذلك قوله سبـحانه ﴿ واسْئلْ القريةَ التى كنَّا فيها ﴾ فـيه المعانى الثلاثة. أما الاتِّساع فلأنه استعمل لفظَ السُّؤَال مع ما لا يصح فى الحقيقة سُؤَاله . وهذا نحو مـا مضى ، ألا تراك تقـول : وكم من قرية مسـئولة . وتقـول : القرى وتَسأَلك ، كقولك : أنت وشأنك ، فهذا ونحوه اتساع .

وأما التشبيه فلأنها شُبِّهت بمن يصح سؤَالُه لما كان بها ، ومؤَلَّفا لها . وأما التوكيد فلأنه فى ظاهر اللفظ إحالة بالسؤال (على مَنْ) ليس من عادته الإجابة. فكأنهم تضمَّنوا لأبيهم عليـه السَّلام أنه إن سأل الجمادات والجبـال أنبأته بصحة قولهم ، وهذا تناهٍ فى تصحيح الخبر ، أى لو سألتها لأنطقها الله بصدقنا .

وكيف تصرفت الحال فالاتساع فاشٍ فى جميع أجناس شجاعة العربية .

نصوص من مباحث البديع



نظرة فى موقف القدماء من البديع

كان من المنطقى أن يؤدّى تعريفُ القدماء للبلاغة بأنها (**مطابقة الكلام لمقتضَى الحال ، مع فصاحته**) إلى عدّ ألوان البديع من قبيل الكماليات التى يمكن الاستغناءُ عنها ، وذلك انطلاقا من تعليق صفة البلاغة فى الكلام على شرطى المطابقة والفصاحة بحيث يُعدُّ سواهما زيادةً وفَضْلا .

وقد سبق لنا القول إنْ هذا الرأىَ عارٍ من الصّواب تمامًا ، وأنه لا يستقيم أمام طبيعة اللغة أو حتى مجرَّد التفكير فيها ، إذْ كيف يتأتّى لنا تصوُّر كلام يحمل معنىً معينا فى هيئة تركيبية معيّنة قد تتخلّلها بعضُ صور البيان ثم يجيءُ هذا الكلام - بهذه الهيئة - مرة عاريا من ألوان البديع ، وأخرى مشتملا على بعض هذه الألوان ، مع بقائه كما هو بهيئته ونفس معناه؟ بعبارة أخرى : كيف يظل الكلام واحدًا بمعناه وهيئته سواء اشتمل على البديع أو عَرِىَ منه ؟ .

والسؤال هنا إنكارى ، والجواب: إنه لا يمكن أن يظل الكلام واحدًا فى الحالتين، لكن الذى حدث تاريخيا - أنه نُظر إلى ألوان البديع على أنها مجرّد (**محسِّنات**) لا تضيف إلى الكلام شيئًا ولا تغيّر من طبيعته ، فكأنَّ ألوان البديع، وفقا لهذا التصور هى بمثابة **الطِّلاء** يُدهن به الجدار فلا يغيّر من حجمه أو هيئته ، أو بمثابة **النقش** يُزيّن به الثوب مع بقائه على نفس قَطْعه ومقداره ، وهو تصوّر إن جاز - فرضًا - قبوله فى حالة الجدار والثوب مع اللون والنقش فإنه غير جائز فى حالة الكلام مع ألوان البديع.

ويبدو أن القدرَ الأكبر من مسئولية هذا التصوّر (الذى أدَّى إلى قصر حقيقة البلاغة عندهم - كما رأينا - على المطابقة والفصاحة) يعود إلى المؤسس الأول لعلم البديع ، ونعنى به عبد الله بن المعتز ت٢٩٦هـ الذى جمع فى كتابه (**البديع**) بضعة عشر نوعًا أطلق على خمسة منها اسم (البديع) ، من بينها

الاستعارة والتجنيس والمطابقة وأطلق على بقيتها ومنها الالتفات وحسن التضمين والتعريض والكناية - أطلق عليها اسم (محاسن الكلام) ،ومن هذا الاسم - فيما يبدو - جاءت وظيفة (التحسين) التى ناطها اللآحقون بألوان البديع .

أما كيف تمّ ذلك ، وكيف انزاحت الحواجز بين (البديع) ووظيفة التحسين؟ فإن ذلك قد جاء - فيما يبدو - بفعل تصريحات ابن المعتز أيضا ، لقدصرّح بقوله : « قد قدّمنا أبواب البديع الخمسة ... ونحن الآن نذكر بعض محاسن الكلام والشعر ، ومحاسنهما كثيرة لاينبغى للعالم أن يدّعى الإحاطة بها ... وأحببْنا لذلك أن تكثر فوائد كتابنا للمتأدّبين ويعلمَ الناظر أنا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة اختيارا من غير جهْلٍ بمحاسن الكلام ولا ضيق فى المعرفة» .

ويلاحظ المتأمل لهذا النصّ أن بدايته توحى بأن (أبواب البديع) شىء و(محاسن الكلام) شىء آخر ، بينما تحمل نهايتُه معني أن (البديع) و(محاسن الكلام) من وادٍ واحد ،و أنّ العالم بالبديع عالم بمحاسن الكلام والجاهل به جاهل بتلك المحاسن .

بمرور الوقت انساب أكثر الألوان التى أطلق عليها ابن المعتزّ اسم (المحاسن) إلى تيار البديع كما أضيفت إليها ألوان أخرى عند مؤلفين مثل أبى هلال العسكرى ت ٣٩٥هـ فى(الصناعتين) ،والباقلاّنى ت٤٠٣هـ(فى إعجاز القرآن) واستمر اللاحقون من المؤلفين فى اكتشاف المزيد من الأساليب والظواهر وضمّها إلى (البديع)، حتى تضخم عدد فنونه ووصَلَ عند بعض المتأخرين إلى مائة وخمسين نوعًا ، ونظم بعضهم قصائد عرفت بـ (البديعيّات) موضوعها مدح النبى ﷺ ، ووزنها من بحر البسيط ، ورويّها حرف الميم ، ويتضمن كل بيت منها نوعًا من أنواع البديع ، سواء بذكر اسمه صراحة أو إشارة ، مع التمثيل له ، وفى الطليعة من هولاء صفى الدين الحلّى ت ٧٤٩ هـ وابن جابر

الاندلسى ت ٧٨٠هـ وابن حِجَّة الحموى ت ٨٣٧ هـ وغيرهم .

ومع حرص أصحـاب هذا الاتجاه على زيادة فنون البديع أُدخل فـيه معظمُ الفنون والأساليب التى يدور حـولها البحث البـلاغى سواء ما ينتمى إلى حـيّز التراكيب - كالالتفات أو ما يدخل فى حيِّز التصرّف الدلالى كالاستعارة والمجاز بصفة عامة .

وفى المقابل حرص المنتمون إلى مدرسة السكّاكى على تمييز كلٌّ من مباحث التراكب ومبـاحث الدلالة كلاً على حدة ، الأولى تحت (علم المعـانى) والثانية تحت (علم البيان) لتبـقى بقيةُ الفنون التى أقرُّوها وقسّمـوها إلى معنوية ولفظية منحصرة تحت (علم البديع) مقصورةً وظيفتُها على ما أطلقوا عليه (التحسين)، وكأنهم وقـد أبقوا على تسمـيه (البديع)التى أطلقـها ابنُ المعتز فى كـتابه ، أو أطلقها الرواة - كمـا صرَّح بذلك الجاحظ [(١)] قد أبقوا كـذلك على (التحسين) وظيفـةً لهذه الالوان ، مـتابعةً لابن المعـتز أيضا الذى أطـلق اسم (المحسِّنات) بصيغـة اسم الفاعل على بعض هذه الألوان ، فكان أن جعلوا التحـسين وظيفة عامة وكمالية للبديع فى مقابل الوظيفتين الأساسيتين للمعانى والبيان ، وهما : المطابقة والفصاحة .

وظيفة التحسين - إذن - فى النظرة القديمة الغالبة وظيفة كمالية تضطلع بها ألوانُ البديع ، بعـد رعاية المطابقـة والفصاحـة ، وهى قسمة تـقوم على المنطق الشكلى وتفـتقد النظر الواقـعى .. أمّا أنهـا تقوم على المنطق الشكلى فـلأنها حدَّدت وظيفةَ البديع - التـحسين - بعد استيفاء ما تصـورتْه أساسيًا من شروط البلاغـة ، وهو شرطا المطابقـة والفصـاحة، فلم يبق -بالتـالى- سوى وظيـفة التلوين والزخرف أو التـحسين، وأما أنهـا تفتقد النـظرالواقعى فهذا مـا يؤكده التغاضى عن طبيعة فنون البديع وأساليبه من جهة والتغاضى عن دورها العضوى

---

(١) البيان والتبيين٤/ ٥٥ .

فى الكلام من جهة ثانيـة، وكلا الأمرين وثيق الصلة بالآخر ، فطبـيعة الظاهرة وكونها جزءًا لايتـجزأ من نسيج العبارة اللغويّة تؤكـدّ دورها العضوىّ فى تأدية رسالة الكلام . .

وحديث البلاغيين أنفسهم يؤكد هذه الحقيقة ، ولْنَعُدْ إلى البداية - عند ابن المعتز حيث كانت الاستعارة ضمن أبواب البديع ، وحيث كان الالتفات والكناية ضمن فنون المحسِّنـات لقد انتهى الوضع بالاستعـارة والكناية إلى الانخراط فى مبـاحث البيان ، وانتـهى الأمر بالالتفـات إلى الانخراط فى مبـاحث المعانى ، وهذه مجرّد أمثلة تؤكد عضويَّة هذه الأسـاليب فى نسيج العبارة ، كما تؤكد أن مفهوم (التحسين) لم يكن يعنى مجرد التلوين أو الزينة الكمالية .

يضاف إلى أسباب استبعاد هذا المفهـوم عمليًا تقسيمُ المتأخِّرين لفنون البديع إلى معنوية ولفظية ، ولاشك أن الانتسـابَ إلى المعنى يتعارض مع الانتماء إلى القشـرة الخارجيـة أو مجرد الـزينة ، ولك أن تتأمّل فنونًا مثـل (التعليل) - أو (حسن التعليل) كما سمّاه بعضُهم - وما سُمِّى بـ (صحة التفسير)، و (التتميم) و (التوشيح) و (التـقسيم) وغيرها ، لتـدرك ما فيها من عـمق البعد المعنوى ، وهذا ما يؤكده أيضـا ما نلحظه من تسجيلهم للتداخل بين فنون البـديع المختلفة وصور أخرى مما ينتمى إلي حيِّز المعانى والبيان .

خذ مثـلا (التعليل) - وهو من فنون البديع المعـنوى - لنلحظ التداخل بينه وبين التشبيه فى مثل قول أبى تمام :

لا تنكرى عَطَلَ الكريم من الغِنَى فالسَّيْلُ حَـــرْبٌ للمكان العالى

وخذ مثلا آخر هو (الإيغـال) وهو عند قدامة من أنواع نعوت المعانى التى عدّها لاحقوه من البديع ، وينتـمى الإيغال معنويًا إلى حيِّز المبالغـة ، وقد عرَّفوه بأنه «خَتْم البـيت بما يفيد نـكتةً يتمّ المعنى بدونها» ثم ذكـروا تداخله مع (الإطناب) وتحـدثوا عن (الإطناب بالإيغـال) كمـا جعلـوه - من واقع الأمثلة - إحـدى

وسائل التفصيل فى التشبيه ، كما سجّلوا التداخل بينه وبين (المطابقة) التى قد تجىء ومعها الإيغال كما قد تجىء ومعها (المناسبة) . والمتأمّل لفن (التشريع) وهو من المحسنات اللفظية - ويعنى اشتمالَ البيتِ علي وزنين وقافيتين- يلاحظ تداخله مع أكثر من فنّ بديعى ، إذ يلتقى بقافيته الداخلية مع فنون التقطيع التى تحدث الموسيقى الداخلية فى البيت الشعرى ، بينما يلتقى بجزء البيت الذى يلى القافيةَ الأولى مع فن الإيغال بما فيه من المبالغة والزيادة فى المعنى . .

ومهما قيل عن وصف بعض فنون البديع بأنها لفظية قوامها على الصوت والجَرْس فإن هذا لا ينفى الأثر المعنوىَّ للصوت فى ذاته وللبِنى الصوتيّةِ المركبة حين تسلك فى إيقاع منتظم وذلك عن طريق التقطيع أو التكرار على مسافات معينة .

واقرأ - فى نصوص البديع المختارة -كلامَ عبد القاهر فى قيمة الجناس حين يجىء موفَّقًا فى مكانه . .و اقرأ طباقات أبى تمام وجناساته فى قصيدته الذائعة الصيت :

السّيفُ أصدق إنباءً من الكتبِ	فى حَدِّه الحدُّ بين الجدِّ واللّعبِ
بيض الصّفائح-لاسودُ الصحائف- فى	متونهنَّ جلاءُ الشكِّ والرِّيَبِ
والعِلْمُ فى شُهبِ الأرماحِ لامعةً	بين الخَمِيسَيْن ، لا فى السّبعة الشهب

وانظر إلى أثر صوت السين وتكراره وتكرار بعض الكلمات فى سينيّة البحترى:

صنتُ نفسى عمّا يدنّس نفسى	وترفّعتُ عن جَدَا كل جبْسِ
وتماسكتُ حين زعزعنى الدّهْـ	ـرُ التماسًا منه لتعسِى ونُكْسِى
بُلَغٌ من صُبابة العيش عندى	طفّفتْها الأيام تطفيف بخسِ
وكأن الزمان أصبح محمو	لاً هواه مع الأخسِّ الأخسِّ

واقرأ طباقات أبى نواس التى تصوِّر تغيّر الحال بروّاد الحانة بعد احتسائهم الخمر التى قدّمها لهم صاحبُ الحانة :

فأبدَى لنا صَهْباءَ تمَّ شبابُها	لها مَرَحٌ فى كأسها ووثوبُ

فما زال يسقينا بكأسٍ مجَـــــــدَّةٍ   تولَّى وأخرى بعد ذاك تـــــــؤوبُ
وغنّى لنا صوتًا بلحنٍ مرجَّـــــــع   «سرى البرقُ غربيًا فحنّ غريـــــبُ»
فمَنْ كان منّا عاشقًا فاض دمعُـــــه   وعاوده -بعد السّرور- نحيـــــبُ
فمن بين مسرورٍ وباكٍ من الهـــوى   وقد لاح من ثوب الظلام غيـــوبُ
وقد غابت الشعرى العبور وأقبـــلت   نجوم الثريا بالصباح تثـــــوبُ

اقرأ الأبيـات السابقـة وغيرها تدرك أثـرالصوت مفـردا ومركبـا ، وأثر التكرار والجناس والطباق فى إثراء النص ورفع قيمته ، ولتتأكد من أن اللون البديعىّ لا يُفـرض على النصّ من خـارجه ، وأنه ليس زينة أو حليـة (قـشْرية) تُثـبَت أو تُمحى دون أن يكون لإثباتها أو محـوها أثر فى الكلام، فهذه هى النظرة القديمة التى سبق لنا القـول إنها تجافى طبيعـة اللغة وطبيعة فنون البـديع ذاتها التى هى جزء من نسـيج النص لا يمكن فصله عـنه بحـال من الأحـوال ، وأن ذلــك إذا حدث - فـرضا - فإننا فى هذه الحالـة - نكون أمام كلام آخر غـير الكلام الأول.

وتبقى ملاحظة أخيرة ، وهى أن النصّ القـديم الذى اخترناه للتعريف بعلم البديع قـدحالفه التوفـيق فى هذه المسألة، إذ يرفض الاعتـرافَ بأن الكلام يبقى واحـدا مع وجود البـديع وعدمـه ، ويرى أن الكلام يخـتلف تماما فى إحـدى الحالتين عنه فى الأخرى ، لنصبح أمام (كلامين) لا كلام واحد .

تعريف علم البديع
من كتاب (الإشارات والتنبيهات فى علم البلاغة)
لمحمد بن على بن محمد الجرجانى

الفن الثالث
فى البديع
وهو مبنى علي مقدمة وركنين

المقدمة : فى تعريفه :

علْم البديع علمٌ يُعرف منه [1] وجوهُ تحسين الكلام ، باعتبار نسبةِ بعض أجزائه إلى بعض بغير الإسناد والتعلُّق ، مع رعاية أسباب البلاغة.

وإنما قلنا : باعتبارِ نسبةِ بعض أجزائه إلى بعض ، ليخرج التحسينُ لا بهذا الاعتبار ، كالتحسينات التى باعتبار الدّلالة، فإنه من علم البيان .

وإنما قلنا : بغير الإسناد والتعلق، لتخرج التحسينات التى باعتبارهما ، فإنها من علم المعانى .

وإنما قلنا : مع رعاية أسباب البلاغة ، لأنه مع عدمها لا تكون الصناعة كاملة ، وذلك أن نسبةَ صناعةِ البديع إلى صناعتى المعانى والبيان ، نسبةُ صناعة النقش إلى صناعة النّساجة ، إلا أنه يمكن إفرادُ صناعةِ النقش ما لم يكن ذاتيًا، عن صنعةٍ ما بغير النقش ، ولذلك قد يتغاير الصانعان ، **ولا يمكن إفراد صناعة البديع عن صناعتى العِلْمين ، لأنها صفة ذاتية للكلام ، ولذلك يمتنعُ تغاير صُنّاع صناعات العلوم الثلاثة** ، ولأجل هذه الدقيقة قلنا فى تعريفه: مع رعاية أسباب الفصاحة والبلاغة .

---

(١) المشهور فى تعريف علم البديع : إنه علم يعرف به وجوهُ تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة .

إن قلت : كما يخلو الكلام الفصيحُ البليغُ عن صنعة البديع ، كذلك يخلو الكلام الذى فيه صناعة البديع عن الفصاحـة والبلاغة ، فيستحق الصانعُ المدحَ باعتبار صنعةِ البديع ، والذَّمَّ باعتبار فوات صناعة الفصاحة والبلاغة ،وحينئذ لا يجب ذكر مراعـاة أسباب الفصاحـة والبلاغة فى التعريف. كـما لا يجب ذكرُ صناعة النَّساجة فى تعريف صناعة النقاشة .

قلنا : هذا بالنسبـة إلى نوع الكلام ،وأما بالنسبة إلى شخـصه ، فلا يمكن الامـتيـازُ ، اللهم إلاّ فـى الذهن ، ولذلك امـتنع أن يُقـال : تكلم زيد بكلام فصيح ثم أوقـع صناعةَ البديع فيـه ، كما يقال : نَسَجَ الثـوبَ ثم نقشه ، لأنّ المتكلمَ لا يقدر أن يُوقعَ صناعـةً فى كلامه إلاّ بعد أن ينقضَ مـا بناه أوّلاً ، فلا يكون الكلامُ الثانِى هو الكلام نفسه، والكلام فى الكلام الشخصى ، ولذلك لا يستـحقّ المتكلمُ الموُقعُ فى كـلامه صناعةَ الـبديعِ المدحَ بالإطلاقِ إلاّ بعـد رعاية دقائقِ صنـعتِه كلِّهـا ، ولذلك قلنا فى تعريفـه : مع رعاية أسـباب البـلاغة ، فبـلاغة الكلام تجرى مـجرى الجِنْس لعلم البـديع ، والمحسنات المذكـورة تجرى مجـرى الفَصْلِ، وحينئـذ الكلامُ الذى فيه صِنَاعـةُ البديع [هو] أقصى مراتب الكلام فى الكمال ، فـإذا عرّفنا الكلامَ الكاملَ غايةَ الكمـال ، قلنا : إنه كلام بليغٌ محسَّن ببعض التحسينات المذكورة.

ومحسنات الكلام : **إما معنوية أو لفظية :**

من المُحَسِّنَاتِ المَعْنَوِيَّة

من كتاب (الإشارات والتنبيهات)

الركن الأول
فى المحسنات المعنوية وهى كثيرة

إشارة إلى المطابقة :

المطابقـة : هى أن تجمعَ في كـلام واحد بين المتـقابلَيْن سـواء كان التـقابل صريحا أو غير صريح ، وسواء كان التقابل بالضِّدِّيَّة ، أو بالسلب والإيجاب ، أو بغيرهما، وسواء كان المتضادَّان: اسمين، أوفعلين، أو حرفين، أو مختلفين:

فالأسماء كقوله تعالى: ﴿وتَحْسَبُهُمْ أيْقَاظًا وَهُمْ رُقودٌ﴾[1] وكقوله تعالى: ﴿وقِيل يا أرضُ ابْلعِي ماءَكِ ويا سَمَاءُ أقْلعى﴾[2] .

والفعلان كقوله تعالى: ﴿تُؤتِى المُلْكَ مَـنْ تشَاءُ وتَنْزِعُ المُلْكَ ممَّنْ تشَاءُ ، وتُعِزُّ مَنْ تَشَـاءُ وتُذِلُّ مَنْ تَشَاء﴾[3] وقوله علـيه السلام : (إنكم لَتَكْـثُرون عندَ الرَّوْعِ وتَقِلُّون عند الطَّمَع) ، وقول أبى صخر[4] :

أما والذى أبْكى وأضْحَكَ والـذى ... أمات وأحيا والذى أمرُه الأمْـــرُ

والحرفان كقوله تعالى : ﴿لها ما كَسبتْ وعليها ما اكتسبتْ﴾[5] .

---

(١) سورة الكهف آية ١٨ .

(٢) سورة هود آية ٤٤ .

(٣) سورة آل عمران آية ٢٦ .

(٤) البيت لأبي صـخر الهذلي الشـاعر الأموى ولم أعـثر عليه في ديوان الهـذليين ، والبيت في الطراز ٢/ ٣٨٢ منسوب للبحتري .

وجواب القسم

لقد تركتني أحسُد الوحش أن أرى ... أليفين منها لا يروعهما الذعـــر

(٥) سورة البقرة آية ٢٨٦ .

وقول الشاعر :

على أنّني راضٍ بأنْ أحملَ الهَـــوى　　　وأخلُصَ منه ، لا علّى ، ولا ليا[١]

والمختلفان كقوله تعـالى : ﴿أوَ مَنْ كان مَيْتًا فـأحْيَيْنَاه﴾[٢] أي : ضـالا فهديناه.

والمتقابلان بالإيجاب والسلب ، كقـوله تعالى: ﴿فلاَ تَخْـشَوُاْ النّاسَ واخْشَون﴾[٣] .

وقول الشاعر :

ونُنكِر إنْ شِئْنا على الناس قولَهم　　　ولا يُنكِرون القولَ حينَ نقـول[٤]

وقول أبي الطيب :

ولقد عُرِفْتَ وما عُرِفْتَ حقيقـــةً　　　ولقد جُهِلتَ وما جُهِلتَ خُمولا[٥]

وقول البحتري :

يُقَيِّضُ لي من حيثُ لا اعلـــمُ النَّوى　　　ويسرى إليّ الشَّوقُ مِنْ حيثُ أعْلَمُ[٦]

وقد تكون مع المطابقة المناسبةُ كقول ابن رشيق :

---

(١) البيت لمجنون ليلي وورد في الديوان هكذا:

فليتكم لم تعرفوني وليتنـــي　　　تخلّيْتُ عنكم لا على ولا ليا

ديوانه ص ٢٩٧.

(٢) سورة الأنعام آية ١٢٢.

(٣) سورة المائدة آية ٤٤ في الأصل : « لاتخشوا الناس .... »

(٤) البيت للسموْأل بن عاديا من قصيدة مطلعها .

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه　　　فكل رداء يرتديه جميـــــــــل

ديوانه ص ٩١ ط بيروت

(٥) قالها في مدح ابن عمار ومطلعها :

في الخد إن عزم الخليط رحيلا　　　مطر تزيد به الخدود محـــولا

د / ٣/ ٣٥٤.

(٦) يقيِّض لى : يقدر لي ، النوى : الفراق والبعد ، والبيت في الديوان ١/ ١١١ والتبيان ١٧١ .

وقد أطفأوا شمسَ النهَار، وأوْقدُوا نجومَ العوالِى فى سماءِ عَجَـاجِ(١)

فيـه مطابقة ؛ لتقـابل اطفأوا وأوقدوا ، ومناسـبة ؛ لتناسب الشـمس والنجوم والسماء ، ولذلك جاء سحرًا فى الحسن والبلاغة.

وقد يكون معها إيغال ، كقول الفرزدق(٢) :

لَعن الإلهُ بنى كُلَيْب ، إنهـم لا يَغْدرون ولا يَفُون لجـــارِ
يستيقظون إلى نهيقِ حمارِهمْ وتنامُ أعينُهُمْ عن الأوتـــارِ

فإن غرضَه وصفُهم بالعجـز ، ولذلك جَمَع بين المتقابلين ، وقد تمَّ غرضُه بنفى الغدر والوفاء عنهم بالإطلاق، ولكنه كمّله بقوله: لجار، وهو الإيغال .

إشارة : المطابقة إما ظاهرة ، أو خفية ، أو ما بينهما :

فالظاهرة ، أن تكون بين السلب والإيجاب ، كـما تقدمت أمثلـتُها . أو تكون بين المتضادَّين تضادا حقيقيـا ، كما فى الألوان، ويسمى التَّدبيج، مأخوذ من الدِّيباج ؛ لاختلاف ألوانه ، كقول ابن حيُّوس(٣):

إنْ تُرِدْ علمَ حالِهمْ عن يقــــين فالْقَهُم يومَ نائلٍ أو نـــــــــزالِ
تلْقَ بيضَ الوُجوهِ ، سودَ مُثَارِ النَّقْـ ـعِ خُضرَ الأكنَافِ، حُمْرَ النِّصَـــالِ

وقول الحريرى : « فمذ أزورَّ المحبوبُ الأصفـرُ ، واغبّر العيشُ الأخضرُ واسودَّ يومى الأبيضُ ، وأبيضّ فَوْدى الأسودُ ، حتى رثى لى العدوُّ الأزرق ، فيا حبّذا الموتُ الأحمرُ»(٤) .

---

(١) العوالى: أعلي الرمح ، عجاج : الغبار ، البيت لابن رشيق القيرواني صاحب كتاب العمدة.

(٢) لا يغدرون : لا يضرون ، لا يفـون لجار : لا ينفعون ، أي ليـسوا بشيء ، والاوتار : جمع وِتْر وهو الثار ، والبيت من قصيدة يهجو فيها جريرا مطلعها :

يا ابن المراغة إنما جاريتنـــى بمستبقين لدي الفعال قصار

ديوانه ١/ ٣٦٠.

(٣) ابن حيّوس : هو أبو الفتيان محمد بن سلطان شاعر من الشام توفى سنة ٤٧٣ .

(٤) المحبـوب الأصفر : الدينار ، واغبـر العيش الأخـضر : خشـن عيشـه اللين ، واسود يومي الابيض: كـثرت همـومـه، فودي: جـانب الشـعر، العـدو الأزرق: العـدو اللدود، الموت الاحمر: الذي تسيل فيه الدماء.

والخفيّة : أن يكون ملزوما للتقابل ، لتعلقهما بالمفعول به ، كقوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾[١] فإنه لولا تعلق الفعلين بمفعوليهما ، لما تحقق بينهما تقابل .

أولتعلقهما بطرفين متقابلين، كتقابل السماء والأرض ، لتقابل طرفيهما ، وهما جهتا فوق وتحت .

أو لتقابل لازم آخر غيرهما ، كقوله تعالى :﴿ أشِدَّاء على الكفار رُحَمَاءُ بَيْنهمْ﴾[٢] ، فإن الرحمة تقابل الشدة ، لاستلزامها اللين .

وما عدا القسمين هو ما بين الظهور والخفاء ، وقد تقدمت أمثلتهما .

إشارة إلى المقابلة :

وهى أن يُؤتَى بمعنيين أو معانىَ متوافقة، ثم يؤتى بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب، وهى إما **ثنائيّة** كقوله تعالى: ﴿فليضحكوا قليلا وليبكُوا كثيراً﴾[٣] وقول النبى ﷺ : « إن الرِّفْقَ لايكونُ فى شىء إلا زانَه ، والخُرْقُ لا يكونُ فى شىءٍ إلاشَانَه[٤]» وقول الذبيانى[٥] :

فتي تَمَّ فيه ما يسرُّ صديقَــهُ   على أنّ فيه ما يَسُوء الأعادِيا

أو ثلاثية كقول أبى دُلامة :[٦]

ما أحسنَ الدينَ والدنيَا إذا اجتمعـا   وأقْبَحَ الكفرَ والإفلاسَ بالرجلِ!!

---

(١) سورة نوح آية ٢٥.

(٢) سورة الفتح آية ٢٩.

(٣) سورة التوبة آية ٨٢.

(٤) الحديث روته عائشه ونصه: « إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه أخرجه مسلم ٣/ ٢٠٠٤ ط عيسى الحلبي .

(٥) الشطرة الثانية من البيت جاءت في الديوان : علي أن فيه ما يسوء المعاديا ديوانه ص ١٥١ . والتِّبيان ١/ ١١ ، منسوب للجعدي فى الصناعتين ٣٣٨.

(٦) اسمه زند بن الجون ، وهومن الشعراء العباسيين توفي سنة ١٦١هـ .

وقول أبى الطيب :

فلا الجودُ يُفنى المالَ والجَدُّ مُقْبِلُ ولا البخلُ يُبقى المالَ والجَدُّ مُدْبِرُ

أو رباعيَّة كـقوله تعـالى : ﴿فـأمّا من أعْطَى واتَّـقَى ، وصدَّقَ بالحُـسْنى فسنُيـسِّره لليُـسْرى، وأمّـا مَن بَخِل واستَـغْنَى ، وكذَّب بالحُسْنَى ، فسنُيـسِّرُهُ للعُسْرَى﴾[1] وذلك أن استـغنى معناه : اسـتغنى بنعـم الدنيا عن نعـيم الآخرة فيكون فى مقابلة اتقى الذى بعكس ذلك .

وقيل أو خماسيَّة كقول أبى الطيب[2] :

أزورهم وسَوَادُ الليلِ يَشْفَـعُ لى وأنْثنى وبياضُ الصبح يُغرى بى

بناءً على أن لى و بى مـتقابلان . وفـيه نظر؛ لأنهمـا من تتمة الفـعلين ، فلا يتعدَّد التقابل بهما، فتكون رباعية.

ورجَحَ بيت أبى الطيب على بيـت أبى دلامة بكثـرة المقابلة ، وأن قـافيـته متمكِّنة ، وقـافية أبى دلامة مُـستَدْعـاة ، لعدم اختـصاص الحكْم بالرجل دون المرأة.

ورجَحَ بيت أبى دلامة بحسن المقـابلة ، فإن الصبح فى بيت أبى الطيب لا يقابله الليل ، وإنما يقابله النهار .

إشارة إلى المشاكلة :

هى ذكر الشىء بغير لفظه ، اعتمادا على مَعموله أو عامله :

أما الأول ، فكقول الشاعر :

فقالوا : اقترح شيئًا نُجِدْ لكَ طبخَه فقلت اطبخوا لى جُبَّةً وقميصـــا

---

(١) سورة الليل آية : ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠ .

(٢) من قصيدة يمدح فيهما كافورا مطلعها :

من الجآذر في زي الأعاريـــب حمر الحلي والمطايا والجلابيب؟

أقام : (اطبخوا) مقام (خيطوا) ؛ لدلالة المعمول عليه ، لقصد المشاكلة بين الكلامين.

ومنه قول أبى تمام :

من مُبلغٌ أفناءَ يَعْرُبَ كلَّهـا   أنى بنيْتُ الجارَ قبل المنزلِ؟

أقام : (بنيت) مقام (حصَّلت) ، لقرينة المعمول ، لقصد مشاكلة المنزل .

ومنه قول بعض من ردَّ القاضى شهادته فى [رؤية] هلال العيد :

أترَى القاضىَ أعمَى   أم تُراه يَتَعَامَـــى؟

سرَقَ العيدَ كأنّ الـــ   ـعيدَ أموالُ اليَتَامـى

أقام : (سرق) مقام (ستَرَ) لتشاكل أموال اليتامى ، لقرينة العيد .

وأما الثانى، فكقـوله تعـالى : ﴿تَعْلَمُ مـا فى نَفْـسى ولا أعلمُ مـا فى نَفْسِك﴾ أقام : نفسك مقام ذاتك ، لتشـاكل نفسى ، وقوله : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ أقام : سيئة مقام عقوبة ؛ لتشاكل السيئة الأولى .

وقد تُقـدَّر المشاكلة ، لعـدم التلفُّظ بالمشاكِل ، كمـا حكى أن بعض الولاة كان يغرس سَيالا[1] ، فى جامع بغداد، فوقف عليه وأنشد :

إن الولاية لاتدوم لواحـــــد   إنْ كنتَ تُنكره فأيـــن الأول؟

واغرس من الفعل الجميل غرائسا   فإذا عُزلت فإنها لا تُعـــزل

أقام : (اغرِسْ) مقام (اصْنَعْ) ؛ ليُشاكل فعلَ الوالى .

والباب كله استعـارة لقصد المشاكلة لا للمبالغـة، ولذلك ليست من مسائل علم البيان.

---

(١) السَّيال : نوع من الشجر .

إشارة إلى التجريد :

هو أن يقدَّر لشيء صفات ثم ينزع منها صفة ، كـقولك : « لى من فلان صديقٌ حميم» أى: له صـفات من جملتها الصداقـة ، ومنه قوله تعالى: ﴿لهمُ فيها دارُ الخُلْدِ﴾[1] أى : من جملة صـفات جهنم أنهـا دار الخلد للكفار ، أى يخلدون فيها ، وقول الحماسى[2] :

فَلَئِنْ بقيتُ لأرحلنَّ بغـزوة   تحوِى الغَنائمَ أو يموتَ كريمُ

أى : أو يموت منى رجل كريم من جملة صفاتى .

وقد يذكر المنتَزَع منه ويضـمر المنتزع كقوله : « لئن سألتَ فـلانا لتسألنَّ به بحرا» أى : جرِّدْ وانتزع حاجتك من صفاته ، فإنه بحر ، والبحر يوجد فيه كل الحوائج .

إشارة إلى المبالغة :

الوصف المبالغ فيه: إما أنْ يكون ممكنًا أوْ لا .

والأول: إن كان ممكنا فى العادة،سُمِّىَ: **التبليغ** ، كقول امرئ القيس:

فعادَى عِداءً بين ثَوْر ونعْجة   دراكًا فلم يُنْضَحْ بماء فيُغْسَلِ

وصف فرسـه بأنه أدرك ثورا ونعجة وحـشيَّين فى مـضمار واحـد ولم يعرق ، وهذا ممكن عادة وعقلا.

وإن لم يمكن فى العادة وأمْكَنَ فى العقل ، سُمِّىَ : **بالإغراق**. كقوله[3]:

ونُكرمُ جارَنا ما دام فينـا   ونُتبعه الكرامةَ حيثُ مالا

---

(١) سورة فصلت ٢٨.

(٢) البيت لقتادة بن مسلمة الحنفي وفي الحماسة ص ٧٧٠.

(٣) البيت لعمير بن الأيهم التغلبي، وفي نقد الشعر :حيث سارا

نقد الشعر ص ٨٤ قدامة ط١

والثانى : [وهو غيرُ الممكن] يسمى **بالغُلُوّ** ، كقول أبى الطيب[(١)] :

عقدتْ سنابكُها عليها عِثْيَرًا   لو تبتغى عَنَقًا عليه لأمكنا

وقول أبى نواس :

وأخفتَ أهلَ الشِّرْك حتى إنه   لتخافُك النُّطَفُ التى لم تُخْلَقِ

وقول الآخر :

أسكرُ بالأمس إن عَزَمْتُ على الشر   ب غدا ، إنّ ذا من العجَبِ

بالغ الأول فى شدة الغبار ، وبالغ الثانى فى شدة الإخافة ، وبالغ الثالث فى شدة الإسكار ، بأوصاف ممتنعة عادة وعقلا.

وقد يُخرَج من حدِّ الغلو :

إما بلفظة يكاد ، كقوله تعالى : ﴿يكادُ زيتُها يُضىءُ ولوْ لمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾

وقول الشاعر فى وصف فرسه :

ويكادُ يخرج سُرْعةً عن ظلـه   لو كان يرغب في فِراق رفيقِ

أو بنوع من التخييل ، كقول القاضى الأرَّجانى يصف طول ليلته :

يُخَيَّلُ لى أنْ سُمِّرَ الشهُبُ فى الدجى   وشُدَّتْ بأهدابى إليهِنّ أجفانِى

إشارة إلى التعليل :

هو أن يُذكر لوصفٍ علةٌ مناسبة لا فى نفس الأمر ، وهو أربعة أقسام :

الأول : مالايظهر له فى العادة عِلّة ، كقول أبى تمام[(٢)] :

---

(١) عثيرا : غبارا . عنقا ، السيرالسريع ، وفي الديوان: لو تبتغي عنقا عليه أمكنا والبيت من قصيدة يمدح فيها بدر بن عمار ويعتذر له عن تخلفه ومطلعها :

الحب ما منع الكلام الألسنا   وألذُّ شكوي عاشق ما أعلنا

(٢) عطل الكريم من الغنى :خلوه وفقره ، والبيت من قصيدة يمدح فيها الحسن بن رجاء مطلعها:

كفى وغاك فانني لك قـال   ليست هوادي عزمتى بتوالي

ديوانه ٣/ ٧٧.

لا تُنكري عَطَلَ الكريمِ مِنَ الغنى ... فالسَّيْلُ حَرْبٌ للمكانِ العالــــي

جعل كوْن السيل حربا للمكان العالى علةً لكون الغنى حربا للكريم ، فإن نسبة الغنى إلى الكريم كنسبة السيل إلى المكان العالى، كالجبال والتلال .

الثانى : ما يظهر له علة غير المذكورة، كقول أبى الطَّيِّب[١] :

ما بِهِ قتْلُ أعاديه ، ولكــــنْ ... يتَّقى إخْلافَ ما ترجو الذئابْ

جعل علة قتْلِ الممــدوح أعداءَه ما فيه من طبـيعة الكرم ، حتى يقـصد فى قتله الأعداءَ ضيافةَ الذئاب، لا الانتقام من الأعداء، ومنه قول أبى طالب المأمونى[٢] فى مدح بعض الوزراء ببخارى :

مُغْرَمٌ بالثّناء ، صَبٌّ يكسْب الـ ... ـمَجْد يَهْتَزُّ للسّماح ارتياحَــــا

لا يَذُوقُ الإغْفَاءَ إلا رجــــاءً ... أن يَرى طَيْفَ مستَميـــحٍ رَوَاحَا

جعل علة نوم الممدوح رؤيته طيْفَ المستميح ، لما فى طبيعته من ملكة الكرم.

ومنه قول ابن المعتز[٣] :

قالوا اشتكتْ عينُه فقلتُ لهم: ... من كثرة القتل نالها الوصَــبُ

حُمْرَتُها من دماءِ من قتَلَــتْ ... والدّمُ في النَّصْل شاهدٌ عجَبُ

وقول الآخر[٤] :

أتتنى تؤنّبنى بالبكــــــا ... فأهلا بها وبتأنيبــــــــها

تقول - وفي قولها حِشْمَةٌ : ... أتبكى بعيْنٍ ترانى بــــــها؟

---

(١) البيت من قصيدة للمتنبى في مدح بدر بن عمار مطلعها :

إنما بدر بن عمار سحاب ... هطل فيه ثواب وعقـاب

شرح ديوانه ١/ ١٤٤ والأسرار ص ٣٣٧.

(٢) هو عبد السلام بن الحسين المتوفى سنة ٣٨٣، والصبّ : المحب ، السماح : الجود والعطاء ، المستميح: طالب العطاء ، رواحا : ليلا والبيتان في أسرار البلاغة ٣٣٨/ ط الاستقامة.

(٣) الوصب : الالم والمرض ، النصل : السيف .

(٤) الأبيات مذكورة فى أسرار البلاغة ، وغير منسوبة إلى قائل ص ٣٤٢.

فقلتُ : إذا استَحْسَنَتْ غيركمُ   أمرْتُ الدّمْوعَ بتأديبهـــــــا

الثالث : أن يراد إثبات صـفة ممكنة بعلة غير مـعهودة ، كقـول مسلم بن الوليد[١] :

ياوشِيًا حَسُنَتْ فينا إساءتُــــــهُ   نجّى حِذَارُكَ إنساني من الغَرَقِ[٢]

يريد إثبات إحسان الواشى ، وهو صفةممكنة ،معللة بعلة غير معهودة ،وهى : أنّ حذاره منه كان سببا لسلامة إنسان عينه من الغرق فى الدموع .

الرابع : أن يراد إثبات صفة غير ممكنة بعلة معهودة ، كقوله[٣] :

لو لم تكنْ نيّةُ الجَوْزاء خدمتَهُ   لَمَا رأيتَ عليها عِقدَ مُنْتَطِـقِ

أراد أن الجوزاء منتَطِقةٌ على نية خدمة الممـدوح ، وهى صفة غير ممكنة ، معللة بعلة معهودة ، وهى عقد المنطقة فى وسطها، فإن ذلك هو المعهود من الخُدّام .

---

(١) هو مـسلم بن الوليـد من أبناء الانصـار ، عرف بالمدح ولقب بـصريع الغـوانى،وتولى بريد جرجان فى خلافة المأمون . انظر : الشعر والشعراء ص ٨٣٢.

(٢) الواشى : الذي يفشى الأسـرار ، الحذار : الخوف ، إنساني : العينى أو سـوادها والبيت في ذيل الديوان ص ٣٢٨، ط دار المعارف وفي الشعر والشعـراء ٢/ ٨١٥، وفي طبقات الشعراء ص ١١١.

(٣) الجوزاء برج فى السماء تحيط به نجـوم تسمى نطاق الجوزاء ، والمنتطق: وما يشد في الوسط من حبل أو عقد أو خلافة.

من المُحَسِّنَاتِ اللَّفظِيَّة

من كتاب (الإيضاح) للخَطيب القَزْوينى

الجناس وأنواعه

الجناس بين اللفظين . هو تشابههما فى اللفظ .

والتامُّ منه :

أن يتفقا فى أنواع الحروف ، وأعدادها ، وهيئاتِها ، وترتيبها .

المماثل :

فإن كان من نوع واحد - كاسمين - سُمِّي مُمَاثلا ، كقوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾[1] وقول الشاعر :

حَدَقُ الآجالِ آجـــالُ والهوي للمرء قَتَّال[2]

الأول جمع إجْل بالكسر ، وهو القطيع من بقر الوحش ، والثانى جمع أجَلٍ، والمراد به منتهى الأعمار ، وقول أبى تمام :

إذا الخيلُ جابَتْ قَسْطَلَ الحربِ صَدَّعوا صُدور العوالي في صدور الكتائـــب

المستوفى :

وإن كان من نوعـين - كاسم وفعل - سُـمِّيَ مُسْـتَوْفى ، كـقول أبى تمام أيضًا:

ما مات مِنْ كَرَمِ الزمان فإنه يَحْيا لدى يحيى بْنِ عبدِالله

---

(١) بعض الآية ٥٥ من سورة الروم

(٢) حدق : واحده حدقة ، وهى سواد العين ، وبإضافته للآجال فى البيت صار استعارة لسواد عيون العِين [البقر الوحشى] ، والبيت لأبى سعيد عيسى بن خالد المخزومى.

ونحوه قول الآخر :

وسَمَّيْتُه يَحْيَى لِيَحْيَا ، فلم يكن ... إلى رَدِّ أمرِ الله فيه سبيـــــلُ

جناس التركيب :

والتام أيضا إن كان أحدُ لَفْظَيه مُركَّبًا سُمِّيَ جناسَ التركيب .

المَرْفُوّ :

ثم إن كان المركب منهما مُركبًا من كلمةٍ وبعضِ كلمةٍ سُمِّيَ مَرْفُوًا ، كقول الحريرى :

ولا تَلْهُ عن تَذْكار ذَنْبِكَ ، وابْكِه ... بِدَمْعٍ يُحاكي الوَبْلَ حَالَ مَصابِــهِ

ومَثِّلْ لعينيكَ الْحِمامَ وَوَقْعَـــــهُ ... ورَوْعَةَ مَلْقَاهُ ومَطْعَمَ صَابِــــهِ

المتشابه :

وإلا ؛ فإن اتفقا فى الخط سمى مُتشابها، كقول أبى الفتح البُسْتِيِّ :

إذا ملك لم يكن ذا هِبَهْ ... فدَعْهُ ، فدولته ذاهِبَهْ[1]

المفروق :

وإن اختلفا سُمِّيَ مفروقا ، كقول أبى الفتح أيضا :

كلكُمْ قد أخذ الجـــا ... م ، ولا جام لنـــا[2]

ما الذي ضرَّ مُديرَ الـــ ... ـــجامِ لو جاملَنــــا

وقول الآخر :

لا تَعْرِضَنَّ علي الرُّواةِ قَصيـــدةً ... ما لم تُبالغْ قبْلُ في تهذيبـــها[3]

فمتى عرضْتَ الشِّعْرَ غَيْرَ مهذَّبٍ ... عَدُّوه مِنْكَ وَساوِسًا تَهْذِى بهـا

---

(١) ذا هبة : صاحب هبة ، دولتـه ذاهبة ، بائدة وفانية ، والبستى هو أبو الفـتح علي بن محمد كاتب الدولة الغزنية ، وأشهر المغرمين بالتجنيس فى الشعر والنثر .

(٢) الجام : الكأس ، لاجام لنا ، ليس لنا كأس ، لو جاملنا : لو قابلنا بالمجاملة.

(٣) الوساوس : جمع وسـوسة ، وهي التخليط فى الكلام . تهذى بها : تخـرف بها . والبيت لابي عمر بن علي المطوعى .

ووَجْهُ حسنِ هذا القسم - أعنى التامَّ - حُسْنُ الإفادة ، مع أن الصُّورةَ صورةُ الإعادة

المحرَّف :

وإن اختلفا فى هيآت الحروف فقط ؛ سمى مُحَرَّفًا .

ثم الاختلاف قد يكون **فى الحركة فقط** . كالبُرْدِ والبَرْدِ فى قولهم : «جُبَّةُ البُرْدِ ، جُنَّةُ البَرْدِ»[1] ، وعليه قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ؟﴾[2] .

قال السكاكى : وكقولك «الجهول إما مُفْرِطٌ أو مُفَرِّطٌ » و[الحرف] المشدَّد فى هذا الباب يقوم مقام المخفَّف نظرًا إلى الصورة ،فاعلم .

وقد يكون **فى الحركة والسكون** ، كقولهم « البِدْعَةُ شَرَكُ الشِّرْكِ »[3] وقول أبى العلاء :

والْحُسْنُ يظهر في بَيْتَينِ رَوْنَقُــهُ بَيْتٍ مِنَ الشَّعْرِ ، أو بيتٍ مِنَ الشِّعَرِ

الجناس الناقص وأنواعه :

وإن اختلفا فى أعداد الحروف فَقَطْ ، سمى ناقصًا ، ويكون ذلك على وجهين :

أحدهما : أن يختلفا بزيادة حرف واحد .

فى الأول كقوله تعالى : ﴿والْتَفَّتِ السَّاقُ بالسَّاقِ ، إلىَ رَبِّكَ يَوْمَئِـذٍ الْمَسَاقُ﴾[4] .

---

(١) الجبة: ثوب واسع يلبس فوق الثيات ، . البرد ، بضم بائه ": الثوب المخطط ، جنة : وقاية.

(٢) الآيتان ٧٢-٧٣ من سورة الصافات .

(٣) البدعة هنا: ما يستحدث في الدين ولا أصل له فيه، شرك بالتحريك: حبالة . الشرك بالكسر : اتخاذ شريك مع الله- تعالي الله عن ذلك علوًا كبيرًا ، رونقه: طلاوته وحسنه وإشراقه

(٤) الآيتان ٢٩ - ٣٠ من سورة القيامة.

أو فى الوسط ، كقولهم : « جَدِّى جَهْدِى » .

أو فى الآخر ، كقول أبى تمام :

يَمُدُّون مِنْ أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِـــم تَصُولُ بأسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبِ[١]

وقول البحترى :

لَئِنْ صَدَفَتْ عَنَّا فَرُبَّتَ أَنْفُـــسٍ صَوَادٍ إلي تلك الوُجوه الصَّوادِفِ[٢]

ومنه ماكتب به بعض ملوك المغرب إلى صاحب له يدعوه إلى مجلس أُنْسٍ له :

أيها الصاحبُ الذى فارقَتْ عَيْـــنِى وَنَفْسِى منه السَّنا والسَّنَاءَ[٣]

نحن في المجلس الذى يَهَبُ الرا حة والَمسْمَعَ الغِنَى والغنـــاءَ

نتعاطي التي تُنَسِّى من اللـــذة والرِّقَّة الهوى والهـــواءَ

فأته تُلْفِ راحةً ومُحَيّـــا قد أعَدَّا لك الحيا والحيـــاءَ

المطرَّف

وربما سُمى هذا القسم - أعنى الثالث - مطرَّفا .

ووَجْهُ حسنه أنك تتـوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمـة- كالميم من عواصم -

(١) عواص : جمع عاصية بمعني أبية ،عواصم : جمع عاصمة ، أي مـانعة حافظة ، تصول : تسطو وتقهر ، وقواض :جمع قاض أي فاصل في القطع منجز في الفعل ، قواضب: جمع قاضب بمعني قاطع .

(٢) صدفت : أعرضت وانصرفت . ربت : رب ، ولحقتها التاء لتأنيث اللفظ ، وهى فى الأصل للتقليل ، والمقـام يقتضى التكثيـر ، صواد : جمع صادية أي عطشانـة ، الصوادف : جمع صادفة أي مائلة منصرفة .

(٣) السنا : الضـوء ، السناء : الشـرف ، الراحة في البيت الثـانى : باطن الكف. المسـمع : الأذن. الغنى :الثروة . الغناء : التطريب وترجيع الصوت بالألحان ، التي تنسى . . . إلخ. الخمر . الهوى :الحب ،. الهواء : النسيم. تُلف : تجـد ، راحة : يدا ، محيًّا : وجهًا . الحيـا : المطر ، ويراد به العطاء الكثير مـجازا علـى سبيـل الاستـعارة . الحـياء : الخـفر والاستحياء . وصاحب الشعر هو المعتمد بن عباد أحد ملوك الطوائف بالأندلس.

أنها هى التى مضت ، وإنما أُتِىَ بها للتأكيد ، حتى إذا تمكن آخرُها فى نفسك، ووعاه سمعُك ؛ انصرف عنك ذلك التـوهُّم ، وفى هذا حصول الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها .

الوجه الثانى : أن يختلفا بزيادة أكثر من حرف واحد كقول الخنساء :

إن البُكاءَ هو الشِّفَـــــاءُ من الْجَوَى بين الجوانِحِ(١)

المذيَّل :

وربما سُمِّىَ هذا الضرب مذيَّلاً .

وإن اختلفا فى أنواع الحروف اشتُرِطَ أن لا يقع الاختلاف بأكثر من حرف.

المضارع

ثم الحرفان المختلفان إن كانا متقاربين سُمِّيَ الجناسُ مضارعا .

ويكونان إما فى الأول ، كقول الحريرى « بينى وبين كِنِّى ليل دامِسٌ وطريق طامس »(٢).

وإما فى الوسط ، كقـوله تعالى ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ، وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾(٣) وقول بعضهم « اَلْبَرَايَا أَهْدَافُ الْبَلاَيَا»(٤) .

وإما فى الآخر ، كقول النبى ﷺ « الخيلُ معقودٌ بنواصيها الخَيْرُ إلى يوم القيامة»(٥) .

---

(١) الجـوى : شدة الوجـد من الحـزن أو العشق . الجـوانح : الضلوع فـوق الترائب ، واحـدها جانحة.

(٢) كنّى : بيتي . دامس : مظلم شديد الظلام . طامس : خفى المعالم .

(٣) بعض الاية ٢٦ من سورة الأنعام .

(٤) البرايا: جمع البرية بمعني الخلق، وأصله من «برأ» فخفف . البلايا : المصائب

(٥) معقود : مربوط ومنوط ، النواصى : جمع ناصية وهي مـقدم الرأس والمقصود من عقد الخير بنواصيها مقارنته لمجيئها ، فانظر ما فيه من أعمال البيان

اللاحق :

وإن كانا غير متقاربين سُمِّيَ لاحقا .

ويكونان أيضًا إما فى الأول كقوله تعالى : ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾[١] وقول بعضهم « رُبَّ وَضِيٍّ غير رَضِيٍّ »[٢] وقول الحريرى « لا أعطى زمامى لمن يَخْفِر ذمامى »[٣] .

وإما فى الوسط ، كقوله تعالى ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾[٤] ، وقوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ، وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[٥] .

وإما فى الآخر كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ﴾[٦] .

وقول البحترى :

هَلْ لِمَا فَاتَ مِنْ تَلاَقٍ تَلاَفِ ... أَمْ لِشَاكٍ مِنَ الصَّبَابَة شَافِى[٧]

جناس القلب :

وإن اختلفا فى ترتيب الحروف سُمِّيَ جناس القلب ، وهو ضربان :

قلب الكل ، كقوله « حُسامُهُ فَتْحٌ لأوليائه ، حَتْفٌ لأعدائه »[٨].

وقلب البعض، كما جاء فى الخبر « اللَّهُمَّ استُرْ عَوْرَاتِنَا ، وآمِنْ رَوْعَاتِنَا»[٩]

---

(١) الآية ١ من سورة الهمزة .

(٢) وضى : مخفف وضىء ، وهو المشرق الوجه ، رضى : مرضى عنه مقبول .

(٣) زمامى : قيادي ، والمراد طاعتى ، تجوزا . يخفر ذمامى : يخون عهدي وينقضه .

(٤) الآية ٧٥ من سورة غافر.

(٥) الآيتان ٧-٨ من سورة العاديات .

(٦) بعض الآية ٨٣ من سورة النساء .

(٧) تلاق : لقاء . تلاف : تدارك، الصبابة : شدة الشوق ، والاستفهام للانكار ، والغرض منه إظهار التحسر.

(٨) حسامه : سيفة ، فتح : نصر ، لأوليائه : لأنصاره الموالين له . حتف : هلاك .

(٩)روعات : جمع روعة بمعنى فزعة ومخافة .

وقول بعضهم « رحم الله امرأ أمسكَ ما بين فَكَّيْه ، ،وأطلق ما بين كَفَّيْه»[1] وعليه قول أبي الطيب :

مُمَنَّعَةٌ مُنَعَّمَـــــــــةٌ رَداحٌ   يُكلَّف لفظُهَا الطيرَ الوُقوعا[2]

وإذا وقع أحد المتجانسين جناسَ القلب في أول البيت ، والآخرُ في آخره ، سمى مقلوبا مجنَّحا.

وإذا وَلِيَ أحدُ المتجانسين الآخر سمى مُزدَوجا ، ومكرَّرًا ، ومردَّدا، كقوله تعالى ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[3] وما جاء في الخبر : « المؤمنون هَيِّنُون لَيِّنُون» وقولهم «من طلب وَجَدَّ وَجَدَ» ، وقولهم « من قرع بابًا ولَجَّ وَلَجَ» وقولهم « النبيذ بغير النغم غمٌّ وبغير الدسم سمٌّ » وقوله :

يَمُدُّون من أيْدٍ عَوَاصٍ عَواصمٍ   تَصُولُ بأسيافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبِ

ما يلحق بالجناس

واعلم أنه يلحق بالجناس شيئان :

أحداهما : أن يجمع اللفظين الاشتقاقُ كقوله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ وقوله تعالى ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحان﴾ . وقول النبي ﷺ « الظلم ظُلُمَات يوم القيامة» وقول الشافعي رضى الله عنه وقد سئل عن النبيذ «أجمع أهل الْحَرَمَيْنِ على تحريمه» وقول أبي تمام :

فيا دَمْعُ أَنْجِدْنِى علي ساكنى نَجْدِ[4]

---

(١) الفكّان : اللحيان الأعلي والأسفل ، ومابينهما كناية عن اللسان وما بين الكفين : المال ، والقصد التكرم .

(٢) ممّنعة : محمية . منعّمة : مرفهة . رداح : كبيرة العجز . يكلف لفظها ... إلخ : كناية عن شدة تأثيره وسحره .

(٣) بعض الآية ٢٢ من سورة النمل .

(٤) صدره : وأنجدتم من بعد إتهام داركم ، أنجدتم : سكنتم نجدا ، إتهام داركم ، اتخاذها فى تهامة . أنجدنى : ساعدنى وعاوني .

وقول البحترى :

يَعْشَى عن المجد الغَبِىُّ، ولَنْ ترى   في سُؤْدَدٍ أرَبًا لغير أريــــب[١]

وقول محمد بن وهيب :

قَسَمْتَ صروفَ الدهر بَأسًا ونائلاً   فَمَالُكَ مَوْتورٌ ، وسيفُك واتـر[٢]

والثاني: أن يجمـعهما المـشابهة ، وهى ما يشـبه الاشتـقاق وليس به ، كقـوله تعالى : ﴿اثَّاقَلْتُم إلى الأرضِ ، أرَضِيـتُمْ بالْحَيَاةِ الدُّنْيَـا مِنَ الآخِرَةِ﴾[٣] وقـوله تعالـى : ﴿قَالَ : إنِّى لِعَـمَلِكُمْ مِنَ الْقَـالِينَ﴾[٤] وقوله تعـالى ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾[٥] .

وقول البحترى :

وإذا ما رياحُ جُودِكَ هَبَّــتْ   صار قول العذول فيها هَبَاءَ

---

(١) يعشى : أراد يعمي ، والقصد أنه لا يشغل به ،وطريقـه الكناية . السؤدد : رفعة القدر وكرم المنصب ، ارب : غاية ومارب . أريب : عاقل لبيب .

(٢) صروف الدهر : أحواله وحدثانه، بأسا : شجاعة ، نائلا : عطاء وكرما . مالك موتور : أى مالك منقوص ، وأصله قولهم « وتر ماله» أى نقصه. واتر آخذ بالوِتْر والثأر .

(٣) بعض الآية ٢٨ من سورة التوبة .

(٤) الآية ١٦٨ من سورة الشعراء .

(٥) الآية ٥٤ من سورة الرحمن.

ردُّ العجُز على الصَّدْر

ومنه : ردُّ العَجُـزِ على الصّدر ، وهو فى النثر : أن يُجعَل أحدُ اللفظين المكرَّرين ، أو المتـجانسين ، أوالملحـقين بهمـا ، فى أول الفقـرة ، والآخر فى آخرها ، كـقوله تعـالى : ﴿وتَخْشَى النَّاسَ واللهُ أحَقُّ أنْ تَخْـشَاهُ﴾(١) وقولهم «الحِيلةُ ترك الحـيلة» وكقولهـم : «سائلُ اللئيم يرجع ودمـعه سائل» ، وكـقوله تعالى ﴿استَغْفِرُوا ربَّكُمْ إنَّهُ كانَ غَفَّارًا﴾(٢) ، وكقوله تعالى ﴿قَالَ : إنِّى لِعَمَلِكُم مِنَ الْقَالِينَ﴾ (٣).

وفى الشعر : أن يكون أحـدهمـا فى آخـر البيت ، والآخـر فى صـدر المصراع الأول ، أو حَشْوِه، أو آخرِه، أو صدر الثاني

فالأول كقوله :

سريعٌ إلى ابْن العَمِّ يَلْطِمُ وجهَهَ ... وليس إلي داعى النَّدَى بِسَرِيـع

ونحوه قول الآخر :

سكْرَانِ : سكْرُ هوى ، وسكْرُ مُدَامَةٍ ... أنَّى يُفيقُ فَتًى به سكْـــــرَانِ؟!(٤)

والثانى كقول الحماسى :

تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نَجْـدِ ... فَمَا بعد الْعَشِيَّةِ مِنْ عَرَارِ(٥)

ونحوه قوله أبى تمام :

---

(١) بعض الآية ٢٧ من سورة الاحزاب .

(٢) بعض الآية ١٠ من سورة نوح .

(٣) الآية ١٦٨ من سورة الشعراء .

(٤) هوي : عشق . مدامة : خمر . أنَّى يفيق : معناه كيف يتنبه ؟ والاستفهام إنكارى .

(٥) شميم : شمّ ، العرار : النرجس البرى . والبيت للصِّمَّة بن عبد الله القشيرى .

ولم يحفظْ مُضاعَ المجد شئٌ ... من الأشياء كالمال المُـــضاع[1]

والثالث كقوله أيضا :

ومَنْ كان بالبيض الكواعب مُغْرَمًــا ... فما زلتَ بالبيضِ القواضب مغرما[2]

والرابع كقول الحماسي :

وإن لم يكن إلا مُعَرَّجَ ساعــة ... قليلا ؛ فإني نافع لي قليلُها[3]

والخامس كقول القاضي الأرَّجَانيّ :

دعاني مِنْ مَلامِكُما سَفَاهًـــا ... فداعي الشوقِ قبلكُما دعاني[4]

وقول الآخر :

سَلْ سبيلاً فيها إلي راحة النفـــ ... ـــس براحٍ كأنها سلسبيـــل[5]

وقول الآخر :

ذوائبُ سُودٌ كالعناقيد أُرْسِلَـــتْ ... فَمِنْ أجلها منها النفوس ذوائب[6]

---

(١) مضــاع الأولى : مصدر مـيمى بمعنى إضاعـة أو بمعني المفعول . والثـانية اسم مفـعول بمعنى مهلك بالإنفاق .

(٢) البيض الأولي : جمع بيـضاء وصف للمرأة .، الكواعب : جمع كـاعب ، وهى الفتاة التي نهد ثدياها . البيض الثانية : جمع أبيض وهو السيف . القواضب : القواطع .

(٣) قبله : ألما علي الدار التى لو وجدتها ... بها أهلها ما كان وحشا مقيلها

ألما علي الدار : انزلا بها . وحشا : مقفرا. مقيلها : الاستراحة فيها وقت الظهيرة ، لم يكن : اسمها يعود على الإلمام المفهوم من البيت الأسبق . معرَّج : خبر كان ، وهو مصدر ميمى بمعني التعريج وهو الوقوف والتلبث، ساعة : فترة من الزمان ، والبيتان لذي الرمة غيلان بن عقبة .

(٤) دعاني الأولي : اتركاني . سفاها : سفها وجهلا وحمقا . دعاني الثانية : ناداني .

(٥) سل : اطلب ، سبيلا : طريقا . راح : خمر . سلسبيل : ماء عذب سائغ .

(٦) ذوائب الأولي : جمع ذؤابة وهي شعر مقدم الرأس ، العناقيد جمع عنقود وهو مجتمع حب العنب . وذوائب الثـانية : جمع ذائبـة وهى هنا بمعنى حمـقاء مجنونـة ، من قولهم «ذاب الرجل » بمعنى حمُق بعد عقل ، والبيت لأبي الحسن نصر المرغيناني .

والسادس كقول الآخر :

وإذا البلابلُ أفصحَتْ بلغاتـــها فَانْفِ البلابلَ باحْتِساء بلابلِ(١)

والسابع كقول الحريرى :

فمَشْغوفٌ بآيات الْمَثَانى ومفْتُونٌ برنَّاتِ الْمَثَانى(٢)

والثامن كقول القاضى الأرَّجانىّ :

أمَّلْتُهُم ثُمَّ تأمَّلْتُهُـــــــــمْ فلاح لى أنْ ليسَ فِيهِمْ فَلاَحُ(٣)

والتاسع كقول البحترى :

ضرائبُ أبدعتَها في السمــــا ح فلسنا نرى لك فيها ضريبا(٤)

والعاشر كقول امرئ القيس:

إذا المرءُ لم يخزنْ عليه لسانه فليس على شيءٍ سواه بخزّانِ

والحادى عشر كقول الآخر :

فدَعِ الوعيدَ فما وَعيدُك ضَائِرى أطَنِينُ أجنحةِ الذُّبابِ يَضيــــرُ

والثانى عشر كقول أبي تمام :

وقدْ كانت البِيضُ القواضِبُ فى الوغى بواترَ فهى الآنَ من بَعْده بُتْـــــــرُ

---

(١) البلابل الاولي : الطيور المغردة ، انف : أزح وأبعد ، البلابل الثانية : الأشجان ، احتساء : شرب ، بلابل الأخيرة جمع بلبل وهو قناة الإبريق ، عبر به عن الحالة فيه . والبيت لعبد الملك بن محمد الثعالبي صاحب اليتيمة .

(٢) مشغوف : مغرم مولع . آيات المثانى : القرآن ، رنات : أصوات المثانى الاخيرة : الأوتار .

(٣) أمّلتهم : جعلتهم أملي ورجائى ،. تأملتهم : تدبرتهم وفكرت فيهم . لاح لى :ظهر لى . فلاح : فوز وصلاح حال .

(٤) ضرائب جمع ضريبة وهي سجية ،. أو هى جمع علي غير قياس واحده ضرب بمعني شكل أو صنف . أبدعتها : اخترعتها . السماح : الجـود . ضريبا : نظيرا ومثيلا . وصحة نسبة البيت للقاضى الأرجانى الذي أخذه من قول البحترى

السجــع

ومنه السجع ، وهو : تواطُؤُ الفاصلتين من النثر على حرف واحد ، وهذا معنى قول السكَّاكى « الأسجاع فى النثر كالقوافى فى الشعر » .

وهوثلاثة أضرب : **مُطَرَّفٌ** ، **ومُتوازٍ** ، **وترصيع** .

لأن الفاصلتين : إن اختلفتا فى الوزن فهو السجع المُطَرَّفُ ،كقوله تعالى : ﴿مَالَكُمْ لاَ تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا؟!﴾(١) .

وإلاّ ، فإن كان ما فى إحدى القرينتين من الألفاظ ، أو أكثرُ ما فيها ، مِثْلَ ما يقابله من الأخرى فى الوزن والتَّقْفِيَة ؛ **فهو التَّرْصِيع** ، كقول الحريرى «فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الأسماعَ بزواجر وعظه » وكقول أبى الفضل الهمَذانى « إن بَعْدَ الكَدَرِ صَفْـوًا ، وبعد المطر صَحْوًا » وقول أبى الفتح البُسْتِيَ « ليكُنْ إقدامُك توكُّلاً ، وإحجامك تأمُّلاً » .

وإلا ؛ **فهو السجع المتوازى** ، كقوله تعالى : ﴿فيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ، وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾(٢) وفى دعاء النبى صلى الله عليه وسلم « اللهم إنى أدرأ بك فى نُحورِهِم وأعوذ بك من شرورِهِم ».

وشرطُ حسنِ السجع اختلافُ قرينته فى المعنى كما مرَّ ، لا كقول ابن عبَّاد فى مهزومين « طاروا واَقِينَ بظهورهم صدورَهم، وبأصابهم نُحورَهُمْ» .

قيل : وأحسن السجع ما تساوت قرائنُه . كقوله تعالي: ﴿ فِى سِدْرٍ مَخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ، وظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾(٣) ثم ما طالت قرينته الثانيةُ ، كقوله ﴿ والنَّجْمِ إِذَا هَوَى ، مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾(٤) أو الثالثة ، كقوله تعالى

---

(١) الآية ١٣ من سورة نوح .

(٢) الآيتان ١٣-١٤ من سورة الغاشية .

(٣) الآيات ٢٨-٣٠ من سورة الواقعة .

(٤) الآيتان ١-٢ من سورة النجم .

﴿خُذُوه ، فَغُلُّوهُ ، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾(١) وقول أبى الفضل الميكالى « له الأمر المُطاعُ ، والشَّرَف اليَفاع(٢) والعِرْض المَصُونُ والمالُ المُضَاعُ » .

وقد اجتمعا فى قوله تعالى ﴿ والْعَصْرِ ، إنَّ الإنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ ، إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَوَاصَوْا بالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بالصَّبْرِ﴾(٣) .

ولا يحسن أن تُولَى قرينةٌ قرينةً أقصرَ منهـا كثيرًا ، لأن السجع إذا استوفى أمَدَهُ من الأولى لطولهـا ، ثم جاءت الثانية أقـصر منها كثيـرًا ، يكون كالشىء المبتور ، ويبقى السامع كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها ، والذوق يشهد بذلك ، ويقضى بصحته .

أنواع السجع :

ثم السجع **إما قصير** ، كقوله تعالى: ﴿ والْمُرْسَلاَتِ عُـرْفا ، فالعاصِفَاتِ عَصْفًا ﴾(٤).

أو طويل كقـوله تعالى : ﴿إذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ في مَنَامِكَ قَلِيـلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فى الأمرِ ، وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ، إنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور ، وَإذْ يُرِيكُمُوهُمْ إذِ الْتَـقَيْتُمْ فِى أعْيُـنِكُم قَلِيلاً ، وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ لِيَـقْضِىَ اللهُ أمْرًا كانَ مَفْعُولاً ، وإلىَ اللهِ تُرْجَعُ الأمُور ﴾(٥).

أو متوسط ، كقوله تعالى: ﴿اقْتَـرَبَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ الْقَمَرُ، وَإنْ يَرَوا آيَةً يُعْرِضُوا ، وَيَقُولُوا : سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾(٦) .

ومن لطيف السجع قول البـديع الهمَـذانى من كتـاب له إلى ابن فـريقون

---

(١) الايتان ٣٠-٣١ من سورة الحاقة

(٢) اليفاع : المرتفع .

(٣) سورة العصر .

(٤) الآيتان ١-٢ من سورة المرسلات .

(٥) الايتان ٤٣-٤٤ من سورة الأنفال .

(٦) الايتان ١-٢ من سورة القمر .

«كتابى والبحرُ وإن لم أرَه ، فقد سمعت خبره ، والليثُ وإن لم ألقَه ؛ فقد تصوَّرتُ خَلْقَه ، والملكُ العادلُ وإن لم أكن لقيتُه ، قد لقِيَنى صيتُه ،ومن رأى من السيف أثرَه ، فقد رأى أكثرَه ».

يكفى للسجع اتحادُ الفواصل عند الوقف :

واعلم أن فواصل الأسجاع موضوعةٌ على أن تكون ساكنةَ الأعجاز موقوفًا عليها ؛ لأن الغرض أن يُزَاوَجَ بينها ، ولا يتم ذلك فى كل صورة إلا بالوقف، ألاترى أنك لو وصلتَ قولَهم «ما أبعدَ ما فاتَ ، وما أقربَ ما هو آتٍ » لم يكن بُدٌّ من إجراء كل من الفاصلتين على ما يقتضيه حكم الإعراب فيفوت الغرض من السجع ؟ وإذا رأيتهم يُخْرِجون الكلمَ عن أوضاعها للازدواج فى قولهم « إنِّى لآتيه بالغَدايا والعَشايا» أى : بالغدوات ، فما ظنُّك بهم فى ذلك.

السجع والقرآن :

وقيل : إنه لا يقال : فى القرآن أسجاع ، وإنما يقال : فواصل .

السجع والشعر :

وقيل : السجع غير مختصٍّ بالنثر ، ومثاله من الشعر قول أبى تمام:

تَجلَّى به رُشْدِى ، وأثْرَت به يدى ... وفاض به ثَمْدِى و وأوْرَى به زَنْدِى[1]

وكذا قول الخنساء :

حامى الحقيقةِ ، محمودُ الخليقةِ، مَهْـ ... ـدِىُّ الطريقةِ ، نَفَّاعٌ ، وضَرَّار[2]

وكذا قول الآخر :

---

(١) تجلى : ظهر وتكشف . رشدي :هداي . أثرت : كثر مالها ، فاض : كثر وسال . الثمد بالفتح هنا ويأتى بالتحريك :الماء القليل يتجمع شتاءً وينضب صيفا ، ويطلق علي الماء القليل مطلقا ، والمراد به هنا المال القليل بطريق الاستعارة. أورى زندى : أخرج ناره ، ،والزند : عود تستخرج النار بحكه فى عود اخر أسفله يسمى الزندة. والمقصود بالتركيب كله معنى (نجحت) علي سبيل الكناية.

(٢) الحقيقة: ما يجب علي المرأ أن يحميه من عرض ونحوه . الخليقة : الخلق.

ومكارمٍ أوليتَها مُتبرِّعــــا وجرائمٍ ألغيتَها مُتورِّعًا[١]

وهو ظاهر التكلف، وهذا القائل يشترط التـقفية فى العروض والضـرب ، لا كقوله :

وزَنْـدُ نَدي فَوَاضِلـهِ وَرِيٌّ ورَنْدُ رُبى فضائله نَضِيرُ[٢]

التشطير:

ومن السجع على هذا القـول ما يسمَّى **التشطير** ، وهو : أن يُجـعل كل من شَطْرَي البيت سجعةً مخالفةً لأختها ، كقول أبى تمام :

تدبيرُ مُعْتَصِمٍ ، بالله مُنْتَقِــــم لله مُرتَغِبٍ ، في الله مُرْتَقِبِ[٣]

التصريع:

ومنه ما يسمـى التصريع ، وهو : جعل العروض مُـقَفَّاةً تقفـيةَ الضرب ، كقول أبى فِرَاس :

---

(١) مكارم : جمع مكرمة وهى ما تسـديه من معروف ، أوليتها : صنعتها إلي أوليـائك . متبرعا متفـضلا بغير مـوجب ولا انتظار عوض . ألغيتـها : أبطلتهـا وعفوت عنها . مـتورعًا : متعـفِّفا من غـير جبن أو خوف ، وإرادة التكثيـر في البيت مستـفادة من واو «رب» فى أول الشطرين.

(٢) زند ندى فواضله : ثلاث إضـافات متتـابعة ، ومعنى زند سـبق في الهامش رقم (١). وهو مـشبـه به . ندي : جود ، وهو مـشبـه . فواضل : جـمع فـاضلة ، وهى هنا الهبـة ، وري:مخرج للنار ، ويجوز أن يكون «زند» تخييلية لمكنية فى «ندى» المشبه بالشرر المتتابع ، ويجوز أن يكون «زند» تصريحية بدل « سـائل » و «ورى» ترشيح ، أو تبعية بدل «ناجح» ، رند : نبت طيب الرائحة يشبه الآس . وربى اسم جنس جمـعى أو جمع تكسير واحده ربوة وهى المرتفع من الأرض . فضائله أخلاقه الفاضلة .، نضير أخضر يانع .، وربى ، وزند ، ونضير : قـرائن علي أنه شبه اخلاقه بالروض علـى سبيل الاستعارة المكنية ، والبيت لأبى الفتح المطرزى ناصر بن عبد السيد .

(٣) معتصم : اسم الخليفة ابن الرشيـد وهو ثالث ابنائه الخلفاء من بعده ، والبيت في مدحه بعد فتح عمـوريةمن بلاد الروم . ويلاحظ تعلق الجار والمجرور بعده به ، وكـذا الأوصاف بعده ومتعلقاتها ، مرتغب : راغب ، مرتقب : منتظر متطلع .

بأطراف المُثَقَّفة العوالــى   تفرَّدْنا بأوساط المعالى[١]

وهو مما استُحْـسن ، حتى إن أكثر الشعر صُـرِّعَ البيتُ الأول منه ، ولذلك متى خالفت العروضُ الـضَّرْبَ فى الوزن ، جاز أن تُجْعَلَ مُوَازِنَةً لـه إذا كان البيت مُصَرَّعا ، كقول امرئ القيس :

ألا عِمْ صَبَاحًا أيُّهَا الطَّلَلُ البالـــــى
وهل يَنْعَمَنْ من كان فى العُصُرِ الخالى[٢]

أتى بعروض الطويل «مـفاعيلن» وذلـك لا يصح إذا لم يكن البيت مُصـرَّعًا ، ولهذا خُطِّىء أبو الطيب فى قوله :

تَفَكُّرُهُ عِلْمٌ ومَنطِقُه حُكـــمُ   وباطنه دينٌ ، وظاهرُه ظَرْفُ[٣]

---

(١) مثقفة : مقومة بالثقاف ، وهو آله يعدل بها الرماح صانعها . العوالي : جمع عالية ، وتطلق علي الرمح كما تطلق علي صدره وأعـلاه . أوساط : جمع وسط ، والمراد به هنا : الأفضل من الشيء ، المعـالي : جمع معـلاة وهي الشرف والرفـعة. وأبو فراس هو الشـاعر الأمـير الفارس الحمداني ، واسمه الحارث بن سعيد بن حمدان ، وهو ابن عم سيف الدولة

(٢) عم صبـاحًا : عبارة تقـال للتحيـة في الصباج . عم : أصله انعم ، أمـر من قولهم « نعم صباحك» أى جعله الله ذا لين ورغد ، وحذفت همـزته ونونه لكثرة الاستعمال وروى « ألا انعم صباحا» . الطلل : الأثر الشاخص من آثار الديار . البـالى : الرث . العُصُرُ : الكثير فيه فتح العين وسكون الصاد . ويأتى بوزن قفل ، وبوزن عنق كما هنا . الخالي : الفائت . والاستفهام للانكار والتحسر .

(٣) التفكّر : إعمال الخاطر ، يقصد أنه يستغـرق الشيء علما بمجرد إعمال خاطره فيه ، منطقه : نطقه . حكم :حِكمة ، وقصده أن كلامـه الذى ينطقه حكمة لا مجرد كلام ككلام الناس . الظرف : حسن الهيـئة ، والذكاء ، والبراعة ،وأنسـبها الأول؛ ليتم له إثبـات نظافته ظاهرًا وباطنا.

محسنات لفظية أخرى

الموازنة :

ومنه الموازَنة، وهى : أن تكون الفاصلتان متساويتين فى الوزن دون التقفية، كقوله تعالى : ﴿ونَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ، وزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾(١) .

المماثلة :

فإن كان ما فى إحـدى القرينتين من الألفاظ أو أكثرُ ما فيهـا مثلَ ما يقابله من الأخرى فى الوزن خُصَّ باسم المماثلة ، كقـوله تعالى: ﴿ وآتَيْنَاهُما الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ، وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾(٢) .

وقول أبى تمام :

مَهَا الوَحْشِ ، إلاَّ أنَّ هاتا أوانسٌ   قَنَا الْخَطِّ ، إلاَّ أنّ تلك ذَوَابِلُ(٣)

وقول البحترى :

فأحْجَمَ لَمَّا لم يَجِدْ فيك مَطْمَعًا   وأقدمَ لَمَّا لم يَجِدْ عنك مَهْرَبًا(٤)

القلب :

ومنه القلب ، كـقـولك : أرضٌ خـضراء ، وقـول عـمـاد الدين الكاتب للقـاضى الفاضل : «سِرْ فلا كَبَا بِكَ الْفَرَسُ» وجواب القاضـى : «دَامَ عُلاَ الْعِمَادِ» وقول القاضى الأرَّجانىِّ :

مَوَدَّتُهُ تدوم لكل هَوْلٍ   وهَلْ كُلّ مودتُه تدوم؟

---

(١) الآيتان ١٥-١٦ من سورة الغـاشية ، النمارق : الوسـائد الصغيرة . الزرابي البـسط الفاخر، المبثوثة : المفروشة.

(٢) الآيتان ١١٧-١١٨ من سورة الصافات .

(٣) انظر الشاهد رقم ٤١٤.

(٤) أحجم : نَكَصَ هيبة وتقهقَـرَ ، وفاعله ضميـر يعود إلي الأسد الذي بارزه الفتح بـن خاقان ممدوحه الذي قال فيه قصيدة منها هذا البيت .

وفى التنزيل « كُلٌّ فى فَلَك »(١) ، وفيه « وَرَبَّكَ فكَبِّرْ »(٢).

التشريع :

ومنه التشـريع : وهو : بناء البيت على قافيـتين يصح المعنى على الوقوف على كل واحدة منهما . كقول الحريرى :

يا خاطبَ الدنيا الدَّنِيَّة، إنهـــا شَرَكُ الرَّدَى، وقرَارَةُ الأكْدار(٣)
دارٌ متَى ما أضْحكَتْ فى يومِها أبكتْ غدًا ، تَبًّالها مِـــنْ دارِ

لزوم ما لايلزم :

ومنه **لزوم ما لا يلزم** ، وهو : أن يجىء قبل حرف الرَّوِيِّ وما فى معناه من الفـاصلة ما ليس بلازم فى مـذهب السجع ، كـقوله تعالـى : ﴿ فإذَا هُمْ مُبْصِـرُونَ ، وَإِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهم فى الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْـصِرُونَ ﴾(٤) وقوله : ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِل فَلاَ تَنْهَرْ﴾(٥) .

[ومن أمثلته فى الشّعر] قول الشاعر :

سأشكرُ عمرًا إنْ تراخَتْ منيَّتِـــى أيادىَ لم تُمنَنْ وإنْ هى جَلَّـــتِ
فتى غيرُ محجوب الغنى عن صديقه ولا مظهر الشكوىَ إذا النّعل زلـتِ
رأى خَلَّتى من حيثُ يخفى مكانُهـا فكانتْ قذَى عينيْهِ حتّى تجلَّـــتِ

وقول الآخر :

يقولون: فى البستانِ للعينِ لـــــذَّةٌ وفى الخمر، والماء الذى غيرُ آســـنِ
إذا شئتَ أن تلقى المحاسن كلَّهـــا ففي وجْهِ مَنْ تَهْوَى جميعُ المحاسِـنِ

---

(١) بعض الآية ٣٣ من سورة الانبياء.   (٢) الآية ٢ من سورة المدثر.

(٣) الخاطب : من يطلب يد العروس ، ،وإضافـته للدنيا تخيل وقرينة علي أنه شبـهها بالعروس علي سبيل المكنية . الدنية : الحقيرة ، شرك : حبالة ، الردى : الهلاك . قرارة : مستقر . والأبيات في المقامة الشعرية ، وبقيتها :

دار متى ما أضحكت في يومها أبكت غدًا ، تبًا لها مـن دار
غاراتها لا تنقضى وأسيرهـا لا يفتدَى ، بجلائل الأخطـار

(٤) بعض الآية٢٠١ والآية ٢٠٢ من سورة الأعراف .

(٥) الآيتان ٩-١٠ من سورة الضحى .

فى المستحسن من ألوان البديع

من (أسرار البلاغة) لعبد القاهر

وههنا أقسام قد يتوهم فى بدء الفكرة , وقبل إتمام العبرة ، أن الحُسنَ والقُبحَ فيها لايتعدى اللفظَ والجَرْسَ , إلى ما يُناجَى فيه العقلُ والنفسُ , ولها إذا حُقّق النظر مرجعٌ إلى ذلك ، ومنصرَف فيما هنالك ، منها التجنيس والحشو.

أما التجنيس فإنك لا تستحسنُ تجانس اللّفظين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل حميدا , ولم يكن مرمَى الجامع بينهما مرمىً بعيدا ، أتراك استضعفت تجنيس أبى تمام فى قوله (من الكامل) :

ذَهَبَتْ بمذهبه السماحةُ فالْتَـوتْ فيه الظنونُ أمَذْهبُ أم مُذْهَبُ[(١)]

واستحسنت تجنيس القائل (من الرجز) :

"حتي نجا من خوفه وما نجا"[(٢)]

وقولَ المحدث (من الخفيف) :

ناظِراه فيما جَنَى ناظِـــراه أوْ دَعاني أمُتْ بما أوْدَعانى

لأمر يرجع إلى اللفـظ ؟ أم لأنك رأيت الفائدة ضعـفت عن الاول وقويت فى الثاني ؟ ورأيتك لم يزدك بمَذهب ومُذهب على أن أسْـمَعكَ حروفا مكرّرة , تروم لها فـائدة فلا تجدها إلا مجـهولة منْكرة , ورأيت الآخـر قد أعـاد عليك اللفظة كـأنه يخدعك عن الفائـدة وقد أعطاها , ويُوهمُكَ كـأنه لم يزدْك وقـد أحسن الزيادةَ ووفّاها , فبهذه السّريرة صار التـجنيسُ - وخصوصا المستوفَى منه

---

(١) مَذهَب : خُلُق , مُذهَب : جنون .

(٢) حول قراءة هذا الشاهد خـلاف بين عبد القاهر والجاحظ ، وقراءة الجاحظ (حـتى نجا من جوفه) بدلا من خوفه وهي تضع الشـاهد ضمن أمثلة الطباق . ويتبع هذا اخـتلاف المعنى بين القراءتين . انظر : الحيوان للجاحظ ٣/ ٧٥ ,والبيان والتبيين ١/ ١٥ , ٣/ ٧٢ .

المتفق في الصورة - من حَلْيِ الشعر ومؤكّدا في أقسام البديع .

فـقد تبين لك أن مـا يعطى التجنيـسُ من الفضـيلة أمرٌ لم يتم إلا بنصـرة المعنى، إذ لو كان باللّفظ وحدَه لَمَا كان فيه إلا مستحسَن ، ولَما وُجد فيه معيبٌ مُستهجَن .

ولذلك ذُمَّ الاسـتكثارُ منه والوَلوع به ، وذلك أن المعـاني لا تَدين فى كل موضع لما يجذبها التجنيسُ إليه إذْ الألفاظ خَدَمُ المعانى والمصرَّفةُ في حكمها .

والمعاني هى المالكةُ سياستَها , المستحـقةُ طاعتَها ، فـمن نَصرَ اللفظَ على المعني كان كمن أزال الشيءَ عن جهته ، وأحـاله عن طبيعته ، وذلك مَظِنَّة من الاستكراه ، وفيه فتحُ أبواب العَيْب والتعرّض للشين .

ولهذه الحالة كان كلام المتقدمين الذين تركوا فضل العناية بالسجع , ولزموا سجِّيَةَ الطبع ,أمكنَ فى العقول , وأبعدَ من القلـق ، وأوضح للمراد , وأفضل عند ذوى التَّحصيل , وأسلمَ من التـفاوت , وأكشفَ عـن الأغراض , وأنصرَ للجهة التى تنحـو نحو العقل , وأبعدَ من التـعمُّد الذى هو ضـرب من الخداع بالتزويق ؛ والرضَي بأن تقع النقيصةُ فى نفس الصورة وذات الخلقة إذا أُكثر فيها من الوشم والنقش, وأُثقل صاحبها بالحلْي والوشي , قياسَ الحَلْى على السيف الدَّدَان[1] , والتوسُّع فى الدعوى بغير برهان ، كما قال : [فى وصف الخيل] (من الطويل) :

إذا لم تُشاهِد غيرَ حُسْنِ شياتها وأعضائها فالحُسْنُ عنك مغيَّبُ

وقد تجد فـى كلام المتأخرين الآن كـلاما حمل صاحـبَه فرطُ شغفـه بأمور ترجع إلى مـا له اسمٌ فى البديع إلى أن يـنسى أنه يتكلم ليُفـهِم , ويقول ليُبين ويُخيَّل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع في البيت فلا ضَيْر أن يقع ما عناه فى عَمْياء , وأن يوقع السـامعَ من طلبه فى خـبط عشـواء ,وربما طمس بكثـرة ما يتكلفه على المعني وأفـسده كمَنْ ثَقل على العروس بأصناف الحُلِىّ حـتي ينالها

(١) السيف الدَّدان : الرديء الذى لا يقطع .

من ذلك مكروهٌ فى نفسها.

فإن أردت أن تعرفَ مثالا فيما ذكرتُ لك من أنّ العارفين بجواهر الكلام لا يعرِّجون على هذا الفن إلا بعد الثقة بسلامة المعنى وصحته وإلا حيث يأمنون جنايةً منه عليه , وانتقاصا له وتعويقا دونه ، فانظر إلى خُطَب الجاحظ فى أوائل كتبه ، هذا ــ والخُطَبُ من شأنها أن يعتمدَ فيها الأوزان والأسجاع , فإنها تُروَى وتُتَناقل تَناقُلَ الأشعار , ومحلُّها محلّ النسيب والتشبيب من الشعر الذى هو كأنه لا يُراد منه إلا الاحتفال فى الصّنعة ، والدلالةُ على مقدار شوْط القريحة ، والإخبارُ عن فضل القوة , والاقتدار على التفنُّن فى الصفة . قال فى أوّل كتاب الحيوان :

«جنّبكَ اللهُ الشُّبهة , وعصَمك من الحيْرة ,وجعَلَ بينك وبين المعرفة سببا , وبين الصدق نَسَبا , وحبّب إليك التثبُّت ، وزيّن فى عينك الإنصاف , وأذاقك حلاوةَ التقوى ، وأشعر قلبَك عزَّ الحق , وأودع صدَرَك برْدَ اليقين, وطردَ عنك ذُلَّ اليأس , وعرّفك ما فى الباطل من الذّلة , وما فى الجهل من القِلّة .

فقد ترك أوّلاً أن يوفِّق بين "الشبهة" " والحيرة" فى الإعراب , ولم ير أن يقرن "الخلاف" إلى "الإنصاف" , ويشفع "الحق" "بالصدق" , ولم يُعْنَ بأن يطلب "لليأس" قرينةً تصل جناحه , وشيئا يكون رَديفًا له ، لأنه رأى التوفيق بين المعانى أحقَّ , والموازنةَ فيها أحسن , ورأى العنايةَ بها حتى تكون إخوةً من أب وأمٍّ ؛ ويذرها على ذلك تتفق بالوداد ، على حسب اتفاقها بالميلاد ، أوْلى من أن يدَعها لنصرة السجع وطلب الوزن , أولادَ عَلّة عسى أن لا يُوجد بينها وِفاق إلاّ فى الظواهر ، فأما أن يتعدّى ذلك إلى الضمائر , ويخلص إلى العقائد والسرائر ، ففى الأقل النادر.

وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيسا مقبولا , ولا سجعا حسنًا , حتى يكونَ المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساق نحوه ، وحتى تجده لا تبتغى به بَدلا ,

ولا تجد عنه حِولاً , ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه , وأحقَّه بالحسن وأولاه , ما وقع من غير قصدٍ من المتكلم إلى اجتلابه , وتأهُّبٍ لطلبه ,أو ما هو لحسن مُلاءمته _ وإن كان مطلوبا _ بهذه المنزلة وفى هذه الصورة , وذلك كما يمثّلون به أبدا من قول الشافعى رحمه الله تعالى وقد سُئل عن النبيذ فقال : "أجمع أهلُ الحرمين على تحريمه" ؛ ومما تجده كذلك قولُ البحترى (من الكامل) :

يعشَى عن المجد الغبىُّ ولن ترى   فى سؤددٍ أربًا لغير أريبِ

وقوله (من الوافر) :

فقد أصبحت أغْلَبَ تغلبىّ   على أيدى العشيرة والقلوب

ومما هو شبيه به قوله (من الكامل) :

وهوًى هَوَى بدموعه فتبادرت   نَسَقًا يَطأْنَ تجلّدًا مغلوبا

وقوله (من الكامل) :

ما زِلْتَ تقرَعْ بابَ بابَكَ بالقَنا   وتزورُه فى غارةٍ شعواءِ

وقوله (من الكامل) :

ذَهَبُ الأعالى حيث تذهبُ مُقلة   فيه بناظرها حديدُ الأسفلِ

ومثال ما جاء من السجْع هذا المجىءَ وجرى هذا المجرى فى لِين مَقادته ، وحلَّ هذا المحلَّ من القبول قول القائل : "اللهمّ هب لى حمْدًا وهب لى مجدًا ، فلا مجدَ إلا بفَعال ، ولا فَعالَ إلا بمال" ، وقول ابن العميد "فإنّ الإبقاء على خَدَم السلطان عِدْل الإبقاء على ماله ، والإشفاقَ على حاشيته وحشمه ، عِدْلُ[1] الإشفاق ، على ديناره ودرهمه" ، ولستَ تجد هذا الضربَ يكثر فى شىء ويستمر كثرتَه واستمرارَه فى كلام القدماء , كقول خالد "ما الإنسان ، لولا اللسان ، إلا صورة ممثَّلة ، وبهيمةٌ مهملة" وقول الفضل بن عيسى

(١) عِدله , أى مُساوٍ له .

الرقاشــى : "سَلِ الأرضَ فقل : من شقَّ أنهــارَك ، وغرس أشجــارَك، وجنى ثمارَك ، فـإن لم تُجبك حوارًا ،أجـابتك اعتبـارا" ،وإن أنت تتبّعــتَه من الأثر وكلامِ النبى صلى الـله عليه وسلم تثقْ كلَّ الثقـة بوجودك له على الصــفة التى قدّمتُ ، وذلك كقــول النبى عليه السلام " الظلم ظُلماتٌ يوم القيــامة" وقوله صلوات الله عليه :لاتزال أمتى بخير ما لم تَرَ الفَىْءَ مـغنما ، والصدقة مَغْرَما" وقوله ": ياأيهــا الناس أفشُوا الســلام ، وأطعموا الطعــام ، وصِلُوا الأرحام ، وصَلُّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجـنة بسلام " فأنت لا تجد فى جـميعِ ما ذكرتُ لفظا اجتُلِب من أجل الســجع وتُرِك له ما هو أحقُّ بالمعنى منه وأبرُّ به ، وأهدى إلى مذهبه_ ولذلك أنكر الأعرابىُّ حين شكا إلى عامل الماء بقوله : "حَلأتَ ركابى، وشقَـقْت ثيابى ، وضربتَ صـحابى " فقــال له العامل : "أو تَسْجَعُ أيضا!" إنكارَ العامل السجع[١] حتى قــال : "فكيف أقول ؟" وذاك أنه لم يعلــم أصلحَ لما أراد منْ هذه الألفــاظ ولم يُرَهُ[٢] بالسجع مـخلاً بمعنى أو مُحدثًا فى الكلام اســتكراها أو خارجا إلى تكلُّف واستعمــالِ لما ليس بمعتاد فى غرضه ، وقال الجاحظ: لأنه لو قال "حلأت إبلى " أو "جمالى" أو "نوقى" أو "بُعرانى" أو "صِرْمتى" لكان لــم يعبِّر عن حقِّ معناه , وإنما حُلِّئت ركابُه , فكيف يدع الركاب إلى غــير الركاب؛ وكـذلك قوله" وشققت ثيــابى وضربت صحابــى".

فقد تبيّن من هذه الجملة أن المعنى المقتضِىَ اختصاصَ هذا النحو بالقبول هو أن المتكلمَ لم يَقُــد المعنى نحــو التجنيــس والسجع بل قــاده المعنى إليهما وعثر به عليهما حتى إنه لو رام تركهما إلى خلافِهما مما لا تجنيسَ فيه

(١) السيــاق هو : أنكرَ الأعرابىُّ . . . إنكارَ الـعاملِ السَّجْعَ . اى أنّ الأعــرابىّ الذى تكلّم بســجع سهل مطبوع تعّجب من عامل الماء عندما أنكر عليه أن يتكلم بهذه الطريقة التى لا يعرف أفضل منها

(٢) أى لم يظهر له أنه أخطأ فى الدلالة على معناه .

ولا سجعَ لدخل من عقوق المعنى وإدخال الوحشة عليه فى شبيه بما يُنسب إليه المتكلف للتجنيس المستكره ، والسجع النافر : ولن تجد أيمنَ طائرا وأحسنَ أولاً وآخرا , وأهدى إلى الإحسان , وأجلب للاستحسان, من أن ترسل المعانى على سجيّتها وتدَعَها نطلب لأنفسها الألفاظَ، فإنها إذا تُركت وما تريد لم تكتس إلا ما يَليق بها ، ولم تلبسْ من المعارِض إلاّ ما يزينها ،

فـأمـا أن تضع فـى نفسـك أنه لابدّ من أنْ تجنّس أو تسـجعَ بلـفظيْن مخصوصيْن فهـوالذى أنت منه بعُرْضِ الاستكراه وعلى خَطَرٍ من الخطأ والوقوع فى الذمّ.

فإن ساعَدَك الجَدّ كما ساعد فى قوله : "أودعانى أمُتْ بما أودعانى" وكما ساعد أبا تمام فى نحو قوله (من الطويل) :

وأنجدتمُ من بعد إتهامِ دارِكُـــمْ   فيا دمعُ أنْجِدْنى على ساكنى نجدِ

وقوله (من الكامل) :

"هُنَّ الحَمامُ فإن كسرتَ عِيافةً   من حائِهِنَّ فإنهنَ حِمـــامُ

فذاك ، وإلا أطلقتَ ألسنةَ العيب، وأفضى بك طلب الإحسـان من حيث لم يحسُن الطلب، إلى أفحش الإساءة وأكبر الذنب .

من تاريخ البحث فى البديع

(١)

عند الجاحظ

من كتاب (البيان والتبين)

وقال الأشهبُ بنُ رُمَيلة:

وإنّ الألَى حانَتْ بفَلْج دماؤُهُمْ ... هُم القومُ كلُّ القومِ يا أمَّ خالدِ

همُ ساعِدُ الدّهرِ الذى يُتَّقَى به ... وما خيرُ كفٍّ لا تَنُوءُ بساعِدِ

أسودُ شرىً لاقَتْ اسودَ خَفِيَّةٍ ... تساقَوْا على حَرْدٍ دماءَ الأساوِدِ

قوله : "هم ساعِدُ الدَّهر "، إنما هو مثل , **وهذا الذى تسمّيه الرواة البديع، وقد قال الراعى :**

هُمُ كاهِلُ الدَّهْرِ الَّذى يُتَّقَى بِهِ ... ومنكِبُهُ إنْ كان للدَّهرِ مَنكِبُ

وقد جاء فى الحديث : "موسى الله أحدُّ , وساعد الله أشدّ "

والبديع مقصورٌ على العرب ، ومن أجله فاقت لُغَتُهم كلَّ لغة , وأربَتْ على كلِّ لسان . والرَّاعِى كثير البديع فى شعره ، وبَشَّارٌ حَسَنُ البديع , والعتَّابىّ يذهب فى شعره فى البديع مذهبَ بشّار .

(٢)
البديع والمحسنات عند ابن المعتز
من كتاب(البديع)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال عبدُ الله بن المعتزّ رحمه الله ، قد قدّمنا فى أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنـا فى القرآن واللغـة وأحاديث رسـول الله صلى الله عليه وسلـم وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعارِ المتقدّمين, من الكلام الذى سمـاه المحدثون البديعَ ليُعلَمَ أن بشارًا ومسلمًا وأبا نواس ومن تقـيَّلهم وسَلَكَ سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن, ولكنه كثر فى أشعارهم فعُرِف فى زمانهم حتى سُمِّىَ بهذا الاسم فأعْرَبَ عنه ودلَّ عليه , ثم إن حبيب بن أوْس الطائى من بعدهم شُغِفَ به حتىَ غلب عليه وتفـرّع فيه وأكـثر منه , فأحـسن فى بعض ذلك وأساء, فى بعض وتلك عقبى الإفـراط وثمرة الإسراف , وإنما كان يـقول الشاعـر من هذا الفن البيتَ والبيتين فى القصيدة , وربما قُرئت من شـعر أحدهم قصائـدُ من غير أن يوجَدَ فيها بيتٌ بديعٌ , وكان يُستحْسَنُ ذلك منهم إذا أتَى نادرا ويزداد حُظْوَةً بين الكلام المرسَل وقد كـان بعض العلماء يُشبِّـهُ الطائى فى البديع بصالح بن عـبد القدّوس فى الأمثال ويقول لو أن صالحا نثر أمثاله فى شعره وجعل بينها فصولا من كلامه لَسَبَق أهل زمانه وغلب على مدِّ, ميدانه , وهذا أعدل كلام سمعتُه فى هذا المعنى.

ولعل بعضَ من قـصّر عن السبق إلى تألـيف هذا الكتاب ستـحدّثه نفـسُه وتُمنّيه مشاركتَنا فى فضيلته , فيسمِّى فنّا من فنون البديع بغير ما سمّيْناه به , أو يزيد فى الباب من أبوابه كلاما منثورا , أو يفسر شعرا لم نفسره, أو يذكر شعرا

قد تركناه ولم نذكره إما لأن بعضَ ذلك لم يبلغ فى الباب مبلَغ غيره فألقيناه , أو لأن فيما ذكرنا كافيا ومُغنيا , وليس من كتاب إلا وهذا ممكن فيه لمن أراده ، وإنما غرَضُنا فى هذا الكتاب تعريفُ الناس أنّ المحدَثين لم يَسْبقوا المتقدمين إلى شىء من أبواب البـديع , وفى دون ما ذكـرنا مبلغ الغاية التى قـصدناها وبالله التوفيق.

الباب الأول من البديع وهو: الاستعارة

قال الله تعـالى ﴿هُوَ الَّذِيَ أنزَلَ عَلَيْكَ الْكتَابَ منْهُ آيَاتٌ مُـحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكتَاب﴾وقـال : ﴿وَاخفضْ لَهُـمَا جَنَاحَ الذُّلِّ منَ الرَّحْـمَةِ﴾ وقال ﴿وَاشْـتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًـا﴾وقال ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عقِـيمٍ﴾ وقال ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ منْهُ النَّهَار﴾

الاحاديث : فأمّا أحاديثُ النبى صلى الله عليه وسلم فقوله : خيْر الناسِ رَجُلٌ مُمسكٌ بعنان فرسه فى سبيل الله كلّما سمع هَيْعَةً طار إليها .

الباب الثانى من البديع وهو : التجنيس

وهو أن تجئ الكلمةُ تجانس أخرى فى بيت شعر أو كلام , ومجانستها لها : أن تشبهها فى تأليف حـروفها على السبيل الذى [هكذا] ألف الأصمعى كتاب الاجناس عليها [هكذا] ، وقال الخليل : الجِنْس لكل ضرب من الناس والطيْر والعرَوض والنحو .

فمنه مـا تكون الكلمة تُجـانس أخرى فى تأليف حروفـها ومعـناها ويشتقّ منها، مثل قول الشاعر [من الكامل]

يومٌ خلجْتَ على الخليج نفوسَهُمْ

أو يكون تُجنِسـها فى تأليف الحروف دون المعنى مـثل قول : الشـاعر(من البسيط) :

إنّ لوْمَ العاشِقِ اللُّومْ

الباب الثالث من البديع : وهو المطابقة

قال الخليل رحمه الله : يقال (طابَقْتُ بين الشيئين) إذا جمعتهما على حذْو واحد, وكذلك قال أبو سعيد , فالقائل لصاحبه " أتيْتُك لتسلكَ بنا سبيلَ التوسُّع فأدخلْتَنا فى ضيق الضّمان" قد طابق بين السعة والضيق فى هذا الخطاب_ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنكم لتكثرون عند الفزَع وتقلّون عند الطمع" وهذا مثل الأوّل.

الباب الرابع من البديع هو : ردّ أعجاز الكلام على ما تقدمها:

وهذا الباب ينقسم على ثلاثة أقسام ,فمن هذا الباب ما يوافق آخرُ كلمة فيه آخرَ كلمة فى نصفه الأول ... ...

الباب الخامس من البديع : وهو مذهب سماه عمرو الجاحظ المذهبَ الكلامي

وهذا باب ما أعلمُ أنى وجدْتُ فى القرآن منه شيئًا وهو يُنسب إلى التكلُّف، تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا .

المتقدمون ، قال أبو الدّرْداء : إنْ أخوفَ ما أخافُ عليكم أن يُقالَ : **علمتَ فماذا علمتَ .**

قد قدّمنا أبوابَ البديع الخمسةَ وكمل عندنا , وكأنّى بالمعانِد المغْرَم بالاعتراضِ على الفضائل قد قال : البديع أكثرُ من هذا , وقال: البديع بابٌ أو بابان من الفنون الخسمة التى قدمناها , فيقِلّ مَنْ يحكم عليه , لأن البديعَ اسم موضوعٌ لفنونٍ من الشعر يذكرها الشعراء ونقّادُ المتأدّبين منهم , فأمّا العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسمَ ولا يدرون ما هو , وما جمع فنونَ البديع ولا سبقنى إليه أحدٌ ، وألفتُه سنةَ أربع وسبعين ومائتين , وأوّل من نسخه منّى علىّ بن هرون بن يحيى بن أبى المنصور المنجّم .

ونحن الآن نذكر بعض محاسن الكلام والشعر , ومحاسنها كثيرة لاينبغى

للعالم أنْ يدّعِيَ الإحاطةَ بهـا حتى يتبرّأ من شـذوذ بعضها عن عِلْمـه وذِكْره , وأحببنا لذلك أن تكثُر فوائـدُ كتابنا للمتأدّبين , ويعلمَ الناظر أنّا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة اختيارًا من غير جهل بمحاسن الكلام ولا ضيقٍ فى المعرفة , فمن أحبّ أن يقتدىَ بنا ويقتصرَ بالبديع على تلك الخمسة فَلْيفعل , ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئًا إلى البديع فله اختياره .

باب الالتفات : وهو انصراف المتكلـم عن المخاطَبة إلى الإخـبار ، وعن الإخبار إلى المخاطَبة وما يشبه ذلك .

ومن الالتفات الانصرافُ عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر _ قال الله جل ثناؤه ﴿حـتّى إذَا كنتُمْ فى الفُلْكِ وجـرينَ بهم بريح طيّـبَـة ﴾ وقال ﴿إن يشَـأْ يُذْهِبْكُمُ ويأتِ بخَلْقٍ جَدِيد﴾ ثم قال ﴿ وبرزوا لله جميعًا﴾ .

ومن محاسن الكلام أيضا والشعر **اعتراضُ كـلام فى كلام لم يتمّم معناه ، ثم يعـود إليه فيـتممّـه فى بيت واحد** ,كقول بعـضهم (من الطويل) .

فظَلُّوا بيوم دَعْ أخاك بمثلـــه على مَشْرع يُرْوى ولمّا يُصَرَّدِ

وقال كُثيِّرٌ (من الوافر)

لَوَ انّ الباخلينَ- وأنت منهم رأوكِ تعلّموا منكِ المطـــالا

ومنها الرجوع وهو أن يقولَ شيئًا ويرجعَ عنه ، كقول بشار (من الكامل) .

نُبئتُ فاضحَ أُمِّهِ يغْتَابُنـــى عند الأمير وهل علىّ أميرُ

ومنها **حسنُ الخروج** من معنًى إلى معنًى، قال بعضهم (من الطويل) .

إذا ما اتقى الله الفتى وأطاعـــه فليس به بأس وإن كان من جَرْمِ

وقال بشار (من الطويل) :

خليلَّى من جَرْمٍ أعينا أخاكما على دَهْرِه إنّ الكريمَ مُعـــينُ

ولا تَبْخُلا بُخْلَ ابن قَزْعَةَ إنـه مخافةَ أن يُرجَى نَداه حزيـــنُ

إذا جئتَه فى الحقّ أغْلقَ بابَــه فلم تُلْفِه إلا وأنْت كمـــينُ

ومنها تأكيدُ مدح بما يُشْبه الذمْ كقول الذبيانى (من الطويل) :

ولا عَيْبَ فيهم غيرَ أنّ سيُوفَهم بِهنّ فُلولٌ من قِراع الكتائـــبِ

وكقول الجعْدىّ (من الطويل) :

فَتى كَمَلَتْ أخلاقُهُ غيرَ أنّــه جوادٌ فما يُبْقى من المال بَاقِيا

ومنها تجاهُلُ العارِف كقول زهير (من الوافر) :

وما أدْرِي وسوف إخال أدْرى أقومٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نِســـــاءُ

ومنها حُسْنُ التضمين . قال الأخيطل (من الكامل) :

ولَقَدْ سمَا للخُرَّمىِّ فَلَمْ يَقُــلْ بَعْدَ الوَغا : لكنْ تَضَايَقَ مُقْدَمى

ومنها التعريضُ والكناية . قال علىّ رضى الله عنه لعقــيل ومعه كبش له: أحدُ الثلاثة أحمقُ ، فـقال عقيل: أمّا أنا وكبشى فعــاقلان. وكان عروة بن الزبير إذا أســرع إليه إنسانٌ بســوء لم يُجبْه ويـقول : إنّى لَاتْرُكُكَ رفعًـا لنفسى عنك، فجـرى بينه وبين علىّ بن عـبد الله بن عـبّاس كلامٌ فـأسرع إليـه عُرْوَةُ بسوء، فقال [على] إنّى أتْركك لِما تترك الـناس له، فاشتـدّ ذلك على عروة . وقال بعـض ولد العبــاس بن محمّــد لابنه : يابن الزانيـة ، فقال : الـزانيةُ لا ينكحها إلا زانٍ أو مشركٌ.

(٣)
من كتاب (نقد الشعر)
لقدامة بن جعفر

ومن أنواع المعانى :

صحة التفسير :

وهى أن يضع الشاعر معانىَ يريد أن يذكر أحوالها فى شعره الذى يصنعه ، فإذا ذكرها أتى بها من غير أن يخالف معنى ما أتى به منها ، ولا يزيد أو ينقص ، مثل قول الفَرزْدَق :

لَقَدْ خُنْتَ قَوْمًا لو لَجَأْتَ إليهِمُ　　طَرِيدَ دمٍ أوْ حامِلاً ثِقْلَ مَغرَمِ

فلما كان هذا البيت محتاجًا إلى تفسير ، قال :

لألْفَيْتَ فِيهِمْ مُطْعمًا ومُطاعنًا　　وَراءَكَ شَزْرًا بالْوَشِيجِ الْمُقَوَّمِ

ففسر قوله : « حامِلاً ثِقْل مَغْرَم» : بأنه يُلفى فيهم من يُعطيه وفسَّر قوله : «طريدَ دَمٍ » بقوله : إنه يُلفِى فيهم من يطاعن دونه ويحميه .

ومثل قول الْحُسَيْن بن مُطَيْر الأَسَدىّ :

فلهُ بلاَ حُزَنٍ ولا بمَسرَّةٍ　　ضَحِكٌ يُراوحُ بينهُ وبُكاءُ

ففسر : « بلا حُزن » : ببكاء و « لا بمسّرة » : بضَحِك ، وقال صالح بن جناح اللَّخْمى :

لئن كنتُ مُحْتاجًا إلي الْحِلْمِ إنَّنى　　إلى الْجَهْلِ فى بعض الأحَايِينِ أحْوَجُ

وفسّر ذلك بأن قال :

ولى فَرَسٌ لِلْحِلْمِ بالْحِلْمِ مُلْجَمٌ　　ولي فَرَسٌ للجَهْلِ بالْجَهْلِ مُسْرَجُ

فلم يزد المعنى ولا نقَص منه ، ثم فسّر البيت الثانى أيضًا ، فقال :

فمنْ رام تَقْوِيمى فإنّى مُقَوَّمٌ　　ومن رام تَعويجى فإنِّى مُعَوَّجُ

وقال سَهْلُ بن هارون :

فَوَاحَسْرَتَا حتَّى متى الْقَلْبُ مُوجَعٌ　　بِفَقْدِ حَبِيب أو تَعَذُّرِ إفْضالِ

وفسّر ذلك فقال :

فِراقُ خليلٍ مثله يُورِثُ الأسَى وخَلّةُ حرٌ لاَ يَقُومُ بها مَالِــى

أنواع نعوت المعنى :

ومن أنواع نعوت المعانى :

التّتْميم :

وهو أن يذكـر الشاعـر المعنى فلا يدع من الأحـوال التى تتمُّ بهـا صحـتُه وتكمل معها جودتُه شيئًا إلا أتى به .

مثل قول نافع بن خليفة الغَنَوىّ :

رِجَالٌ إذا لم يُقْبَلِ الْحَقُّ مِنهُــــمُ ويُعْطَوْهُ عَاذُوا بالسُّيوفِ الْقَواطِعِ

من أنواع ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت :

التوشيح :

وهو أن يكون أولُ البيت شـاهدًا بقافـيته . ومعـناها متعلقـا به ، حتى إنّ الذى يعرف قافـية القصيـدة التي البيتُ منها ،إذا سمع أول البـيت عرف آخرَه وبانت له قافيته، مثال ذلك قولُ الراعى :

وإنْ وُزِنَ الحَصى فَوَزَنْتُ قَوْمِــى وَجدْتُ حَصَى ضَرِيبَتِهِمْ رَزِينَا[١]

فإذا سمع الإنسان أول هذا البيت ، وقد تقـدمت عنده قافية القصيدة، استخرج لفظةَ قافيته ، لأنه يعلم أن قوله : « وُزِنَ الْحَصَى »، سيأتي بعده : «رزين» ، لعلّتين : إحداهما أن قافية القصيدة تُوجبه ، والأخري أن نظام المعنى يقتضيه ، لأن الذي يفاخر برجَاحة الحصى يلزمه أن يقول فى حصاه إنه رزين .

وقولُ العبّاس بن مِرْداس :

هُمُ سَوَّدُوا هُجْنًا وكُلّ قَبِيلَــــة يُبَيّنُ عن أحْسَابها من يَسُودُها[٢]

---

(١) الحصى : جمع الحصاة:العقل والرأي . الضريبة : الطبيعة والسجية . الرزين : أصيل الرأي، يقال : هو رزين الرأى .

(٢) الهجن : جمع الهجين : اللئيم ، أو الذى أبوه عربي وأمه أمَةٌ غير محصنة

فمن تأمل هذا البيت ، وجد أوله يشهد بقافيته .

وقول نُصَيْب :

وَقَدْ أيْقَنْتُ أن ستَبِينُ لَيْلَـــى ... وتُحْجَبُ عنكَ إن نَفَع الْيَقِينُ[١]

وقولُ مَضرِّس بن رِبْعىّ :

تَمَنَّيْتُ أن الْفَتَى سُلَيْمًا وَمالِكًـا ... عَلَى ساعةٍ تُنْسِى الْحَلِيمَ الأمانِيَا

ومن أنواع ائتلاف القافية مع سائر البيت :

الإيغال[٢] :

وهو أن يأتى الشاعرُ بالمعنى فى البيت تامًا من غيـر أن يكون للقافية فـيما ذَكَره صُنع ، ثم يأتى بها لحـاجة الشعر ، فى أن يكون شعرًا ، إليـها ، فيزيد بمعناها فى تجويد ما ذكره فى البيت ، كما قال امرؤ الْقَيْس :

كأنَّ عُيونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَـا ... وأرْحُلِنَا الْجَزْعُ الذى لم يُثَقَّب[٣]

فقد أتى امْرُؤُ الْقَيْس علي التشبيـه كاملا قبل القافية ، وذلك أن عيون الوحش شبيهة بالجزع ، ثم لما جاء بالقـافية أوْغل بها في الوصف ووكّده، وهو قوله : الذى لم يُثَقَّب. فـإن عيون الوحش غـير مثـقَّبة، وهى بالجـزع الذى لم يثَقَّب أدْخلُ فى التشبيه ، وقال زُهَيْر :

كأنَّ فُتاتَ العِهْنِ فى كلِّ منـزلٍ ... نَزَلْنَ به حَبُّ الْفَنَا لم يُحَطَّمِ[٤]

(١) بان عنه : انقطع عنه وفارقه .

(٢) وسماه قوم : التبليغ .

(٣) الجَزع : خرز فيه سواد وبياض واحدته : جزعه ، وقد شبه عيون الوحش لما فيهن من السواد والبياض بالخرز، وجعله غير مثـقب ، لأن ذلك أصفي له وأتم لحسنه ، مع أن التشبيه علي هذه الحال أصحُّ وأتم إذا كانت عيون الوحش غير مثقبة، وإنما شبه عيونها وهى سود كلها لا يبدو فيها بياض، بالجزع - وهو أسود مجزع ببـياض - لأنه أراد عيونها وهى ميتة قد انقلبت فبدا فيها البياض والسـواد .

(٤) الفتات : مـا تفتت من الشىء ، العِهْن ، الصّوف ، أو المصبـوغ ألوانا ، الفنا : جمع فناة : شجر له حب أحمـر فيه نقط سوداء ، عنب الثعلب ، فشبـه ما تفتت من العهن الذى علق من الهودج وزين به، إذا نزلن في منزل بحب الفنا . وقـوله : لم يحطم : أراد أنه إذا كسر ظهر له لون غير الحمرة، وإنما تشتد حمرته ما دام صحيحا .

فالعهن : هو الصوف الأحمر ، والفنا : حبٌّ تنبته الأرض أحمر ، فقد أتي علي الوصف قبل القافية، لكن حب الفنا إذا كسر كان مكسره غير أحمر، فاستظهر في القافية لما أن جاءَ بها، بأن قال : لم يُحَطَّم ، فكأنه وكّد التشبيه بإيغاله في المعنى ، قال امْرؤُ الْقَيْس :

إذا ما جَرَى شأْوَيْن وَابتَلَّ عِطْفُهُ تَقُول هَزِيزُ الرِّيحِ مَرَّتْ بَأَثْأَبِ[١]

فقد تمّ الوصف والتشبيه قبل القافية ،لأنه يكفي أن يُشَبَّه حفيف جرى الفرس بالريح ، فلما أتى بالقافية، أوغل إيغالا زاد به في المعنى . وذلك أن الأثْأَبَ شجر للريح فى أضعاف أغصانه حفيف شديد .

ومما يدلّ على أن هذه المعانى قد كانت في نفوس الناس قديمًا ، أن أبا العبّاس محمد بن يزيد النحويّ قال :

حدثنى التَّوَّزِىّ[٢] قال : قلت للأصْمَعى[٣]: مَنْ أشْعَر النَّاس؟

فقال : مَنْ يأتى إلي المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيرًا أو إلى [المعنى] الكبير فيجعله بلفظه خسيسًا ، أو ينقضى كلامُه قبل القافية ،فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى .

قال : قلت : نحو مَنْ .

قال : نحو ذى الرُّمَّة. حيث يقول :

قف الْعِيسَ فِى أطْلاَلِ مَيَّةَ فَاسْأَل رُسُومًا كَأخْلاَقِ الرِّدَاءِ الْمُسَلْسَلِ[٤]

فتمّ كلامه قبل « المسلسل » ، ثم قال : «المسلسل » ، فزاد شيئًا .

---

(١) الشأو : الشوط . العطف : الجانب . هزيز الريح : صوتها . أثأب : شجر ، يشبه الأثل يشتد صوت الريح فيه . يقول : إذا جرى هذا الفرس طلقين وابتل جانبه من العرق سمعت له خفقا كخفق الريح إذا مرت بأثأب .

(٢) عبد الله بن محمد بن هارون ، وهو منسوب لموضع من بلاد فارس اسمه توز ، توفي سنة ٢٣٠هـ.

(٣) عبد الملك بن قُرَيب ، صاحب اللغة والنحو والغريب والأخبار والملح ، توفى سنة ٢١٠هـ.

(٤) العِيس بالكسر ، الإبل البيض يخالط بياضها شقرة .

ثم قال :

أظُنُّ الذى يُجْدى عليك سُؤَالُهَــا دُمُوعًا كتَبْدِيدِ الْجُمَانِ الْمُفَصَّلِ[١]

فتمّ كلامه ، ثم احتاج إلي القافية ، فقال : «المفصَّل» ، فزاد شيئًا .

قال : قلت: ونحو مَنْ ؟

قال: الأعْشَى ، حيث قال :

كنَاطِحٍ صَخْرةً يَوْمًا لِيَفْلِقَهَــــا فلم يَضِرْهَا وأَوْهَى قَرْنَهُ الْوَعِلُ[٢]

فتمّ مثَلهُ إلي قوله : « قرنه » ، فلما احتاج إلى القافية ، قال : « الوعل » ، فزاد معنى .

قلت : فكيف صار الوعل مفَضَّلا على كل ما ينطح ؟

قال : لأنه ينحطّ من قلَّة الجبل علي قرنَيْه فلا يضيره .

---

(١) يجدى : يجلب ويسبّب ، الجمان : اللؤلؤ المفصل الذي عقد بين كل لؤلؤة خرزة ، الواحدة : جمانة، كتبديد : يروي بالديوان : كتبذير .

(٢) ليفلقها : ويروى : ليوهنها . الوعل : تيس الجبل جمعه أو عال ووعول .

(٤)
من كتاب (العمدة)
لابن رشيق

باب التقسيم

حد التقسيم :

اختلف الناس فى التقسيم : فبعضهم يري أنه استقصاء الشاعر جميع أقسام ما ابتدأ به، كقول بشار يصف هزيمة :

بضربٍ يذوق الموتَ من ذاق طَعْمَهُ   ويدرك من نَجَّى الفرارُ مَثَالِبُـــــهْ
فراح فريقٌ في الأسارى ، ومِثْلُـهُ   قتيلٌ ، ومثلٌ لاَذَ بالبحر هارِبُـــهْ

فالبيت الأول قسمان : إمـا موت ، وإما حـياة تورث عارًا ومَثْلَبَـةً ، والبيت الثاني ثلاثة أقسام : أسـير ، وقتيل ، وهارب ؛ فاستقصى جـميعَ الأقسامِ ولا يوجد فى ذكر الهزيمة زيادة علي ماذكر .

ومثل ذلك قول عمرو بن الأهتم إلا أنه أكثر إيجازًا :

اشْرَبَا ماشربتما فهذَيل   من قتيلٍ وهاربٍ وأسيرِ

فجمع الوجوهَ كلها في مصراع واحد .

من جيد التقسيم

ومن التقسيم الجيد قول نُصَيْب :

فقال فريق القوم : لا ، وفريقهم :   نعم، وفريق قال: ويحَكَ ما ندرى

فلم يبقَ جوابُ سائلٍ إلا أتي به : فاستوفى جميع الأقسام ، وزعم قوم أنه أفضل بيت وقع فيه التقسيم .

ومن أناشيد قدامة في هذا الباب قول الشَّمَّاخ يصف حمار وَحْش :

متى ما تَقَعْ أرساغُهُ مطمئنَّـةً   علي حَجَرٍ يرفَضُّ أو يتدحرج

فلم يُبقِ الشـماخ قـسما ثالـثاً إلا أن يقول : يغـوص في الأرض ، وذلك لا

يلزم؛ من جهة أن الحافر عند الجـرى وسرعة المشى ، يقذف الحجر إلي وراء ، إلاأنه لو أتي به لكان حسنا من أجل قوله « مطمئنة » .

من جيد التقسيم في المنثور :

ومن أشرف المنثـور فى هذا الباب قـول رسول الله ﷺ : « وهل لك يا ابن آدمَ من مـالك إلا مـا أكلتَ فـأفنيْت ، أو لبِـسْتَ فـأبْليْت ، أو تصـدّقْت فأمضيْت» فلم يُـبق عليه الصلاة والسلام قسمًا رابعًـا لو طُلب يوجد . . وقال نافع بن خليـفة « يا بنى، اتقوا الله بـطاعته ، واتقـوا السلطانَ بحقّـه ، واتقوا الناس بالمعروف» فقال رجال منهم : ما بقى شىءٌ من أمر الدين والدنيا إلا وقد أمرتّنا به . . وقال أعرابى « إذا كـان الرأىُ عند من لا يُقْبلُ منه ، والسلاحُ عند مَنْ لا يستعـمله ، والمال عند من لا ينفقه ضاعت الأمـور » وكان ثابت البناني يقول « الحمد لله وأستغفر الله » فسُـئل : لم خصَّهما ؟ فقال : لأنى بين نعمة وذنب ، فأحـمد الله علي النعمـة ، وأستغفـره من الذنوب . . ووقف أعرابي علي حلقة الحسن البصرى فـقال : «رحم الله مَنْ تصدق من فضل ، أو وَاسَى من كَفَاف ، أو آثر من قُوت» فقال الحـسن : ماترك البدوى منكم أحدًا إلا وقد سأله .

عود إلى جيد التقسيم فى الشعر :

ثم نعود إلى الشعر ، . قال عمر بن أبى ربيعة المخزومى :

وهَبْهَا كشىءٍ لم يكن، أو كنَازح به الدارُ ، أو مَنْ غَيَّبَتْهُ المقابـــرُ

فلم يُبق مما يعبَّر به عن إنسان مفقود قسما إلا أتى به فى هذا البيت .

وقال آخر ، وأحسبه أبادهْبل الجمحى أو طريحًا :

لو قلت للسيل دَعْ طريقك والـــ ـموجُ عليه كالهضْبِ يَعتلــــج

لا رْتَدَّ ، أوساخَ ، أو لَكَانَ لـه فى سائر الأرض عنك مُنْعــرَجٌ

ولا يدع السيل طريقه إلا بأحد هذه الأشياء

وقال أبو العتاهية :

وعليَّ من كَلَفي بكم ... قَيْدٌ وجامعةٌ وغُلُّ

فأتى على جميع ما يتخذ للمأسور أو المجنون ولم يُبق قسما .

هذا وأمثاله مما قدمت هو الجيد من التقسيم ؛ وأما ما كان فى بيتين أو ثلاثة فغير عاجز عنه كثير من الناس .

أصحّ تقسيم :

وزعم الحاتمى أن أصح تقسيم وقع لشاعر قول الأسْعَر الجُعْفِيّ يصف فرسًا :

أما إذا استقبلته فكأنه ... بَازٍ يكفكف أن يطير وقد رأى

أما إذا استدبرتَه فتسوقُهُ ... ساقٌ قَمُوصُ الوقع عارية النَّسَا

أما إذا استعْرَضْتَهُ متمطّرًا ... فتقول : هذا مثلُ سِرْحَانِ الْغَضَا

واختاره أيضا قدامه ، وقد صنعت على ضَعْف مُنَّتِي وتأخر وقتى :

إذا أقبلت أقْعَتْ ، وإن أدبرت كَبَتْ ... وتعرض طولاً فى العنان فتستوى

وكَلَّفْتُ حاجاتى شبيهة طائر ... إذا انتشرت ظلَّت لها الأرض تنطوى

ومن التقسيم نوع هو هذا الأول إلا أن فيه زيادةً تدريجًا وترتيبا فصعُبَ لذلك علي متعاطيه وقلَّ جدًا . . فأحْسَنُه قولُ زهير بن أبى سلمى :

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا طعنوا ... ضَارَبَ حتي إذا ما ضاربوا اعْتَنَقَا

فأتى بجميع ما استعمل فى وقت الهِيَاج ، وزاد ممدوحه رتبة ، وتقدم به خُطوة علي أقرانه ، ولا أرى فى التقسيم عديل هذا البيت، ويليه في بابه قولُ عنتره :

إن يلحقوا أكْرُرْ ، وإن يستلحموا ... أشْدُدْ، وإن يُلْفَوْا بضَنْك أنزلِ

ويروى «وإن يقفوا » ومما ينضاف إليهما قول طَريح بن إسماعيل الثقفى :

إن يسمعوا الخير يُخْفُوه ، وإن سمعوا ... شرًا أذَاعُوا ، وإن لم يسمعوا كذبوا

وقال الحسين بن الحمام :

دفعناكُمُ بالحلم حتى بَطِرْتُمُ ... وبالكَفِّ حتى كان رفعُ الأصابع

فلما رأينا جَهْلكم غيرَ مُنْتَــــــهِ وما قد مضى من حِلمِكُمْ غيرَ راجع

مَسَسْنَا من الآباء شيئًا ، وكلنـــــا إلى حَسَبٍ في قومه غير واضــــع

فلما بلغنا الأمهات وَجَدْتُـــــــمُ بنى عمكم كانوا كرام المَضَاجِـــــع

كأنه يقول : نحن أكرم منكم أُمَّهَاتٍ ، فهذا هو التَّدريج فى الشعر .

وبعضــهم فى التقســيم على خلاف مــا قدمت : زعم أبو العيناء أن خــير تقسيم قيل قول ابن أبى ربيعة :

تهيم إلي نُعْمٍ ، فلا الشمل جامـــــع ولا الحبل موصولٌ ، ولا أنت مُقْصِرُ

ولا قربُ نُعْم إن دَنَتْ منك نافـــعٌ ولانأيُهَا يُسْلى، ولا أنت تَصْبِـــــرُ

واختار قوم آخرون قول الحارثى

فلا كمدي يَفْنَى ، ولا لَكِ رِقَّـــــةٌ ولا عَنْكِ إقصار ، ولا فيك مَطْمَع

وزعم الفرزدق أن أكمــل بيت قالته العرب - أو قال : أجــمع بيت - قول امرئ القيس :

له أيْطَلاَ ظبى ، وساقا نعامـــــةٍ وإرخاء سِرْحَانٍ ، وتَقْرِيب تَتْفُلِ

وقال الأعشى يصف فرسًا :

سَلِس مُقَلَّدُهُ ، أسيـ ـــلٌ خَدُّهُ ، مَرِعٌ جَنَابُهْ

وقال عمرو بن شأس :

مُدْمَجٌ سَابِغُ الضلوع طويلُ الشَّـ ـخْص عَبْلُ الشَّوَى مُمَرُّ الأعالى

وقال أبو دؤاد الإيادى :

بعيدُ مَدى الطَّرْفِ خاظِي البَضِيعِ مُمَرُّ الْمطَاَ سَمْهَرِيُّ الْقَصَـــــبْ

جمع الأوصاف:

هــذا ومــا قبله يســمَّى جــمْعَ الأوصاف ، وســماه بعض الحُــذَّاق من أهل الصناعة **التعقيب** - العين قبل القاف - وأما التقعيب فمكروه في الكلام .

وكان محمدبن موسى المنجم يحب التقسيم فى الشعر ، وكان معجبًا بقول العباس بن الأحنف :

وصَالُكُم صَرْمٌ وحُبُكُمُ قِلَـى وعَطْفكم صَدٌّ ، وسلمكم حَرْبُ

ويقول : أحْـسَنَ والله فيـما قـسم حين جعل كل شىء ضـده ، والله إن هذا التقسيم لأحسن من تقسيمات إقليدس ،. حكى ذلك الصولى :

ومن مليح التقسيم قول داود بن سلم :

فى باعه طولٌ ، وفي وَجهــه نور ، وفى العِرْنين منه شَمَمْ

فوصف بعض أحواله وقسمها كما فعل الأولون

من التقسيم التقطيع :

ومن أنواع التقسيم التقطيع ، أنشد الجرجانى للنابغة الذبيانى :

ولله عَيْنَا من رأى أهل قبَّـة أضرَّ لمن عادى وأكثر نافعًـا

وأعظمَ أحلامًا وأكبرَ سيــدًا وأفضلَ مَشْفوعًا إليه وشافعًا

مراجع حديثة فى علم البيان

١- أمالى على عبد الرازق فى علم البيان وتاريخه ، على عبد الرازق ، مصر ١٣٣٠هـ.
٢- فى البلاغة العربية ، د. رجاء عيد ،مكتبة الطليعة أسيوط
٣- البلاغة الواضحة ، على الجارم ومصطفى أمين ، دار المعارف .
٤- البيان فى ضوء أساليب القرآن ، د. عبد الفتاح لاشين ، دار المعارف، مصر ١٩٨٥ .
٥- التشبيه البليغ ، د. عبد العظيم المطعنى ، دار الأنصار ، القاهرة .
٦- التصوير البيانى ، د. حفنى محمد شرف ، مكتبة الشباب
٧- التصوير البيانى ، د. محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، مصر ١٩٨٠ .
٨- التعبير البيانى ،د. شفيع السيد ، دار الفكر العربي، مصر ١٩٨٢ .
٩- التعريض فى القرآن الكريم ، د. إبراهيم محمد عبد الله الخولى ، توزيع دار المعارف ١٩٨٥ .
١٠- التوليد الدلالى فى البلاغة والعجم ، محمد غاليم .
١١- الدراسات البيانية فى المصنفات الأولى فى معانى القرآن، د. أحمد عبد الواحد، مطبوعات نادى مكة الثقافي، السعودية
١٢- دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر فى التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير، الأستاذ عبد الهادى العدل ، دار الطباعة المحمدية ١٩٥٨ .
١٣- دراسات فى النقد والبلاغة د. عبد الحميد القط ، دار المعارف .
١٤- الصورة البيانية فى التراث البلاغى ، د. حسن طبل ، مكتبة الزهراء ، مصر ١٩٨٥ .

١٥-الصورة الفنية فى التراث النقدى والبلاغى ، جابر عصفور.
١٦- علم البيان ، د. بدوى طبانة مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٧ .
١٧- علم البيان ، د. بسيونى عبد الفتاح ، طـ ١٩٨٧.
١٨- علم البيان د. عبد الرازق ابو زيد .
١٩- علم البيان د، عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية ، بيروت .
٢٠- فمن التشبيه فى الشعر العباسى محمد رفعت أحمد.
٢١- الكناية ، أساليبها ومواقعها فى الشعر الجاهلي، محمد الحسن على الامين مكة المكرمة.
٢٢- المدخل فى علم البيان ، محمد محمود بندق ، ١٩٩٦.
٢٣- مفهـوم الاستعارة فى بحث اللغويين والنقـاد والبلاغيين، د. أحمد عبد السيد الصاوى ، هيئة الكتاب- الاسكندرية .

مصادر قديمة فى علم البيان

١- أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجانى .
٢ - الإيضاح فى علوم البلاغة ، للخطيب القزويني
٣- حلية المحاضرة فى صناعة الشعر، لأبى علىّ الحاتمى .
٤ - سرّ الفصاحة ، لابن سنان الخفاجى .
٥ - الصناعتين ، لأبى هلال العسكرى .
٦ - العمدة فى صناعة الشعر وآدابه ونقده ، لابن رشيق القيروانى .
٧ - المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر . ، ضياء الدين بن الأثير
٨ - نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز ، لفخر الدين الرازى .

من المؤلفات فى البديع

١ - أنوار الربيع فى أنواع البديع ، لابن معصوم المدنى ١٩٦٨ - العراق

٢ - البديع من المعانى والألفاظ ، د. عبـد العظيم المطعنى ١٩٨٩ ، مكة المكرمة .

٣ - البلاغة الغنية ، على الجندى - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٦ .

٤ - خزانة الأدب لابن حجة الحموى ، طبعة قديمة .

٥ - شرح الكافية البديعية ، لصفى الدين الحلّى ، دمشق ، ١٩٨٣ .

٦ - الصّبغ البـديعى فى اللغة العـربيّة ، د. أحمـد إبراهيم موسى ، دار الكاتب للطباعة والنشر ، ١٩٦٩ .

٧ - الصـور البديعـية بين النظريـة والتطبيق د. حـفنى محـمد شـرف ، ١٩٦٦ .

٨ - علم البديع ، نشأته وتطوّره د. عبد الرازق أبو زيد - ١٩٨٧ .

٩ - فنون التصوير البيانى ، د. توفيق الفيل ١٩٨٧ . .

فهرس